

٢٤
٥-٥
٤٥٠

الرسالة الفنية في العصر المملوكي الاول بمصر والشام

إعداد الطالب

١٥
٢٦٩١

خالد عبدالرؤوف عثمان جبر

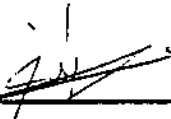
إشراف

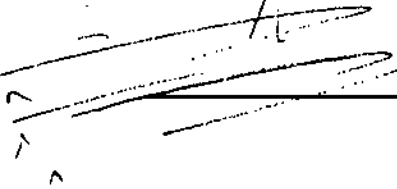
الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في قسم اللغة
العربية بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية .

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٠/٨/١٩٩٢م ، واجيزت .


الاستاذ الدكتور : عبد الجليل عبد المهدي رئيساً


الاستاذ الدكتور : عبد الكريم خليفة عضواً


الاستاذ الدكتور : محمود إبراهيم عضواً

إهداء

إلى روح والدي ،
وإلى أمي ، يداً تكفكف دموع فرح في عينيها ،
وعبادة ،
ويمان ،
وشقيقة روعي فريدة ، فقد عانت وأعانت .

خالد

شكر

أتوجه بالشكر الجزيل لأستاذي الكريم الدكتور عبدالجليل حسن
عبد المهدي ، وأقدر له أناته ورعايته ، فلولاهما ، بعد توفيق
الله ، ما كانت هذه الدراسة على صورتها هذه .

كما أشكر لأستاذي* الكريمين : الدكتور عبدالكريم خليفة ،
والدكتور محمود إبراهيم ما منحاني من عناية ، وملاحظاتهم القيمة
التي أثرت هذه الدراسة .

مقدمة

نحنا المحدثون في دراسة أدب العصر المملوكي مناحي متباينة في تناول فن الرسائل ؛ فمنهم من درسها في سياق العصر المملوكي^(١) ككتبه ٩٢٣-٩٤٨ هـ علميًّا ، وأدبيًّا ، كما فعل محمود رزق سليم في كتابه "عصر سلاطين المماليك" ، ومنهم من عرض لها في دراسته لأدب العصر مثل الدكتور محمد كامل الفقي في كتابه "الأدب العربي في العصر المملوكي" ، والدكتور محمد زغلول سلام في كتابه "الأدب في العصر المملوكي" . ومنهم من عرض للنثر المملوكي في شأيا بحثه تطور النثر العربي كما في كتاب الدكتور شوقي ضيف : "الفن ومذاهبه في النثر العربي" ، وكتاب : "تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي" للدكتور أنيس المقدسي^(٢) ، كما اتخذ بعضهم من دراسة الكتاب في عصر المماليك نهجاً لدراسة نثره مثل : الدكتور عمر موسى باشا في كتابه "الأدب العربي في العصر المملوكي" ، ومحمد بن الخوجة في كتابه : "الترسل وابن عبد الظاهر" .

وقد كان الدكتور شوقي ضيف من أوائل الدارسين للنثر في العصر المملوكي في كتابه "الفن ومذاهبه في النثر العربي" ، لكن الجزء الذي خصمه لدراسته لم يكف كافياً لتبيين فن الرسائل موضوعياً وفنيًّا . وقد حكم على النثر في هذا العصر بأنه متكلف يقلل من قيمته سعي الكتّاب وراء التزيين^(٣) ، وتجدر الإشارة إلى عودته عن هذا الحكم في كتابه البحث الأدبي^(٤) .

أما الدكتور محمد زغلول سلام ، فقد عرض للرسائل عرضاً سريعاً ، واستعرض بعض نصوصها ، وجمع إليها المقامات والكتابة الأدبية ، ثم خلص إلى الخصائص الفنية للكتابة ، وأطلق حكماً عاماً على لغة الكتاب مفاده أن تعبيرات عامية والمفاظاة دارجة دخلتها^(٥) ، ولعله حكم لم ينبع من استقرار دقيق للنصوص .

ولم يفرد الدكتور أنيس المقدسي في كتابه "تطور الأساليب النثرية في الأدب

(١) انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف بمصر ١٩٦٥م ، (ط٤) : ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٢) انظر البحث الأدبي ، دار المعارف بمصر ١٩٧١م ، ٢ : ٥ - ١٦ .

(٣) انظر الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف بمصر ١٩٧١م ، ٢ : ٥ - ١٦ ، ٤١ .

العربي" جزءاً لدراسة الرسائل في العصر المملوكي، بل أُورد في سياق حديثه عن الرسائل الأدبية رسائل كتبت قبل هذا العصر، وبعده، وأختر لكتاب أندلسيين، ثم حكم على الإنشاء بعد القرن السادس الهجري بأنه كان صناعة متكلفة (١).

وقد أوجز الدكتور محمد كامل الطقي في حديثه عن فن الرسائل في كتابه "الأدب العربي في العصر المملوكي"، حيث لم يعرض لنصوص كثيرة، بل لم يمثّل للرسائل الديوانية، ومثل للرسائل الإخوانية برسالة واحدة قصيرة، كما حكم على كتاب العصر بأنهم مقلّدون ضعيفو السلائق (٢).

أما الدكتور جودت الركابي، فقد حكم على النشر في العصر المملوكي بالعقم، ووسم العصر كله بالجمود والانحطاط، دون أن يستعرض نماءً واحداً من الرسائل (٣).

وتجدر الإشارة إلى أن دراسة محمد بن الخوجة مقصورة على دراسة محيي الدين بن عبد الظاهر، وقد ضمّن جزءاً منها دراسة رسائله، لكنّه لم يحلّل نصوصاً منها، كما تحدث عن ديوان الإنشاء، واتبع ذلك ببعض نصوص لرسائل كتبها محيي الدين (٤).

أما الدكتور عمر موسى باشا، فإن دراسته لنشر هذا العصر تعتمد على دراسة الكتاب، ولم يفرد جزءاً من كتابه "تاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي" للرسائل، ولم يعط صورة واضحة لفن الرسائل (٥).

وقد فتحت هذه الدراسات آفاقاً جديدة أمامي للبحث، وأعانت على تحديد معالم هذه الدراسة موضوعياً وفنياً، إذ أفدت من آراء الباحثين فيها، وتلمّست الجوانب التي اُخِلّت بها. وأرى أن أكثر الدراسات المتقدمة فائدة كانت دراسة

-
- (١) انظر تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٢م، ط ٧: ٣٢٥ - ٣٤٤.
 - (٢) انظر الأدب العربي في العصر المملوكي، دار الموقف العربي، القاهرة ١٩٨٤م، ط ٣: ١٠٧، ١١٠ - ١١٢، ١٢٢ - ١٢٧.
 - (٣) انظر الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، دار الفكر، دمشق ١٩٨٣م: ١٤٣ - ١٤٥، ١٥٢.
 - (٤) انظر الترسل وابن عبد الظاهر، منشورات اتحاد الكتاب، تونس ١٩٥٦م: ٢٠ - ٢٤، ٥٦ - ٨٧.
 - (٥) انظر تاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت ١٩٨٩م: ٤٥٣ - ٥٤٠.

أُشرت آنفء إلى أن هذه الدراسة تشمل نتاج العصر المملوكي كله علما وأدبا ونقدا وتاريخا ، من قيام دولة المماليك عام ٦٤٨هـ وحتى بداية الحكم العثماني عام ٩٢٣هـ ، ومما يلاحظ أن الباحث كان يسعى وراء الكشف عن معالم الروح "المصريّة" في دراسته (١) ؛ ولذا كان بحثه مركزاً على مصرية أدب عصر المماليك ، كما جمع في دراسته بين فن الرسائل والمقامات والحكايات والكتب الأدبية والتاريخية والنقدية ، واعتمد في تقسيماته على تقسيمات القلقشندي في "صبح الأعشى" ؛ ولذا افتقد بحثه عنصراً مهماً في أدب هذه الفترة ، ألا وهو أثر الغزوين الصليبي والمغولي في فن الرسائل ، ويلاحظ اعتماده على إيراد النصوص المطبوعة ، وقد آثرت أن أترك الحديث عن تفاصيل هذه الدراسة إلى مكانها المناسب في دراستي .

يتضح مما تقدم أن فن الرسائل في العصر المملوكي الأول، لم يُدرس دراسة مستقلة فيما اطلعت عليه من الدراسات المتقدمة ، وأن ما تقدم منها ركّز على بيئة مصر دون الشام التي كانت موطن الحروب التي خاضها المماليك ضد الغزاة الصليبيين والمغول ، كما أهملت هذه الدراسات أثر تلك الحروب في فن الرسائل ، وقد كان لها أثر جلي واضح ، بل كانت الرسائل الجهادية من أهم مميزات هذا العصر ونتاجه الأدبي . ومما أهمله الباحثون المتقدمون ، الكشف عن صورة المجتمع من خلال الرسائل ، وموقف المماليك من بعض القضايا الاجتماعية ، ودراسة أحوال الطوائف في ذلك المجتمع مثل الشيعة وأهل الذمّة .

وأشير هنا إلى إشاري عدم الفصل بين بيئتي : مصر والشام ، انطلاقاً من ارتباطهما في هذا العمر ارتباطاً وثيقاً ، وصعوبة الفصل بين كتابهما لتناقضهما في البيئتين ، وتأثرهم بروافد ثقافية واحدة ، وخضوع البيئتين لمؤثرات سياسية داخلية وخارجية واحدة .

(١) انظر: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ٥ : ٥ ، ٨٧ ، ١٠٧ ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، المطبعة النموذجية ، القاهرة ١٩٥٦م .

وقد جاءت هذه الدراسة في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ، تناولت في التمهيد ديوان الإنشاء في عصر المماليك الأول ووظائفه ، ثم أتبعته ذلك بحديث عن ثقافة الكاتب وروافدها ؛ وذلك لما لهذين الموضوعين من أثر في فن الرسائل .

وفي الفصل الأول بحثت في الرسائل من حيث موضوعاتها ، وبدأت بتحديد مفهوم الرسالة الفنية ، ثم درجته في تقسيم الرسائل على ما درج عليه جملة الباحثين من تصنيفها إلى : ديوانية ، وإخوانية ، وأدبية ، وحاولت في دراستي للرسائل الديوانية ، أن أتبيّن صورة المجتمع المملوكي بممر والشام من خلالها في الجوانب السياسية والدينية والاجتماعية ، مؤجّلاً دراسة الرسائل الجهادية إلى مكانها المخصّص لها في الفصل الثاني ، وبيّنت أن " الكتاب عبّروا عن رأي المماليك في الحكم ، وموقفهم من الخلافة والخليفة ، واعتمادهم في تولّي الحكم على نظام ولاية العهد ، كما بيّنت ما صورته الرسائل من خلافات سياسية بين السلاطين والأمراء . أما فيما يتصل بالحياة الدينية فقد بحثت في موقف المماليك من بعض المذاهب الفقهية ، وموقفهم المارم من الشيعة . وأمّا في الحياة الاجتماعية ، فقد بيّنت ما تصوره الرسائل الديوانية من مواقف المماليك في بعض الظروف القاسية مثل النكبات ، ومسامحتهم للعامة من بعض الديون والضرائب ، وسعي بعض السلاطين ونوابهم لإبطال المفساد ، وموقفهم من أهل الذمة الذين عاشوا في المجتمع المملوكي. ودرست في سياق ذلك دور الرسائل في التعبير عن بعض مظاهر البهجة والفرح .

وفي الرسائل الإخوانية درست موضوعاتها المتمثلة في التهاني ، والتعازي ، والشكر ، والتشوق والاستدعاء ، والشكوى والعتاب ، والاعتذار ، والهدايا ، والشفاعات .

أما الرسائل الأدبية ، فقد بحثت في بعض موضوعاتها المتمثلة في: الطرديات، والشتويّات ، والمفاخرات والمناظرات ، والمجونيات ، ووصف النكبات كالزلازل والابوثة ، والنقّذ والذم .

ولما كان الجهاد هو السمة البارزة لهذا العصر ، وكانت الرسائل الجهادية من

الكثرة والتنوع بمكان ، فقد أفردت الفصل الثاني لدراسة أثر الغزوين : الصليبي والمغولي في الرسائل في هذا العصر ، وحاولت أن أبين دور الكتاب ومشاركتهم في التعبير عن آمال الأمة وآلامها ، وأحلامها وأفراحها بالانتصارات ، فجعلت هذا الفصل في موضوعات تمثل الرسائل الجهادية ، مثل : الحث على الجهاد ، والبشارات بالنصر ، التهديد ، والسخرية من العدو .

ثم تناولت بالدراسة موضوعات جزئية في هذه الرسائل مثل : صورة النصر فيها ، وصورة الهزيمة ، وصورة المجاهدين المسلمين ، وصورة الغزاة ، ووصف القلاع والحصون ، والأسلحة وأساليب القتال .

أما الفصل الثالث فقد خصصته لدراسة الرسائل دراسة فنية ، فبحثت في بناء الرسائل الديوانية والإخوانية. والأدبية ، وبينت أساليب افتتاحها ، وعرضها ، وحسن التخلص فيها ، واختتامها .

ثم بحثت في أسلوب الرسالة ، فدرست أهم المؤشرات فيه ، ثم عرضت لأبرز خصائصه ، وكانت الصنعة الفنية أولها ، فحاولت أن أعلل سيادة الذوق الفني البديعي في الرسائل ، مستعرضاً آراء النقاد والباحثين الذين حاولوا تحليله ، وأضفت إليها ما اعتقدت صحته ، ثم درست ملامح الصنعة في الرسائل من سجع وجناس وطباق ومقابلة وتورية ، وربطت هذه الملامح بالموضوعات ، محاولاً تحليل كل منها ، مناقشاً آراء النقاد فيها .

أما الظاهرة الثانية في الأسلوب فكانت بروز الاقتباس من القرآن الكريم والاحاديث النبوية فيه ، وتناولت هذه الظاهرة من حيث : اقتباس الكتاب للآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، وحللهم لتلك الآيات والاحاديث ، مبيناً ارتباطها بموضوعات محددة مثل رسائل الجهاد ، كما بينت مواقف النقاد من هذه الظاهرة .

وتتبعنت النزعة الاتباعية في الرسائل من خلال تأثر الكتاب بالأدباء السابقين : شعراء وكتاباً ، وحاولت تحت هذا العنوان ، أن أتبين الشعراء الذين تأثروا بهم ، وعصورهم ، والموضوعات الشعرية التي تأثروا بها ، محاولاً تحليل

ذلك من حيث : مناسبة ما تأثروا به لموضوعات الرسائل ، وقيمة الشعراء السابقين . وتناولت أثر الأمثال في الرسائل ، واهتمامهم بها وآراء النقاد في تضمينها وحلّها .

وأتبعت ذلك بحديث عن اللغة في الرسائل الفنية ، وقد اقتضت في حديثي على بعض الظواهر اللغوية التي تكاد تكون مميزة ، مثل الحذف الاكتفائي ، والتوليد اللفظي ، والالفاظ الكتابية ، وتوجيه الأسماء والاصطلاحات في الرسائل ، ودخول الفاظ أعجمية في بعض الرسائل إلى غير المسلمين .

وخصصت قسماً من هذا الفصل للحديث عن آراء النقاد في الصورة الفنية ، واهتمام كتاب العصر بها ، وأتبعت ذلك بعدد من صورهم محاولاً أن أمثل لها بشمول وتنوع ، مظهراً مرتكزات الصور على اختلافها ، وأنماطها ، ثم درست مصادر تلك الصور ، ووظيفتها رابطاً ذلك بموضوعات الرسائل .

وأما في الخاتمة فقد أوجزت الحديث عن النتائج التي وصلت إليها في هذا البحث ، فيما يتعلق بنهوض فن الرسائل بالقضايا التي أنيطت به ، ومدى مشاركة الكتاب في التعبير عن القضايا السياسية والاجتماعية والدينية ، والتقويم الفني للرسائل . ثم ألحقت ذلك بفهرس للمحتوى ، وثبت بالمصادر والمراجع .

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المصادر التي ألفت في العصر المملوكي ، وكان أهم هذه المصادر "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقلقشندي ، وهو يحوي عدداً كبيراً من نصوص الرسائل المختلفة ، كما أورد كثيراً من آراء النقاد القدامي فيما يتصل بأصول الكتابة الفنية .

وكان كتابا محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهما "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" ، و "تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور" ، من مصادر هذه الدراسة ؛ إذ يؤرخ فيهما لما يقرب من ثلاثين عاماً شهدت كثيراً من الأحداث ، وفيهما نصوص لكثير من الرسائل الديوانية ، وبخاصة الجهادية منها .

كما اعتمدت على كتاب "حسن التوسل إلى صناعة الترسل" لشهاب الدين محمود

الطبي ، وهو أحد المصادر لدراسة فن الرسائل ، فيه بعض نصوص الرسائل الديوانية والإخوانية والأدبية .

ومن المصادر المهمة لهذه الدراسة ، ديوان ابن السوردي ، إذ ضمن القسم الأول منه نصوصاً كثيرة لرسائل في موضوعات مختلفة .

وكان أهم المصادر في دراسة الرسائل الجهادية كتاب "ذيل مرآة الزمان" لقطب الدين اليونيني ، فهو يشتمل على كثير منها .

وبعد ، فهذا جهد أؤمل أن يكون قد أوفى الموضوع حقّه ، والله حسبي، إنّه نعم المولى ونعم النصير .

خالد جبر

عمان بتاريخ ١٠/٨/١٩٩٢م

ملخص الرسالة

تحاول هذه الأطروحة أن تقدم صورة واضحة لفن الرسائل في العصر المملوكي الأول بمصر والشام ، وقد ركز الباحث على دراسة الرسالة الفنية التي تمتاز ببنائها القائم على مقدمة وعرض وخاتمة وبأسلوبها البديعي .

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد وفصول ثلاثة وخاتمة . عرض الباحث في التمهيد لدراسة ديوان الإنشاء ووظائفه في هذا العصر ، وألحق بذلك دراسة حول ثقافة كاتب الإنشاء .

وفي الفصل الأول صنف الباحث الرسائل أصنافا ثلاثة ، وهي : الديوانية ، والإخوانية ، والأدبية ، ثم قدم عرضا لموضوعات الرسالة الديوانية ، فحاول أن يدرسها من خلال ربط موضوعاتها بالجوانب السياسية والدينية والاجتماعية في المجتمع المملوكي ، وتبين منها أن الكتاب قد عبروا عن وجهات نظر المماليك في مختلف القضايا ، ومواقفهم من بعض الطوائف كالشيعة والمتصوفة .

أما الرسائل الإخوانية ، فقد تمثلت موضوعاتها في التهاني ، والتعازي ، والشكر ، والاعتذار ، والعتاب ، وغيرها مما يدور بين الأصدقاء ، وهي متممة بصدق العاطفة إلى حد كبير .

وأما الرسائل الأدبية ، فهي تختلف في موضوعاتها عما تقدم ، إذ كتبت في وصف رحلات الصيد ، أو التجارب العاطفية والماجنة ، أو وصف مظاهر الطبيعة مثل الأمطار والثلوج ، ومنها ما كتب في المناظرة بين شيتين مختلفين كالقلم والسيف ، ومنها ما كتب في وصف النكبات كالزلازل والأوبئة .

وفي الفصل الثاني درس الباحث أثر الغزوين الملبيني والمغولي في الرسالة الفنية ، ووجد أن الكتاب قد شاركوا في الجهاد من خلال الحث عليه ، والبشارات بالنشر ، وتهديد الأعداء ، والسخرية منهم في رسائلهم ، ثم قدم دراسة لموضوعات جزئية في هذه الرسائل مثل : صورة النمر ، وصورة الهزيمة ، وصورة المجاهدين ، وصورة الأعداء ، ووصف الحصون والأسلحة وأساليب القتال .

أما الفصل الثالث ، فقد خصمه الباحث للدراسة الفنية للرسائل ، فتناول بناءها وأساليب افتتاحها وعرضها واختتامها ، ثم درس فنون البديع في الرسائل من سجع وجناس وطباق ومقابلة وتورية ، وهي فنون لم تكن مرفوعة في ذلك العصر ، بل حث النقاد عليها ، ووجد الكتاب فيها جمالا وروعة . وأتبع بذلك حديثا عن أثر القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر العربي ، والأمثال ، والرسائل والخطب في الرسالة الفنية ، ووجد أن لها أثرا واضحا وبخامة القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي الجاهلي والعباسي . ثم درس الصورة الفنية في الرسائل . ووجد أنهم اهتموا بها ، واعتمدوا على التشبيه والمجاز والاستعارة في رسمها ، كما اهتموا بالصورة الحركية الحية أكثر من الجامدة أو الصامتة ، ولم تكن عنايتهم بالتصوير بغير هدف ، بل أكدت الدراسة أن صورهم كانت تخدم موضوعات الرسائل والأغراض منها .

وخلص الباحث إلى أن أدب هذا العصر يمثل ذوقا فنيا من نوع خاص ، له أسبابه المسموعة ، ولا يجوز بأية حال أن نحاكمه ونحاكم أدبه وأدباءه بمقاييس عصرنا هذا ، أو أي عصر آخر ، بل من الإنصاف أن نحاكمه بمقاييسه وذوقه .

- ديوان الإنشاء -

أشار القلقشندي إلى العلاقة بين تطور النظام الإداري للدولة وبين اهتمامها بديوان الإنشاء ، فقال : "فأواثل الدول الكرييون عهدا بالبادية لاعلاقة لهم بكتابة الإنشاء ، وإذا استحضرت الدولة صرفت اهتمامها إلى ديوان الإنشاء ، وترتيجه" (١) . ومصادق ذلك تطور الديوان على مر العصور الإسلامية (٢) .

وشمة ظاهرة بارزة في عمر الممالك تجدر الإشارة إليها ، وهي أن النظام الإداري فيه قد بلغ درجة عالية من التعقيد والدقة وتعدد الأجهزة (٣) ، إذ كانت الدولة موزعة في نيابات عدة بين مصر والشام (٤) ، وامتدت سيطرة الممالك إلى الحجاز (٥) ، وربطت الدولة علاقات متشعبة مع الدول الإسلامية وغيرها من الدول في أنحاء المعمورة (٦) . وقد نشأت عن ذلك كله حاجة شديدة إلى نظام مراسلات دقيق ، مما أدى إلى عنايتهم بديوان الإنشاء ، بحيث أصبح من أهم أجهزة الدولة (٧) .

وقد ضمت دولة الممالك قسمين رئيسيين هما : مملكة الديار المصرية ، ومملكة الديار الشامية ، وكانت كل منهما تضم عدة نيابات مثل : الإسكندرية ، وحلب ، وحماة ، وطرابلس ، وصفد ، والكرك ، وغزة (٨) ، وقد اختصت كل نيابة من هذه النيابات بديوان للمراسلات ، تصدر عنه المراسلات للسلطان ويستقبل ما يمدد عنه من مراسيم وأوامر .

وقد ارتبطت مكانة الديوان والقيام عليه في كل ولاية بمكانة الولاية

-
- (١) صبح الاعشى في صناعة الإنشاء ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧م ، ١ : ١٢٨ .
 - (٢) نفسه ١٢٣:١-١٣٥ ، وانظر معالم الكتابة ومغانم الإصابة ، ابن شيث القرشي ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، بيروت ١٩٨٨م : ٥-١٣ ، الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى العصر الأموي ، غانم جواد رضا ، بغداد ، مطبعة أسعد ، ٢٠٣ - ٢٠٧ .
 - (٣) مصر والشام في عصر الاتيوبيين والممالك ، د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية ، بيروت (ب.ت) : ٢٩٩ - ٣٠٣ .
 - (٤) التعريف بالمصطلح الشريف ، ابن فضل الله العمري ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٨م : ٩٧ - ١٠١ ، ٢١٧ - ٢٣٧ .
 - (٥) نفسه : ١٤٢ ، ١٤٤ ، صبح الاعشى ١٢ : ٢٣٣ ، ٢٣٧ .
 - (٦) التعريف بالمصطلح الشريف : ٣٦ - ٩٢ .
 - (٧) عصر سلاطين الممالك ٥ : ٩٧ ، الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٠٨-١٠٩ .
 - (٨) التعريف بالمصطلح الشريف : ٢١٧ - ٢٣٧ ، صبح الاعشى ١ : ١٣٨ .

وأهميتها ، فكان الديوان المركزي في القاهرة عاصمة الدولة ، ومكانه في القلعة في عداد الأدوار السلطانية (١) ، وبجانبه دار القائم عليه (٢) المسمى بصاحب دواوين الإنشاء (٣) قبل أن يطلق عليه كاتب المر كما سيأتي ، وفي دمشق لقاعدة المملكة الشامية ديوان يعطى عليه ديوان الإنشاء بالشام ، ويبدو أنه مركزي بالنسبة لبقية الدواوين في نيابات الشام ، ويسمى القائم عليه صاحب ديوان الإنشاء بالشام (٤) ، وفي كل من حلب وطرابلس وحماة وصفد ديوان مكاتبات ، ويطلق على متوليه صاحب ديوان المكاتبات ، أما النيابات الصغار ، مثل : غزة ، والكرك ، والإسكندرية ففيها كتابة درج ، ولا يطلق على متولي ديوان إحداها كاتب سر بوجه (٥) .

وقد كان لصاحب الديوان (٦) مكانة خاصة عند السلطان ، وقد بلغ من الرتبة ما ليس لغيره من الموظفين ، من حيث إنه " أول داخل على الملك ، وآخر خارج عنه ، وأنه لا غنى به عن مفاوضته في آرائه ، والإفضاء إليه بمهامه ، ... ، وأنه لا يثق بأحد من خاصته ثقته به " (٧) ، وجعل المقرئ رتبته " أجل " الرتب ؛ ذلك أنها منتزعة من الملك " (٨) .

وقد أعطي قلاوون لصاحب الديوان منزلة أكبر عندما جعل منه كاتب سر السلطان

-
- (١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ابن فضل الله العمري ، تحقيق دورتيا كرافولمكي ، المركز الإسلامي للبحوث ، بيروت ١٩٨٦م : ١٤٣ ، خطط المقرئ ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة (ب - ت) ٢ : ٢٢٥ .
 - (٢) مسالك الأبصار : ١٤٣ .
 - (٣) صبح الأعشى ١ : ١٣٨ .
 - (٤) نفحة ١ : ١٣٨ .
 - (٥) صبح الأعشى ١ : ١٣٨ ، ٥ : ٤٦٤ - ٤٦٥ ، ١٢ : ٨٩ ، ٩٣ ، ٢١٦ ، وانظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٠٦ - ١٠٧ .
 - (٦) لم يك أمر هذا اللقب مستقرا قبل العصر المملوكي ، إذ عرف صاحب الديوان بصاحب الدمت ، ومتولي كتابة الإنشاء ، وصاحب ديوان المكاتبات ، ورئيس الديوان ، ومتولي ديوان الرسائل ، وصاحب القلم الأعلى . انظر معالم الكتابة : ٤٤ - ٤٥ ، الشارة إلى من نال الوزارة ، ابن الصيرفي ، تحقيق عبد الله مخلص ، منشورات المعهد الفرنسي ، القاهرة ١٩٢٤م : ٣٠ - ٣٣ ، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، حسن الباشا ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧م : ٢١-٢٢ .
 - (٧) صبح الأعشى ١ : ٦٤ .
 - (٨) خطط المقرئ ٢ : ٢٢٦ .

عام ١٦٧٨ هـ (١) واستقر الحال في القرن الثامن الهجري على هذه التسمية (٢) .

ومصاحبه الديوان كاتب مختار^٣ بعناية ، وكان يشترط فيه العدالة ، والتكليف ، والذكورة ، والإسلام ، والحرية ، والبلاغة ، وفورة العقل ، والعلم بمواد^٤ الاحكام الشرعية ، وشرف النفس ، والكفاية (٣) ، هذا إلى جانب جملة من الصفات الخلقية مثل : صباحة الوجه ، وطلاقة اللسان ، والخلقية كالمهابة ، والوقار ، والائنة ، والرفق ، والعفة (٤) .

وقد بلغت عدة أعماله في وظيفته اثني عشر عملاً ، وهي : التوقيع ، ونظره في الكتائب الواردة على الديوان ، والإجابة عن ما يحتاج منها إلى رد ، وتحديد المراتب في المكاتب من : افتتاحات ، وأدعية ، وألقاب ، وإشرافه على ما يكتب في ديوانه قبل صدوره والتأشير عليه ، ونظره في أمر البريد ومتعلقاته ، وأبراج حمام الزاجل ومتعلقاتها ، وتولييه أمر العيون والجواسيس ، واهتمامه بالفداوية (٥) ، وإشرافه على السعاة القاتمين مقام البريد إن تعذر وصوله ، وعلى المناور والمحرقات (٦) ، والنظر فيما يعود على الدولة بالنفع (٧) .

وتجدر الإشارة إلى أن الرسائل الواردة على ديوان الإنشاء ، كان صاحب الديوان يوزعها عند تبليغها للسلطان ، فلا تقرأ الرسالة كاملة ، بل يفهمه ما فيها من مضمون بغير إطالة (٨) .

-
- (١) انظر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ابن تغري بردي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩م ، ٧ : ٣٣٢ ، ٨ : ٥٠ .
 - (٢) انظر مسالك الابصار : ١٠١ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، معيد النعم ومبيد النقم ، تاج الدين المبكي ، تحقيق محمد علي النجار وآخرين ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٤٨م ، ٣٠ : ٢٢٦ ، خطط المقرئ ٢ : ٢٢٦ .
 - (٣) معالم الكتابة : ٢٧-٤٣ ، صبح الاعشى ١ : ٩٣-١٢٧ .
 - (٤) نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدين الزويري ، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية (بت) ٩ : ١-١٠ ، صبح الاعشى ١ : ١٣٩ .
 - (٥) فرقة من الشيعة الإسماعيلية ، الذين ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وسبوا بذلك لأنهم كانوا يهادون بالمال على من يطلب منهم اغتياله (صبح الاعشى ١ : ١٥٤-١٥٨) .
 - (٦) المناور أبراج متملة على مسافات من الفرات إلى بلخيش بمصر ، فيها عمال يقومون بإشعال نار فيها تباعاً إن أريد الإخبار بحركة عدو . أما المحرقات فهي جماعات وظيفتها التحايل لإحراق زروع الأعداء (التعريف : ٢٥٩-٢٦٢ ، صبح الاعشى ١ : ١٦٣) .
 - (٧) صبح الاعشى ١ : ١٤٥-١٦٥ ، ٤ : ٣٠ ، مسالك الابصار : ١٢٠ .
 - (٨) معيد النعم : ٣٠ ، صبح الاعشى ١ : ١٤٠ .

أما الكتاب في الديوان ، فكانوا على طبقتين ، أولهما طبقة كُتّاب الدست ، وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل (١) في المواقب على ترتيب منازلهم بالتقدم ، ويقرأون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم ، ويؤقتون على القصص كما يؤقت عليها . وقد أطلق عليهم ذلك اللقب إضافة إلى دسّت السلطان وهو مرتبة جلوسه (٢) .

كما أطلق عليهم لقب المؤقتين ؛ لأنّهم يؤقتون ما يأمّر به السلطان على حواشي قصص المظالم (٣) ، وتزايد عددهم من ثلاثة في عهد بيبرس إلى عشرين وأكثر في أواخر هذا العصر (٤) . فأنحطت رتبة هؤلاء وصار أهلها في الحضيض بعد أن كانت لاحقة بشأو كتابة السر في الرفعة والمكانة (٥) ؛ إذ دخل فيها من ليس أهلاً لها .

وتمثلت الطبقة الثانية من الكتاب في كتاب الدرّج ، وقد سُمّوا بذلك لكتابتهم المكاتبات في درّج الورق ، وتمثل وظيفتهم في كتابة توقيعات كاتب السر أو كُتّاب الدسّ ، أو إشارة النائب أو الوزير ، ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والأيمان والأمانات (٦) .

وقد روى المقرئ أن عددهم في عهد بيبرس كان سبعة وتزايد عددهم حتى بلغوا في نهاية هذا العصر ما يقرب من مئة وثلاثين كاتباً ، وسقطت رئاسة هذه الوظيفة ، وانحط مقدارها حتى إنّه لم يصرّ لها إلا من لم يكن أهلاً (٧) .

وقد ذهب محمود رزق سليم إلى أن وظيفة هؤلاء كانت إدارية أكثر منها فنية ،

(١) كان من عادة سلاطين المماليك أن يجلسوا في دار العدل (الديوان الكبير) يومي الإثنين والخميس ، وهناك يأتهم الناس بظلاماتهم على قصص فيّامرون فيها بما يناسبها (مسالك الأبصار : ١٠٠-١٠٢ ، صبح الأعشى ٤ : ٤٤ ، خطط المقرئ ٢ : ٢٠٦-٢٠٩ ، وانظر وصف ابن بطوطة لذلك في رحلته ، تحقيق د. علي الكتّاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٥ م ، ١ : ٨٩-٩١ .

(٢) صبح الأعشى ١ : ١٧٢ .

(٣) مسالك الأبصار : ١٠١ ، معيد النعم : ٣١ ، صبح الأعشى ١ : ١٧٢ .

(٤) صبح الأعشى ١ : ١٧٢ ، وانظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٠٤ .

(٥) صبح الأعشى ١ : ١٧٢ .

(٦) نفسه ١ : ١٧٢-١٧٣ ، والدرّج هو الورق المستطيل المركّب من عدّة أوصال .

(٧) نفسه ١ : ١٧٣ ، وانظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٠٥ .

وأنهم خطاطون أو يجيدون الخط أكثر من إجادتهم للإنشاء ، في حين أن كتّاب الدست هم المختصون "بتحرير رسائل الديوان في صورتها الإنشائية" (١) . والواقع أنهم كانوا ممن لا يشترط فيهم جودة الخط . ويظهر من كلام القلقشندي أنهم كانوا ينشئون الرسائل وكتب التولية والتعيين طوال العصر المملوكي الأول . قال : "على أن كتّاب الدست الآن (٢) هم المتصدون لكتابة المهم من كتابة الدرج ، كمتعلقات البريد المختمة بالسلطان من المكاتبات والعهود والتقاليد وكبار التواقيع والمراسيم والمناشير، وصار كتاب الدرج في الغالب مضمومين بالمكاتبات في خلاص الحقوق وما في معناها ، وكذلك صغار التواقيع والمراسيم والمناشير ... ، وربما شارك أعلاهم كتاب الدست في التقاليد وكبار التواقيع وما في معناها إذا كان حسن الخط ، ... ، وكل من وفق منهم شيئاً أو أنشأ كتبه بخطه على أي طبقة كان في الخط" (٣) .

وقد استحدثت في الديوان وظائف إدارية في هذا العصر ، مثل وظيفة كاتب السجلات الذي يعني بما يصدر عن الديوان من مكاتبات ، وما يرد إليه في دفاتر خاصة ، حيث يكتب مضمون الرسالة ، وجهة إرسالها وتاريخها وترجمتها إن كانت بلسان غير عربي ، والرد عليها ومنشئها ، ويدون ذلك على تذاكر خاصة في الديوان ، حتى إذا ما احتيج إلى شيء من ذلك كان البحث عنه سهلاً .

ومن مهماته أن يضع في الديوان سجلاً خاصاً بالكتاب الموظفين ورتبهم وأسمائهم ، وطريقة خطاب كل منهم ، ومقدار دعائه ، ويضمنه الكتاب الملوك المكاتبين وأسماءهم والدعاء لهم ، ويكون هذا الدفتر حاضراً لدى كتاب الإنشاء ينقلون منه في المكاتبات ما يحتاجون إليه . ومن وظائفه كذلك ، أن يضع سجلاً في الديوان للحوادث المهمة ، ويذكر كلاً منها في تاريخه (٤) .

وأصبح في عداد موظفي الديوان دوا دار لكتاب السر ، وقد استحدثت هذه الوظيفة

(١) عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٢) أي في عصر القلقشندي الذي شهد نهاية هذا العصر ، وبداية عصر المماليك الجراكمة عام ٧٨٤ هـ (صبح الأعشى ١ : ٧-١١) .
(٣) صبح الأعشى ١ : ١٧٣ .
(٤) نظم ١ : ١٦٨ - ١٧٠ ، وانظر ١ : ١٧٤ .

في أواخر عصر المماليك الأول . ذكر القلقشندي أن هذا الموظف حل محل الخازن والحاجب في الديوان ، فصار يرعى شؤون حفظ الكتب الواردة ونسخ من الكتب الصادرة ، وتولى حجابة الديوان ، بحيث لا يمكن أحداً من دخوله سوى الموظفين فيه ، لصيانة أسرار الدولة (١) .

ويضاف إلى الوظائف المتقدمة بعض الوظائف الإدارية التي لاتعلق لها بالكتابة ، ويعاون هؤلاء الإداريون العاملين في الديوان من الكتاب في توفير ما يحتاجونه من أوراق ومداد وغيرها . وقد ذكر القلقشندي أنهم كانوا يسمون "المدرء" جمع مدير (٢) .

ومن وظائف الكتاب في الديوان تحليف أمراء المماليك وجنودهم على الولاء للملطان أو لولي عهده من بعده ، فيجتمعون في القلعة ، ويتمدى كل منهم لتحليف جماعة على القرآن الكريم بنسخة يمين موحدة ، ثم يدون أسماءهم على ورقة تحفظ في الديوان (٣) .

- ثقافة الكاتب

عرف ابن الاثير الكاتب بقوله : "الكاتب عندي من إذا كلمته أن يكتب عنك كتاباً في أمر من الأمور ، وأفضيت إليه بالمعنى جملة واحدة ، فمعه وأتى به على وجه إذا تأملت ، قلت : هكذا كان في نفسي ، ولكني لم أقدر أن أعبر عنه ، فهو ينطق عن خاطرك بما لاتقدر أنت أن تنطق به" (٤) ، وهو تعريف ينطبق إلى حد كبير على كتاب هذا العصر ؛ إذ كانوا ينشئون الرسائل ، وبخاصة الديوانية ، بناءً على معانٍ مجملة فصلوها .

إن مقتضى هذا التعريف يفضي إلى التأكيد على أن الكاتب المجيد يجب أن يمتلك قدرة فريدة على الإنشاء ، ويستوجب ذلك منه ثقافة واسعة تفسح أمامه المجال

(١) صبح الاعشى ١ : ١٧٠ - ١٧٢ ، وانظر ١ : ١٧٤ .

(٢) نفسه ١ : ١٧٤ .

(٣) نفسه ١٣ : ٣١٩ .

(٤) الوشي المرقوم في حل المنظوم ، ضياء الدين بن الاثير ، تحقيق د. جميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٨٩م : ٥٧ .

لصياغة المعاني وتفصيلها ، وإحساساً مرهفاً بما يقتضيه الحال الذي يكتب فيه ،
وذكاء متوقداً يعينه على التوفيق بين ما يكتبه وبين الغرض منه ، وقبل هذا
- كله ، وجود الفريضة والطبع .

وقد أشار القلقشندي إلى دور الطبع في صناعة الإنشاء بقوله : "أول معاون هذه
الصناعة الجليلة الفريضة الفاضلة والفريضة الكاملة" ، وجعل اكتساب العلوم
وتحصيل الآداب غير ذوي فائدة للكاتب إن لم يك مطبوعاً (١) .

ومن الحق أن يقال : إن تنبئه القدماء إلى قضية الملكة والطبع أمر جدير
بالاهتمام ، وبخاصة أن النقاد وعلماء الأدب الذين ألفوا كتباً في تعليم صناعة
الإنشاء قد ركزوا عليها ، وأبرزوا أهميتها ، وليس أدل على ذلك من اتفاقهم على
ضرورة قيامها للكاتب .

قال ابن الأثير بعد إشارته إلى ما يجب على الكاتب حفظه : "إنما أردت أن
تحمل لديه الملكة" ، فيستعين بالمحفوظ على الفريضة (٢) .

كما أشار ابن شيث إلى أن الوقوف على كلام المتقدمين "يرهف الخاطر ويثبته ،
ويسدد القول وينفذه" (٣) ، وكان أبو هلال العسكري قد أشار إلى شيء من ذلك (٤) ،
وبه من بعده قال صاحب صبح الأعشى (٥) .

وإذا كان هؤلاء قد نظروا إلى الملكة على أنها طبع واكتساب ، فإن ابن خلدون
نفى دور الطبع فيها ، وجعل منها أمراً مكتسباً وسيلة الوصول إليه الحفظ ،
وأشار على الأديب بأن يحفظ النماذج الجيدة حتى تنشأ في النفس ملكة
يتمتع على منوالها ، وذهب إلى أن ملكة الإنشاء تحصل بحفظ الأسجاع والتراصيل (٦) .

-
- (١) صبح الأعشى ٢ : ٣٤٤ .
(٢) الوشي المرقوم : ٥٣ ، ١٧٤ - ١٧٥ ، ١٩٦ ، صبح الأعشى ٢ : ٣٤٨ .
(٣) معالم الكتابة : ٨٩ .
(٤) (كتاب) الصناعاتين ، أبو هلال العسكري ، تحقيق علي محمد البجساوي ومحمد
أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ١٩٥٢ م :
٧-٨ ، ١٣٩ .
(٥) صبح الأعشى ١ : ١٨٠ .
(٦) مقدمة ابن خلدون ، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ١٩٦٠ م : ٤ : ١٢٩٦ ،
١٣٠٤ ، وانظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس ، دار
الثقافة ، بيروت ١٩٨٣ م : ٦١٩ .

ونلمح فيما تقدم من آراء أن الكاتب لم يكن باستطاعته أن يشهد إن لم يقف على كتابات المتقدمين وأساليبهم ، وعليه أن يطلع على الكتاب والمئة والامثال والاشعار والخطب والرسائل ليتحقق له ذلك (١) . مما يرسم لثقافة الكاتب ملامح من نوع خاص ، فما هي أبعاد ثقافة الكاتب في هذا العصر ؟

قال ابن الاثير : "اعلم أن الكاتب يحتاج إلى التثبت بكل فن ، والنظر في كل علم ، وإرصاد السمع لمحاورات الناس ، فإنه لا يعدم من ذلك فائدة" ، وقال في موضع آخر : "إن صاحب هذه الصناعة ينبغي أن يعلم ما تقوله النادرة في الماتم ، وما تقوله الماشطة عند جلوة العروس ، وما يقوله المنادي في السوق على الملعة" (٢) .

وجعل اللغشندي ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من مواد قسمين رئيسيين (٣) ، هما : ما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية ، وما يحتاجه من الأمور العملية ، وما يهمن في هذا المقام هو القسم الأول ؛ إذ هو مرتكز ثقافة الكاتب ، وقد أسهب اللغشندي في حديثه عن هذا القسم ، واستغرق حديثه قسماً كبيراً من الجزأين : الأول والثاني (٤) .

ويدخل في سياق القسم الأول إتقان الكاتب لغته ، وامتلاكه ناصيتها ، ومن ذلك معرفته بالعلوم اللغوية : كالنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ، وهي علوم لا يكون كاتباً إلا بها ، وفي عداد ذلك اللفاظ الكتابية (٥) ، ثم معرفة كيفية إنشاء الكلام وتأليفه ، مما يستوجب النظر في المعاني واللفاظ ، وحسن الاتباع ، والقدرة على الاختراع ، ومواضع الإطناب والإيجاز (٦) .

-
- (١) الصناعتين : ٢٢٩ ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الاثير ، تحقيق د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٩م : ٢ ، ٦٣ ، صبح الاعشى ٢ : ٢٢١ ، ٢٢٣ .
 - (٢) الوشي المرقوم : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، المثل السائر ١ : ٤٠ ، ٧٣ ، صبح الاعشى ١ : ١٨١ .
 - (٣) صبح الاعشى ١ : ١٧٥ .
 - (٤) نفسه ١ : ١٧٥ - ٢ : ٤٦٧ .
 - (٥) نفسه ١ : ١٨٣ - ٢٢٧ ، وانظر معالم الكتابة : ٨٩ - ١٣٦ ، حسن التوصل إلى صناعة الترسل ، شهاب الدين الحلبي ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، دار الرشيد ، بغداد ١٩٨٠م : ٨١ ، ١٠١ ، والمثل السائر ١ : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٦ .
 - (٦) صبح الاعشى ٢ : ٢٠٢ - ٣٦٤ .

ومن ذلك حفظه للقرآن الكريم (١) ، والاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية (٢) ، وتجدر الإشارة إلى أن ابن الأثير لم يشترط حفظ الأحاديث الصحيحة فقط ، بل أوصى بالحفظ من غير الصحيح منها كذلك (٣) .

ويُلي ذلك الإكثار من حفظ خطب البلغاء ومعرفة أساليبهم (٤) . غير أن ابن الأثير قال بعدم حفظها ، والاكتفاء بالنظر فيها (٥) ، ثم حفظ قدر وافر من أشعار القدماء والمحدثين (٦) ، وكجانب من الأمثال المتداولة المعروفة (٧) ، والاطلاع على رسائل الكتاب المتقدمين دون حفظها (٨) ، إذ قد يعلق بذهن الكاتب منها شيء فيورده بالفاظه ، وأخذ كلام منتور ونظله إلى كلام آخر منتور يعد سرقة (٩) . على أن ابن خلدون أشار إلى ضرورة الحفظ لتنشأ الملكة (١٠) .

والجوانب المتقدمة آنفاً كانت أهم المكونات لثقافة الكتاب في هذا العصر ،

وهي في مجملها لغوية ودينية وأدبية . ٤٠٧٨٥٥

أما الجوانب الأخرى من هذا القسم فمنها : التاريخي (١١) ، مثل : معرفة الكاتب بتاريخ العرب والمسلمين ونظمهم وأحكامهم وأعيادهم ، وأيامهم ومفاخرهم ، والوقوف على عاداتهم في الجاهلية والإسلام ، ومعرفة دولهم وملوكهم ورجالاتهم ،

(١) صبح الاعشى ١ : ٢٢٨ ، ٢ : ٣٢٧ ، وانظر الوشي المرقوم : ١٧٤ ، المثل السائر ١ : ٧٧ ، جواهر الكنز ، ابن الأثير الحلبي ، تحقيق د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، (ب-ت) : ٢٩ - ٣١ ، نصرة السائر على المثل السائر ، ابن أبيك المصدي ، تحقيق محمد علي سلطاني ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧١م : ٦٣ ، حسن التوسل : ٧٢ .

(٢) صبح الاعشى ١ : ٢٤٣ ، ٢ : ٣٤٢ ، وانظر الوشي المرقوم : ٥٣ ، المثل السائر ١ : ٧٧ ، حسن التوسل : ٧٨ .

(٣) الوشي المرقوم : ١٩٦ ، وانظر حسن التوسل : ٧٨ .

(٤) صبح الاعشى ١ : ٢٥٣ ، وانظر حسن التوسل : ٨١ .

(٥) الوشي المرقوم : ٥٠ .

(٦) صبح الاعشى ١ : ٣١٩ ، وانظر الوشي المرقوم : ٥١ ، ١٥٢ ، المثل السائر ١ : ١٣٧ ، ٤ : ٧ ، ٩ ، معالم الكتابة : ٩٦ ، حسن التوسل : ٨٩ - ٩٣ .

(٧) صبح الاعشى ١ : ٣٤٦ ، وانظر الرسالة العذراء ، إبراهيم بن المدير ، تحقيق د. زكي مبارك ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣١م : ٧ ، العقد الفريد ، ابن عبد ربّه ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت (ب-ت) ٣ : ٣ ، معالم الكتابة : ١٣٨ ، الوشي المرقوم : ٥٩ ، ٦٠ ، حسن التوسل : ٩٤ .

(٨) صبح الاعشى ١ : ٢٧٢ ، وانظر الوشي المرقوم : ٥٠ ، ٥١ ، حسن التوسل : ٩٣ - ٩٤ .

(٩) الوشي المرقوم : ٥١ ، وانظر حسن التوسل : ٩٤ ، صبح الاعشى ١ : ٢٧٣ .

(١٠) المقدمة ٤ : ١٣٠٤ .

(١١) صبح الاعشى ١ : ٣٥٨ - ٢ : ٦ .

وأنسابهم . ومنها الجغرافي (١) : ويتمثل في معرفة المسالك والممالك الإسلامية وغيرها ، وعادات أهلها ، وطبائعهم وبيئاتهم ، وشهورهم وأعيادهم ، والمعرفة بالآزمنة .

وتشتمل ثقافة الكاتب كذلك ، على معرفة ما يحتاج إلى وصفه في مكاتباته (٢) ، ويدخل في ذلك أوصاف الإنسان الجسمية والنفسية ، وأوصاف دواب الركوب ، والوحوش والطيور ، والاحجار الكريمة ، ونظم الطيب ، والآلات المستعملة في الركوب والصيد والسفر والحصار واللعب والطرب ، وأوصاف المسكرات وآلاتها ، والافلاك والكواكب والنجوم ، والظواهر الطبيعية كالريح والسحاب والمطر والثلج ، والحر والبرد ، وتضاريس الأرض من جبال وسهول وأنهار وأودية ونباتات ورياض .

وأما الأمور العملية (٣) التي لاغنى للكاتب عنها ، فتتمثل في معرفته بفن الخط ، وأنواعه ، وآلاته ، وطريقة بري القلم ، وكيفية صنع المداد ، وهي كما ترى أمور تتمثل بصناعة الخط أكثر من اتصالها بصناعة الإنشاء .

ولعلّ فيما ذكره القلقشندي شيئاً من التوسع ، إذ لايعقل أن يلزم المترشح للكتابة بهذه الجوانب كلها ، ويبدو أن ميله إلى الاستقصاء دفعه إلى ذلك . وأؤكد هنا ما أشرت إليه آنفاً من أن أساسيات ثقافة الكاتب كانت تتمثل في الجوانب اللغوية والدينية والأدبية ، وقد يكون لطبيعة المرحلة التي عاشتها الأمة في تلك المرحلة أثر في التركيز على هذه الجوانب ، وهي مرحلة شهدت مراعاة مريراً مع الغزاة الصليبيين والمغول ، فكانت هناك حاجة ماسة إلى المحافظة بدافع الاحتفاظ بالشخصية العربية الإسلامية " خشية أن تضعف أو تضيع ، أو يصيبها وهن" (٤) ، كما رأى الدكتور شوقي ضيف .

وقد اضطلع ديوان الإنشاء بدور بارز في التوجيه لهذه الثقافة ، ويمكن عده مؤسسة ثقافة رسمية ، فلكي يكون الكاتب مؤهلاً عليه أن يحفظ القرآن الكريم

(١) صبح الاعشى ٢ : ٣٦٦ - ٤٦٨ ، وانظر التعريف بالمصطلح الشريف : ٣١٦ - ٣٣١ .
(٢) صبح الاعشى ٢ : ٦ - ٢٠١ ، وانظر التعريف بالمصطلح الشريف : ٢٦٤ - ٣١٦ .
(٣) صبح الاعشى ٢ : ٤٦٩ - ٣ : ١٣٥ .
(٤) البحث الأدبي : ٥٤ .

/وشيئا من الاحاديث الشريفة ، وقدراء واغراء من الاشعار والامثال ، ثم يأخذ نفسه في ديوان الإنشاء بالتمرن على أساليب كتّابه الكبار ، وقراءة ما يدبجونه من رسائل (١) ، كما يرى الدكتور أحمد بدوي .

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، د. أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٧م : ٣٣٤ ، ٣٤١ .

مفهوم الرسالة الفنية

استعملت العرب لفظ رسالة للدلالة على كل كلام يرسل به (١) منذ العصر الجاهلي ، إذ وردت في قول زهير (٢) : (الطويل)
ألا من يبلغ الاختلاف عني رسالة وذئبيان هل أقسمتم كل مؤقسم
ومقتضى هذا الاستعمال أن الرسالة قد تكون نثراً أو شعراً ، سواء كتب به أم نثلاً مشافهةً . كما استخدمت في القرآن الكريم بهذا المعنى سوى كونها شعراً ، وإن اكتسبت معنى اصطلاحياً كما في قوله تعالى: (فتولى عنهم وقال يا قوم لقد بلغتكم رسالة ربي) (٣) .

وقد بدأ مفهوم الرسالة يرتبط بالنثر تدريجياً ، فابن قتيبة يعدّها فنّاً نثرياً جميلاً يقابل الشعر . قال : "وللشعر تارات يبعد فيها قريبه ، ويستصعب فيها ريتضه ، وكذلك الكلام المنثور فهي الرسائل والمقامات والجوابات ، فقد يتعذر على الكاتب الأدب وعلى البليغ الخطيب" (٤) .

وربط ابن طباطبا في تعريفه للرسالة ، بين الرسالة والقصيدة ، فالرسالة عنده قصيدة محلوقة ، والقصيدة رسالة معقودة ، فالشاعر كما قال "يسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغتهم وتصرفهم في مكاتباتهم ، فإن للشعر فصولاً كفضول الرسائل" (٥) .

ورأى أبو هلال العسكري أن هناك علاقة وثيقة بين الرسالة والخطبة ، فبيّنه تقابل تلك ، ولا فرق بينهما سوى أن أولاهما يكتب بها ، وأما الأخرى ، فتلقى مشافهةً على جمع الناس (٦) .

-
- (١) انظر جمهرة اللغة ، اللسان (مادة : رسل) .
 - (٢) ديوانه ، تحقيق كرم البستاني ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٦٠م : ٨١ .
 - (٣) سورة الاعراف : ٧٩ .
 - (٤) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، دار الثقافة ، بيروت (بت) ١ : ٢٥ .
 - (٥) عيار الشعر ، ابن طباطبا ، تحقيق د. طه الحاجري ، ود. محمد زغلول سلام ، القاهرة ١٩٥٦م : ٦ - ٧ .
 - (٦) انظر الصناعتين : ١٦٧ .

وقد اعتمد بعض النقاد على رأي ابن طباطبا ، مثل ابن شيث (١) والقلقشندي الذي قال : "الفقرة من النشر كالبيت من الشعر" (٢) .

غير أن بعض النقاد فرقوا بين الرسالة والقصيدة في المبني واللبغة ، بالإضافة إلى الوزن ، فرأى المرزوقي أن كل "ما يتحمد في الترسل ويختار ، يذم في الشعر ويرفض" (٣) ، ورسم ابن رشيح حدوداً فاصلة للشعراء والكتاب في استعمال اللفاظ ، فالشاعر عنده له ألفاظ معروفة "لا ينبغي أن يعدوها" ، وكذلك الكاتب (٤) .

وقد استعمل ابن الأثير لفظ رسالة للدلالة على الكلام النثري الجميل الصالح لمراسلة الآخرين . قال في ضرورة عدم حفظ الكاتب للكلام المنثور : "والذي بعثني على الإكباب على حفظ الشعر ، دون الخطب والرسائل أني إذا أخذت معنى من معاني الشعر ، وأودعته رسائلي ، كنت قد نقلت من ضد إلى ضد" (٥) .

فالرسالة إذن ، لون نثري ، وقد استعملت في العصر المملوكي الأول بهذا المعنى . قال القلقشندي في الرسائل : "وهي جمع رسالة ، والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب : من حكاية حال من عدو أو صيد ، أو مدح وتقريض ، أو مخاخرة بين شيئين ، أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى . وسُميت رسائل من حيث إن الأديب المنشئ لها ربما كتب بها إلى غيره مخبراً فيها بصورة الحال ، مفتتحة بما تفتتح به المكاتبات ، ثم تتوسع فيها فافتتحت بالخطب وغيرها" (٦) .

ويدل كلام القلقشندي على أن لفظة رسالة مترادف لفظة مكاتبة من جانب ، وتختلف عنها من جانب آخر ، فالمكاتبة هي ما يكتب ويرسل ، أما الرسالة فقد تكتب ولا ترسل ، لكنه أشار إلى تشابه بينها وبين المكاتبات في أساليب الافتتاح إن أرسلت .

-
- (١) انظر معالم الكتابة : ٩٦ ، ١٠٥ .
 - (٢) صبح الاعشى ٢ : ٣٠٨ .
 - (٣) شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٥١م ، ١ : ١٩ .
 - (٤) انظر العمدة ١ : ١٠٧ .
 - (٥) الوشي المرقوم : ٥١ ، وانظر : ٥٠ ، ٥٢ ، المثل السائر ١ : ٢٣٩ .
 - (٦) صبح الاعشى ١٤ : ١٥٧ ، وانظر : ٢٧٣ - ٢٧٤ .

وهي رسائل كتّاب العصر ما يشير إلى أن لفظ مكاتبة ، أو كتاب ، كان يستخدم للدلالة على معنى رسالة ، مثل قول ابن دقيق العيد : "هذه المكاتبة إلى فلان..." (١) .

وتجدر الإشارة إلى أن ابن شيث يطلق لفظ المكاتبة أو الكتاب على الرسالة الديوانية ، سواء كانت سياسية أو إدارية (٢) ، وكذلك ابن فضل الله (٣) ، بينما أطلقه القلقشندي على الرسائل الديوانية والإخوانية (٤) . وقد أشرت فيما تقدم إلى أن لفظ رسالة مرادف لمكاتبة أو كتاب .

وإن التعريف المتقدم للرسالة يشمل كل كلام نثري يكتب ويصلح أن يكتب به الكاتب غيره بغض النظر عن موضوعه ، ولذا يدخل فيه الرسائل الديوانية التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء إلى المكاتبين في داخل الدولة أو خارجها (٥) ، والرسائل الإخوانية التي كان الكتّاب يتبادلونها فيما بينهم (٦) ، وتلك الرسائل التي كانت تنشأ بغرض الوصف أو المناظرة أو النقد ، الموسومة بالرسائل الأدبية (٧) .

غير أن موضوع هذه الدراسة هو الرسالة الفنية ، وتقيد هذه المصطلح الرسالة بقيود تتعلق ببنائها وأسلوبها .

فالرسالة الفنية لها بناء خاص ، وعناصر أساسية لا بد من توافرها فيها ، إذ تُبنى على ثلاثة عناصر ، هي : الافتتاح والعرض ثم الختام ، وينبغي أن يكون هناك اتصال وثيق بين هذه العناصر ، مما يعطي الرسالة وحدة هي الموضوع ، ويميّزها عن غيرها من ألوان النشر .

(١) الطالع السعيد بجامع أسماء نجباء الصعيد ، الادفوي ، تحقيق سعد محمد حسن ، الدار المصرية ، القاهرة ١٩٦٦م : ٥٩٧ ، وانظر ديوان ابن الوردي ، تحقيق د. أحمد فوزي الهيب ، دار القلم ، الكويت ١٩٨٦م : ١٣٦ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، السلوك ١٠٢٧ : ١ .

(٢) انظر معالم الكتابة : ٥٣ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٠ .

(٣) انظر التعريف بالمصطلح الشريف : ١٧ - ١١٨ .

(٤) انظر صبح الاعشى ٧ : ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٨ : ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٣٩٨ ، ٩ : ١٠٥ ، ١١٥ ، ١٤٧ ، ١٦٤ ، ١٨٩ .

(٥) انظر الصناعتين : ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٦) انظر حسن التوسل : ٣٨٢ .

(٧) انظر صبح الاعشى ١٤ : ١٥٧ .

أما ما يتعلق بأسلوبها ، فإنها تتسم بحلاوة العبارة ، ودقة اختيار الالفاظ ، وزخرفتها بفنون البديع ، إلى جانب العناية بالتصوير الفني ؛ ولذلك تخرج رسائل المعاهدات والهدن من هذا التعريف ؛ إذ هي خلو من البديع والتصوير الفني .

ويتضح مما تقدم أن مفهوم الرسالة الفنية مدار هذه الدراسة هو كل كلام كتب بلغة فنيّة جميلة ، مبني على افتتاح وعرض وخاتمة ، صالح أن يرسل به كاتبه شخصاً غيره دون مراعاة موضوعه .

وقد اضطررت أحياناً إلى الحديث عن رسائل غير خاضعة لهذا التحديد ، وهي قليلة جداً ، وذلك لما لها من أهمية في موضوعها ، وبخاصة رسالة ابن تيمية إلى الملك الناصر يحميه على الجهاد ، ورسالتان في التهديد للاعداء ، كما عرضت لرسالة هولاكو إلى قطز يهدده فيها قبل معركة عين جالوت .

الرسالة الديوانية

يُقصد بها ما كان يصدر عن ديوان الإنشاء من رسائل : ابتداءً أو رداً ، وهي وسيلة الاتصال بين السلطان من جهة ، ونوابه والموظفين والرعية في السلطنة ، والملوك خارجها من جهة أخرى (١) .

والحديث عن الفائدة التي تحققها دراسة هذه الرسائل يفضي إلى جانبين على قدر كبير من الأهمية ، يتمثل أولهما في أنها تعبر عن موقف السلطة الحاكمة من القضايا السياسية والدينية والاجتماعية في هذا العصر ، كما تصور بعض الخلافات السياسية بين سلاطين المماليك، وتوضح في الجانب الآخر بعض الجوانب الحياتية للمجتمع المملوكي مثل: حياة الفقراء ، والشيعية ، وأهل الذمة ، ومثل انتشار الفساد في بعض الفترات في المجتمع .

وتجدر الإشارة إلى أن الرسالة الديوانية أصبح لها في عصر المماليك أنماط كثيرة ، مثل : المبايعات والعهود للخلفاء والسلاطين وأبنائهم ، ومثل التماسيلد والتفاويض والتواقيع والمناشير ، وهي رسائل تولية وتعيين ، والمراسيم المادرة بالأوامر السلطانية لتقرير أمر ، والمعاهدات والمفاسحات المختمة بالعلاقات مع الأعداء ، والبشارات الخاصة بالمناسبات السعيدة مثل النصر وفيضان النيل وجلوس السلطان على العرش ، ورسائل الحث على الجهاد ، والتهديد ، والسخرية بالعدو (٢) .

- الرسالة الديوانية والحياة السياسية

عبّر الكتاب في عصر المماليك عن كثير من جوانب الحياة السياسية ، وكانت الرسالة الديوانية هي المجال الأول الذي يعرض لمثل ذلك ، وبذلك يكون القدر الأكبر من الرسائل الديوانية وما فيها من أفكار تعبيراً عن التوجهات السياسية لاولي الأمر ، وترجمة لتصوراتهم حول مفاهيم الحكم والخلافة ، كما صورت شيئاً

(١) انظر عصر السلاطين المماليك ٥ : ١١٢ - ١١٣ .
(٢) للاطلاع على هذه المسميات انظر : التعريف بالمصطلح الشريف : ١١٩ - ٢١٦ ،
صبح الأعشى ٨ : ٣٣٦ ، ٣٩٥ ، ٩ : ٢٨٥ - ٢٨٩ ، ١٠ : ٤٤ - ٤٥ ، ١١ : ٧٥ - ١١٤ ،
١٣ : ٢٤ - ٨٢ ، ١٥٧ ، ٣٢٢ ، ٣٤٩ - ٣٥٠ ، ١٤ : ١٨ ، ١٢١ - ١٢٣ ، وانظر عصر سلاطين
المماليك ٥ : ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٣ .

من الخلافات السياسية بين المماليك أنفسهم ، وتنازعهم في الوصول إلى الحكم ، ويمكن وصف هذا اللون من الرسائل بأنه الإعلام الناطق باسم المماليك ، ويبدو ذلك جلياً في تعبير الكتّاب عن رأي المماليك في الحكم .

يسترعي انتباه المطالع في الرسائل الديوانية بعامة في هذا العصر ، استناد المماليك في تثبيت دعائم حكمهم على القول بأن الله اختارهم لمنصب الملك ، ومهد السبيل أمامهم ، وألهمهم العدل والتقوى ، وأمدهم بالقدرة على حماية حوزة الإسلام ، ورعاية مصالح المسلمين ، ويبدو أن المماليك استندوا إلى ذلك لأنهم استولوا على الملك من الأيوبيين عنوة ، ولم يكن لهم ما يدعمون به ملكهم سوى هذه الادعاءات .

جاء في مرسوم على لسان الناصر بن قلاوون أن الله ارتضاهم لولاية أمر عباده ، ومكن لهم في أرضه ، وأذل مناوئهم ، وكثر موالئهم ، ونصرهم على أعدائهم وأعداء الإسلام . قال : "إن الله منذ ملكنا أمور خلقه ، وبسط قدرتنا في التصرف في عباده والمطالبة بحقه ، وفوض إلينا القيام بنصرة دينه ، وفهمنا أنه تعالى قبض قبل الخلق قبضتين فرغبنا أن نكون من قبضة يمينه ، ... ، ومهد لنا من الأمر ما على غيرنا توعد ، وأعد لنا من النصر ما أجازنا فيه على عوائد لطفه ... ، ألهمنا إعلاء كلمة الإسلام ، وإعزاز الحلال وإذلال الحرام ، وأن تكون كلمة الله هي العليا" (١) .

وحتى يكون أمر السلطان مقبولاً نافذاً ، فقد نسب الكتّاب تعيين السلطان لبعض الموظفين إلى إلهام الله له ، وأنه ما اختاره إلا بعد أن عرف أنه أهل لوظيفته . قال محيي الدين بن عبد الظاهر في توقيع بالتدريس كتبه عن بيسبرس : "نحمده على نعم ألهمت وضع الأشياء في محلها ، واستيداعها عند أهلها ، وتأنيبها بما يزيل الإشكال بانجذاب من شكله مناسب لشكلها" ، وقال من التوقيع نفسه : "فالحمد لله على أن أعطى قوس ذلك المحراب باريها ، ... ، وألهم حسن الاختيار أن يجري القلم بما يحسن بالتوقيع الشريف موقعه" (٢) .

(١) صبح الاعشى ١٣ : ٣٢ ، وانظر ١٣ : ٣٧٩ ، ١٤ : ٣٤٧ ، ٤٤٠-٤٠١ .

(٢) نفسه ١١ : ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، وانظر : ١٤٢ .

وكان مما استند إليه المماليك في تثبيت ملكهم قيامهم بواجب الجهاد ضد أعداء الدين ، وهو أمر لا ينكره منكر ، فقد استطاعوا أن يدحروا بقايا الصليبيين من بلاد الشام ، ووقفوا نداً قوياً في وجه المغول فهزموهم ، وردوا كيدهم إلى نحورهم . قال الشهاب محمود الطنبجي في مرسوم على لسان الناصر محمد بن قلاوون : "... ورزقنا من النصر على أعدائه ما أعز المسلمين وأدالهم ، وأذل المشركين وأزالهم ، وكف بالرعب أطماعهم ، وأعمى بما شاهدوه أبصارهم ، وأصم بما سمعوه أسماعهم" (١) .

وقد يجمع الكاتب إلى الاختيار الإلهي للسلطان ، اتفاق المسلمين جميعاً على أهليته ، وإجماع أهل الحل والعقد على أنه أصلح المسلمين للملك . قال جمال الدين بن نعباتة المصري في سلطنة الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٤٣ هـ بأنه قال : "إجماع الأمة على أنه صالح المسلمين ، وكفاة الحل والعقد على أنه سلطان الإسلام والمسلمين ، وأركان البيت الناصري على أنه عماده" (٢) .

- مبايعات الخلفاء وعهود السلاطين

قضى المغول عام ٦٥٦ هـ على الخلافة الإسلامية في بغداد ، فاستغل المماليك هذه الفرصة الذهبية لنقل الخلافة إلى مصر ، وقد حققوا بذلك شرعية دينية لملكهم ، وشدوا قلوب المسلمين تجاههم ، ففي عام ٦٥٩ هـ استقبل الملك الظاهر بيبرس واحداً من بقايا العباسيين وهو أحمد بن الظاهر بن الناصر ، وبايعه على الكتاب والسنة (٣) .

ويبدو من خلال المبايعات التي كتبت عن السلاطين للخلفاء أن منصب الخلافة كان شكلياً فارغاً من أي سلطة للخليفة ، فالسلطان هو الحاكم الفعلي ، ويحرص السلطان في مبايعته الخليفة على أن ينفوذ المبايع إليه مقاليد الأمور ، وهي

(١) صبح الاعشى ١٣ : ٢٦ - ٢٧ ، وانظر ١١ : ١٣٤ .

(٢) نفسه ٨ : ٣٦٥ ، انظر ١٤ : ٣٥١ .

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، ابن عبد الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦م : ٩٩ - ١٠١ ، تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطي ، دار الفكر ، بيروت (ب.ت) : ٤٣٩ - ٤٤٠ .

لفتة ذكية من الممالك ؛ إذ كانوا يجعلون الخليفة يقرر بملكهم في الوقت الذي يبايعونه فيه ، ويكون إقراره بسلطتهم جزءاً من مشروعية بيعته ، فإن نقض فإنما ينقض على نفسه . جاء في مبايعة المنصور أبي بكر بن الناصر محمد عام ٧٤١ هـ للخليفة أحمد بن المستكفي على لسان الخليفة : "وأمر المؤمنين يشهد الله وخليفته عليه أنه أقر كل امرئ من ولاية الأمور الإسلامية على حاله" ، وقوله : "وأمر أمير المؤمنين ... أن يعلن الخطاب بذكره وذكر سلطان زمانه على المنابر في الاتفاق ، وأن يضرب باسمهما النقود المتعامل بها على الإطلاق" (١) .

ويحصل السلطان في مبايعته للخليفة على أن يفوض إليه أمر الجيش ، والتصرف في الأموال ، وتدبير شؤون الحكم ، ومن ذلك في المبايعة المتقدمة : "وأما الجهاد ، فيكتفي باجتهاد القائم عن أمير المؤمنين بأموره ، المقلد عنه جميع ما وراء سريره ، وأمر المؤمنين قد وكل إليه - خلد الله سلطانه - عناء الأيام ، وقلده سيفه الرابع بوارقته ليمثله على الأعداء وإلا سلّ خباله عليهم في الأحلام" (٢) .

والأمر في عهود الخلفاء للسلطين لا يختلف كثيراً عما هو في المبايعات ، بل يظهر فيها ضعف الخلافة ، وفقدان الخليفة لأي سلطة فعلية بشكل أكثر وضوحاً كما في عهد بيبرس عن الخليفة أحمد بن الظاهر عام ٦٥٩ هـ .

بدأ الخليفة العهد بحمد الله الذي أعاد إلى الدين قوته ، وأنسى ما كان حل بساحته ، وسخر له من الغياري من يقوم بنصره ويتفق الجميع على طاعته ، وبعد تكرار الحمد والتشهد أخذ يعدد مناقب بيبرس وأهمها سعيه لإعادة الخلافة ، وقيامه بجهاد أعداء الدين ، فقال : "إن أولى الأولياء بتقديم ذكره ، وأحقهم أن يصبح القلم راعياً وساجداً في تسطير مناقبه وبره ، من سعى فاضى بسعيه الحميد متقدماً ، ودعا إلى طاعته فاجاب من كان منجداً ومتهماً ؛ وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زنداً ومعصماً ، ولا استباح حمى وغى إلا أضرمه ناراً وأجراه دماً" .

(١) صبح الأعشى ٩ : ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، تاريخ الخلفاء : ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

(٢) نفسه ٩ : ٣٤٠ ، تاريخ الخلفاء : ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

لقد كانت ماثرة عظيمة لبببرس في سجله الحافل ، فالخلافة ، وإن كانت شكلية ، تجمع المسلمين ، وتوحد توجهاتهم ، وتلشعهم بالطمأنينة ، ولذلك ركز الخليفة على هذه الفضيلة لبببرس ، وعلى أنه عرض عليه استخلافه لإحياء ما هُدم من أركان الدولة ، ولو كان السلطان غيره ما فعل ، مدعيًا أن الله ادّخر هذه الحسنة له ، واستبقى هذه المنقبة ليحققها على يديه ، قال : "لكن الله ادّخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه ، ويخفف بها يوم القيامة حسابته ... فهذه منقبة أبي الله إلا أن يخلدها في صحيفة منعه" (١) .

مهد الخليفة بما تقدم لإعلان شكره لبببرس على حسن صنيعه ، وتفويض أمر الممالك الإسلامية إليه ، ليكون ذلك عن جدارة واستحقاق ، وحتى لا يظهر ضعف سلطته ، وأنه لا يعدو كونه شخصية اعتبارية مجردة من كل مسؤولية أو دور في الحكم . قال : "وأمر المؤمنين يشكر لك هذه المنائح ، ويعترف أنه لولا اهتمامك بأمره لاتسع الخرق على الراقع ، وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الحجازية ، واليمينية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غوراء ونجداء ، وفوض أمر جندوها ورعاياها إليك ، حين أصبحت بالمكان فرداء ، وما جعل منك بلداء من البلاد ، ولا حصناء من الحصون مستثنى ، ولا جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى" (٢) .

وشرع الخليفة يوصي السلطان بصيغ لاتشعر بالأمر ، بل بالتلطف والتمني عليه ، ومن ذلك قوله يوصيه بدفع الظلم عن المظلومين ، ويذكره بأنه الحاكم الأول الذي يجب عليه القيام بأمر الحكم بالعدل ، وبأن الخليفة لن يعارضه بل يعاضده : "وحقيق بالمقام الشريف السلطاني الملكي الظاهري الركزي أن تكون ظلمات الأتنام مردودة بعدله ، وعزائمه تحفث ثقلاء لاطاقة لهم بحمله ، فقد أضى على الإحسان قادراء ، وصنعت له الأتيام ما لم تمنعه لغيره ممن تقدم من الملوك ، وإن جاء آخرها . فأحمد الله على أن وصل إلى جنابك إمام هدى أوجب لك مزية

(١) الروض الزاهر : ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) نفسه : ١٠٤ .

التعظيم ، ونبّه الخلائق على ما خُصك الله به من الفضل العظيم" (١) .

ويتضح من المبايعات والعهود أن المماليك قاموا بهذه الخطوة لتثبيت ركائز سلطتهم ، ولذلك عُزل بعض الخلفاء حينما ظهرت منهم بوادر الخروج عن هذا النهج (٢) ، وأجبر بعضهم على تجديد العهود للسلطين أحياناً ، ففي عام ٧٠٨ هـ احتال الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري على الناصر محمد بن قلاوون ، فاستولى على السلطنة بعد أن كان الناصر قد خرج إلى الكرك (٣) ، فكتب له الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان عهداً بالسلطنة ، وفوض إليه الحكم بكل ما يقتضيه (٤) . وقد استغل الخليفة في ذلك العهد محبة الناس له ، وأشره في نفوسهم لينفذ ما أراد به بيبرس المنصوري ، فادعى أنه اختاره ليكون سلطاناً للمسلمين بعد أن عمل الفكر في اختيار من يصلح فلم يجد غيره ، وعندما بلغ بيبرس أن الناصر محمد بدأ يتحرك عام ٧٠٩ هـ لاستعادة سلطانه طلب من الخليفة أن يجدد له العهد ، ويطلب الجيش بالخروج معه لقتال الناصر ففعل (٥) .

استغل الخليفة كل ما هو متاح له في هذا العهد لتحقيق ما يريده السلطان بيبرس المنصوري ، فولى وعزل ، ووصف بيبرس بأهليته للسلطنة ، وأشار إلى أنه استشار القضاة والفقهاء فاشاروا عليه بذلك ، وادعى أن الملك ليس بالوراثة مناقضاً في ذلك ما عُرِف عن العباسيين من اتخاذ الوراثة وولاية العهد طريقاً للملك . قال : "إنني رضيت لكم بعبد الله تعالى الملك المظفر ركن الدين نائباً عني لملك الديار المصرية والبلاد الشامية ، وأقامته مثقام نفسي ، لدينه وكفاءته وأهليته ورضيته للمؤمنين ، وعزلت من كان قبله بعد علمي بنزوله عن الملك ، ورأيت ذلك متعيناً علي ، وحكمت بذلك الحكام الأربعة ، واعلموا ، رحمكم الله ،

(١) الروض الزاهر : ١٠٥ - ١٠٧ ، وانظر عهداً أخرى عن الخلفاء للسلطين في صبح الأعشى ٤٦ : ٧٤ .

(٢) من هؤلاء سليمان بن أحمد بن الحاكم بأمر الله اعتقله الناصر محمد بالقلعة خمسة أشهر ، ثم نفاه وأولاده إلى قوص عام ٧٣٨ هـ واستمر بها إلى أن توفي عام ٧٤٠ هـ . (انظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٦م ٢ : ١٤١ - ١٤٤) .

(٣) سياشي الحديث عن ذلك مفصلاً في تصوير الخلافات السياسية ، لاحقاً .

(٤) نص العهد في نهاية الأثر ٨ : ١٢٨ - ١٣٥ .

(٥) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٦١ - ٢٦٢ .

أن الملك عقيم ليس بالوراثة لأحد : خالف عن سالف ، ولاكابر عن كابر" (١) .

وعمد الخليفة إلى الترهيب والترغيب ، ومن ذلك أنه جعل من خالف عن أمره ، ورفض بيبرس سلطاناً له وعصاه ، فقد عصى رسول الله الكريم ، ومن عصاه فقد عصى الله تعالى . إنه استغلال لمشاعر المسلمين الدينية في أسر لا يجوز استغلالها فيه ، وتحريف للكلم عن مواضعه وسياقه ، ونزول بمنصب الخلافة إلى درجة أن يصبح الخليفة داعياً لغيره ، وعاملاً على تثبيت من ليس الحق في جانبه ، وسعيًا وراء إشارة النفوس ضد الملك الناصر فقد اتهمه الخليفة بسفك الدماء وهتك الأعراض ، وتفريق الصفوف ، وبذلك يجب قتاله . قال : "وبلغني أن الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور شق العصاة على المسلمين ، وهرق كلمتهم ، وشتت شملهم ، وأطمع عدوهم فيهم ، وعرض البلاد الشامية والمصرية إلى سبي الخريم والأولاد وسفك الدماء ، فتلكت دماء قد صانها الله تعالى عن ذلك . وأنا خارج إليه ومحاربه إن استمر على ذلك ،... ، وقد أوجبت عليكم يا معاشر المسلمين كافة الخروج تحت لوائى الشريف ، فقد أجمعت الحكام على وجوب دفعه وقتاله إن استمر على ذلك ، وأنا مستصحب معي الملك المظفر فجهزوا أرواحكم" (٢) .

وتوضح العهود أن المماليك اتخذوا من نظام الوراثة أساساً في الحكم ، فكان السلطان يأخذ البيعة لأحد أبنائه ، ويصدر له تفويضاً بولاية العهد من بعده ، لكن الأمر كان ينتهي في بعض الأحيان بعزل المعهود له بعد وفاة العاهد ، ومن ذلك عزل قلاوون للملك السعيد بركة بن بيبرس عام ٦٧٨ هـ ونفيته له ولإخوته وأمه إلى الكرك (٣) ، كما عزل الناصر محمد بن قلاوون مرتين عن الملك عامي ٦٩٤ هـ ، و ٧٠٨ هـ قبل أن يستقر الأمر له ولأولاده (٤) .

وتجدر الإشارة إلى أن بعض السلاطين كانوا يعهدون إلى أبنائهم وهم صغار السن ، ويبدو أن ذلك كان سبباً قوياً في عزلهم ، فضلاً عن غلبة كبار الأمراء

(١) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٦٣ .

(٢) نفسه ٨ : ٢٦٣ .

(٣) انظر الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ، ابن دلقاق ، تحقيق محمد كمال الدين علي ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٥م ، ٢ : ٨٨ - ٩١ .

(٤) نفسه ٢ : ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٧ - ١٣٨ .

من قادة الجيش على عرش السلطنة ، الأمر الذي يشعر بعدم استقرار نظام الحكم في الدولة المملوكية ، حتى أصبح السلاطين دميّ يحركها قادة الجيش كما يشاؤون ، وبخاصة بعد وفاة الناصر محمد ابن قلاوون عام ٧٤١ هـ (١) .

وقد ادعى سلاطين المماليك صلاحية ولاية عهدهم لخلافتهم ، وأن ولايتهم كانت لمصالح المسلمين ، وبموجب النظر في مصالحهم ، ورعاية الإسلام وأهليه ، وجعلوا من ولاية عهدهم أبطالا في ساحات الجهاد ، يعتمد عليهم في الذود عن حياض المسلمين . كتب محيي الدين بن عبد الظاهر على لسان قلاوون في عهده لابنه الملك الأشرف خليل: "فاطلعنا في أفق السلطنة كوكبا سعيذا كان لحثسن الاستخلاف مفعدا ، ومن لقبيل المسلمين خيرا ثوابا وخيرا مردا ، ومن يبشر الله به الأولياء المتقين وينذر من الاعتداء قوما لثدا" . وبعد إطالة في عرض صفاته ومزاياه قال : "ولما تحتم من تفويض أمر الملك إليه ما كان لوقته المعلوم قد تأخر . وتحين حينه فكملة زيادة كزيادة الهلال حتى يادر تمامه فابدر ، اقتضى حسن المناسبة لنصائح الجمهور ، والمراقبة لمصالح الأمور ، والمصاغبة لمناجح البلاد والشعور ، والمقاربة من فواتح كل أمر ميسور ، أن نفوض إليه ولاية العهد الشريف بالسلطنة" (٢) .

لكن محيي الدين في عهد قلاوون لابنه الملك الصالح على كان أكثر تملقا لسلطانه ، فزعم على لسان قلاوون أن تفويض ابنه الصالح إنما هو رافة بلائمة ، وشفقة عليها ، وأنه المدخل لشفاء ما في صدور المسلمين من غليل على أعدائهم ، ويوفر لهم العدل والأمن في ظل حكمه . قال : "فلذلك اقتضت الرحمة والشفقة على الأمة أن ينصب لهم ولي عهد يتمسكون من الفضل بعروة كرمه ، ويسعون بعد الطواف بكعبة أبيه لحرمة ، ويقتطفون أزهار العدل وثمار الجود من كلمه وقلمه ، وتسعد الأمة منه بالملك الصالح الذي تقسم الأنوار لجبينه ، وتقسم المبار من كراماته وكرمه" (٣) .

(١) انظر الجواهر الثمينة ٢ : ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٨١ - ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٢١٩ ، السلوك ٢ : ٥٧٠ ، ٥٩٣ ، ٦١٨ و النجوم الزاهرة ١٠ : ١٦ ، ٥١ ، ٧٠ .

(٢) صبح الأعشى ١٠ : ١٧١ ، ١٧٢ .

(٣) نفسه ١٠ : ١٧٩ .

وادعى محيي الدين في عهد بيبرس لابنه الملك السعيد عام ٦٦٢ هـ (١) أنه استجاب في ذلك إلى طلب المسلمين، وأراد أن يعلم ابنه على حسن التصرف، وتدبير الأمور، ورعاية حقوق الأمة، وصيانة البلاد من المعتدين، ووصف الملك السعيد بأنه قوة^٢ تنضاف إلى قوة الإسلام فتزيده منعة. قال: "وأن نرتبه على حسن الاخلاق الملوكية منتشثة منه ومنتشثة به من الصغر، ونجعل سعى الأمة حميداً^٣، ونهب لهم منه سلطاناً نصيراً^٤ وملكاً سعيداً^٥، ونقوي به عضد الدين ونريش جناح المملكة، وننجح مطلب الأمة بإيالته وكيف لا ينجح مطلب فيه بركة" (٢).

- تصوير الخلافات السياسية

لم تحفظ المصادر من الرسائل التي تصور الخلافات السياسية بين المماليك، ونزاعاتهم الدموية على الملك سوى بضعة رسائل دارت بين الملك الناصر محمد بن قلاوون وأمراء دولته بعد خلع عام ٧٠٨ هـ.

ويبدو أن السبب وراء ذلك هو تحاشي المؤلفين جمع مثل هذه النصوص خشية الإيقاع بهم، كما كانت نصوص هذه الرسائل لا يعرف بها إلا فئة قليلة جداً من أمراء المماليك أنفسهم، ولذلك لم تنتشر انتشار غيرها من الرسائل الديوانية.

اضطر الملك الناصر عام ٧٠٨ هـ إلى عزل نفسه من السلطنة بعد أن اشتدت مضايقات نائبه الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري (٣)، الذي أصبح سلطاناً بعد خلع الناصر نفسه، والأمير سَلار (٤)، ثم أرسل إلى مصر رسالة تنازل فيها عن السلطنة، جاء فيها: "حرس الله تعالى نعمة الجنايين العالين الكبارين... أما بعد: فقد طلعت إلى قلعة الكرك، وهي من بعض قلاع وملكي، وقد عولت على الإقامة فيها، فإن كنتم ممالكي ومماليك أبي فأطيعوا نائبي، ولا تخالفوه في

(١) الروض الزاهر: ٢٠٣، الجوهر الثمين ٢: ٧٢، السلوك ١: ٥١٦.

(٢) نفسه: ٢٠٧، صبح الاعشى ١٠: ١٦٩.

(٣) آل به الأمر إلى الموت خنقاً على يد الناصر عام ٧٠٩ هـ (انظر كنز الدرر وجامع الغرر، ابن أبيك الدواداري، تحقيق هانس روبرت رومر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٠م، ٩: ١٩٧ - ٢٠٥، السلوك ٢: ٨٠ - ٨١، النجوم الزاهرة ٨: ٢٧٥).

(٤) سيف الدين سَلار بن عبد الله المنصوري، مات جوعاً في الاعتقال بقلعة الجبل بالقاهرة عام ٧١٠ هـ (انظر قوات الوفيات، ابن شاعر الكتبي، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت (بت)، ٢: ٨٧ - ٨٧).

أمر من الأمور" وهو يعني بذلك سَلار ، وكأن الناصر أراد إيقاع الفتنة بين خصميه (١) .

يبدو أن رسالة الناصر هذه لم تؤد إلى ما أراد ، فقد رد عليه الأميران برسالة تهديد ووعيد ، وطالباه فيها بالنزول من قلعة الكرك والعودة إلى مصر هو ومن معه وما معه ، وهدداه بأن يخرجوه بالقوة من الكرك إن لم يستمع ، ويوحى مضمون الرد بأنهما عرفا ما يرمي إليه الناصر من إشارة الفتنة بينهما ، ومحاولته التقوي بأمراء الشام من نوابه ؛ ليعود إلى الملك قويا . جاء في الرد قولهما : "ما علمنا ما عولت عليه ، وطلوعك إلى قلعة الكرك ، وإخراج أهلها ، وتشجيعك نائبها ، وهذا أمل بعيد فخل عنك شغل الصبي ، وقم واحضر إلينا ، وإلا بعد ذلك تطلب الحضور ولا يصح لك ، وتندم ولا ينفعك الندم ، فيا ليت لو علمنا ما كان وقع في خاطرك ... ، فالله - الله - حال وقوفك على هذا الكتاب ، يكون الجواب حضورك بنفسك ومعك مماليكك ، وإلا ، تعلم أننا ما نخليك في الكرك ولو كثر شاكروك" (٢) .

ويتضح من رد الناصر على هذه الرسالة أنه قد عرف مغزاهما منها ، فأراد أن يتخلص من تهديدهما فظهر الضعف ، وكرر نزوعه عن السلطنة ، وأخبر بإعادته كل ما كان أخذه معه من الأموال . قال في الرد : "ما أخذت لكم شيئا من بيت المال ، وهذا الذي أخذته قد سيئرتكم لكم ، فانظروا في حالكم وأنا ما بقيت أعمل سلطانا ، وأنتم على هذه الصورة ! فدعوني أنا في هذه القلعة منعزلا عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت ، وإما بغيره" . واستنادا إلى هذا الكتاب بويج بيبرس المنصوري سلطانا بدلا من الناصر (٣) .

كتب بيبرس بعد توليه تقليداً للملك الناصر بنبابة الكرك ، في محاولة منه لصرف نظره عن العودة إلى السلطنة ، ادعى فيه موالاته لبيت الناصر وأبيه المنصور ، وأنه حريص على نيل رضاه ، وأطال في مدح الملك الناصر ، لكنه زعم فيه

(١) النجوم الزاهرة ٨ : ١٨٠ .

(٢) نفسه ٨ : ١٨٠ .

(٣) نفسه ٨ : ١٨١ .

ان الناصر خلق نفسه من الملك رغبة* في الانقطاع لعبادة الله ، وزهادة منه في الدنيا ، وأنه كان يثق بالأمراء من حوله فترك تدبير أمر الملك إليهم لما عهده فيهم من إخلاص وحسن نية . قال : "رأى أن الموارد الدنيوية لا بد لها من مصادر ، وأن أوائل الأمور تستدعى الآواخر ، وأن للزهادة في الدنيا ، وإن عظم قدرها ، الشأن الكبير ، وأن الانقطاع إلى الله تعالى منهل صفو لا يقبل شوائب التكدير ، وقوي عزمه في الرحلة عن مقر ملكه إلى اعز حصونه المنيعه ، بل إلى أجل معاقله الرهيعة ، قاصداً بها الانفراد ،... ، واشتقاء بأن للملك من أولياء بيته الشريف كل ولي عهد لا تخفى لديه الذمم ، وكل سلطان أفق تضؤل دون عزمه الهمم" .

وتلطف ببيبرس في خطاب الناصر أيما تلطف ، وادعى أن هذا التقليد إنما كان لإعانة الناصر على بلوغ مراده ، وأن قيامه هو سلطاناً كان للغرض نفسه ، وأكد احترامه له ، وهي لغة المستميل الذي يحاول التخفيف من غضب الناصر . قال : "اقتضى اعتناؤنا الشريف أن نبليغه من مآربه الشريفة أقصى المرام ، وأن نساعده في كل أمر يعرف منه الموافقة منا على الدوام ، وأن ننظم الأمر في سلك الإرادة على مثراده ، وأن نبادر إلى راحة سره الشريف وفؤاده ، ولسوف نعامل مقامه العالي بكل احترام يصل إليه تفصيلاً وإجمالاً" (١) .

راسل الناصر في هذه الاثناء مجموعة من نواب الشام ، ولامه هؤلاء على نزوله لبيبرس عن الملك ، وأظهروا الولاء والتأييد له ، وأكدوا أيمانهم له ، وكان أكثر الأمراء حماسةً للاتفاق مع الناصر نائبه على حلب الأمير قرايشتقتر المنصوري (٢) ، وقد أرسل إليه الناصر من الكرك يدعوه إلى المبر ، وإعمال الحيلة على ببيبرس وسلاح بإظهار الولاء لهما وإبطان غيره . قال في رسالته : "فهذه عقدة ما تحل إلا بالصبر ، وإن حضر إليك أحد من جهة المظفر وطلب منك اليمين له ، فقدم النية أنك مجبور ومغصوب واحلف ، ولا تقطع كتبك عني في كل وقت ، وعرفني بجميع الأمور قليلها وكثيرها" (٣) .

(١) نهاية الأرب ٨ : ١٥٩ - ١٦٣ .
(٢) شمس الدين بن عبد الله ، أقامه الناصر نائباً في دمشق بعد رجوعه إلى السلطنة ، ووقعت وحشة بينه وبين الناصر عام ٧١١ هـ ، فتوجه إلى المغول ، وتوفي في بلادهم عام ٧٢٨ هـ (تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، ابن حبيب الحلبي ، تحقيق د. محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٢م ، ٢ : ١٨٣) .
(٣) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٤١ - ٢٤٢ .

ولكي يتم الأمر على الوجه الذي دبره الناصر ومن سائده من الأمراء ، اتبع نصيحة نائب طرابلس الأمير أسندمغر^(١) الذي قال له في شأن بيبرس : "المصلحة أن تخادعه في الكلام وتترقق له في الخطاب حتى نجهز أمرنا ونستظهر"^(٢) ، ففعل الناصر ، وكان جماعة من المماليك في مصر قد هربوا ولحقوا بالناصر في الكرك ، وأرسل إليه بيبرس يطالبه بردهم^(٣) .

لم يرد الناصر أن يخذل الأمراء الذين حضروا لمساندته ، فكتب إلى بيبرس يستعطفه ويستجير به ، وأظهر العبودية وخالص الولاء . قال في افتتاح الرسالة : "المملوك محمد بن قلاوون يقبل اليد العالية المولوية السلطانية المظفرية أسبغ الله ظلها ، ورفع قدرها ومحلها ، ويُنهي بعد رفع دعائه ، وخالص عبوديته وولائه..." ، وقال يشفع فيمن فر إليه : "وقد استجاروا بالمملوك ، والمملوك يستجير بظل الدولة المظفرية والمسامول ألا يثخيب سؤاله ، ولا يكسر قلبه ، ولا يرده فيما قصده" ، وتابع هذا الاسترخام بقوله : "وإن رسم مولانا السلطان مالك الرق أن يُمسّر نائبا له ، ينزل المملوك بمصر ، ويلتجئ بالدولة المظفرية ويطلق رأسه ويقعد في تربة الملك المنصور ، والمملوك قد وطن نفسه على مثل هذا" ، وختم الناصر رسالة الخدعة هذه بطلب العفو من بيبرس^(٤) .

ويذكر ابن تغري بردي أن بيبرس لما قرأ هذه الرسالة انطلت عليه الحيلة ، وتأكد له ولمسار أن الناصر لم يبق له قدرة على المعاندة والمطالبة بالملك^(٥) ، وفي أثناء ذلك دبر الناصر وأعوانه أمورهم ، وبدأ برحلة العودة إلى مصر بعد أن تمسب لطرفه كثير من المماليك ، ولما بلغ ذلك بيبرس طلب من الخليفة أن يكتب له بتجديد العهد كما تقدم ، غير أن ذلك لم يكن ذا فائدة ، حيث انفض عنه أعوانه ، فأرسل إلى الناصر يطلب عفوَه وصفحه قائلا بأنه نزل عن الملك . قال :

(١) سيف الدين أسندمغر بن عبد الله الكرجي" ، توفي بعد عودة الناصر إلى الملك بعامين عام ٧١١ هـ (انظر الدرر الكامنة ١ : ٣٨٧ - ٣٨٨) .
(٢) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٥٦ .
(٣) انظر كنز الدرر ٩ : ١٦٧ ، النجوم الزاهرة ٨ : ٢٤٨ - ٢٥٤ .
(٤) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٥٦ - ٢٥٧ .
(٥) نفسه ٨ : ٢٥٧ .

"والذي أعرفك به أنني قد رجعت أقلدك سيف بغيك * ، فإن حبستني عدت ذلك خلوة ، وإن نغيتني عدت ذلك سياحة ، وإن قتلتنني كان ذلك لي شهادة" (١) ، فرق الناصر له وأقطعه ، لكنه عاد عن ذلك وقتله خنقاً (٢) .

- الرسالة الديوانية والحياة الدينية

تبرز الرسائل الديوانية اهتمام المماليك بإقامة شعائر الإسلام ، وتطبيق أحكامه ، وتفيض رسائل التولية التي يصدرها السلاطين بالوصايا لمن يؤولونهم من الموظفين بذلك ، ويأمرهم فيها بنشر العدل بين الرعية والعمل به ، والعناية بأهل التقوى والصلاح ، واتباع آراء العلماء في الأمور المستجدة . جاء في تقليد بكفالة السلطنة بالشام من وصية السلطان للمقلد : "فليمهد بالعدل أكناف البلاد ، ولينظر بعين الرعاية والسداد ، ولينشر لسواء الإنصاف ،... ، وليأمر بإقامة الحدود على شارب المسلاف ، وعلى السارقين بالقطع من خلاف ،... ، والله الله في الشرع الشريف وإقامة مناره ، وتنفيذ كلمة أحكامه وإزالة أعداره ، والتقوى فهي أفضل شعاره ، وقرة أبصاره" (٣) .

وتجدر الإشارة إلى أن الأئمة والخطباء والمدرسين في المساجد كانوا يعينون من قبل الدولة ، وقد حفظت المصادر عدداً كبيراً من رسائل توليتهم ، وترى فيها عناية المماليك بالعلوم الدينية واضحة ، إذ دأبوا على التوصية بالاجتهاد في تبليغ العلم ، وكشف المشكل من مسائله . أوصى السلطان قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز بذلك في تقليد بالتدريس أنشأه محيي الدين بين عبد الظاهر ، قال فيه : " فليخول وينول كل ذي استفادة ، وليجمل منه بذلك العقد الثمين من علماء السدين بأفخم واسطة تفخر بها تلك القلادة ، وليذكر من الدروس ما يبهج الاسماع ، ويرضي الانتجاع ، ويوجد به الانتفاع ، ويحتل به من أخلاف الفوائد ارتضاء الارتضاع ، ويتناقل الرواة فوائده إلى علماء كل أفق من البقاع ، وليقل فإن الاسماع

* في الأصل : أقلدك بغيك ، ولعل ما أثبتته أولى ، إذ هو مثل معروف .

(١) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٢) نفسه ٨ : ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٣) صبح الأعشى ١٢ : ٢١ - ٢٢ ، وانظر : ٨ - ٩ ، ١٣ - ١٤ ، ١٩ ، ٤١ ، ٤٧ .

وقد رسم المنشئون لأرباب المناصب الدينية من قضاة وإثمة وخطباء صوراً عمادها : التقوى ، والزهد ، والعلم الوفير ، وحسن التدبير ، وغيرها مما يوحى بأهليتهم لتولي تلك المناصب . ووصف بهاء الدين السبكي قاضي الشافعية بدمشق في تقليد توليته بأنه "هو الذي تختال به المناقب ، وتختار فضله العواقب ، ويشرق قلمه بالفتاوى إشراق النهار ، وتغدق منافعه إغداق السحب بالأمطار ، وتحقق به الطلبة إحقاق الكرامة بالثمر والهيالات بالآقمار ، وهو شافي عي كل شافعي ، ودواء ألم كل ألمعي ، وطالما جانب جنبه المضاجع سهاداً ، وقطع الليل ثم استمده لمدد فتاويه مداداً" (٢) .

لكن في بعض الرسائل تعريضاً ببعض علماء الدين ، حيث كان فيهم من لا يقيم حدود الله على وجهها الشرعي ، ويجري لاهثاً وراء دنياه ، وهو نادر الوقوع في الرسائل ، إلا في تلك التي يذكر فيها سبب عزل أحدهم ويولى غيره ، ومن ذلك تقليد بقضاء الشافعية بالشام أنشأ أحمد بن فضل الله العمري ، قال يومي المقلد : "عليك بتقوى الله في السر والعلن ،... ، وإقامة حدود الله ولا تتعد حدوده ، وقمع البدع لإظهار الحق لا لإشارة فتنة مقصودة ، فقد علمت ما أنكرته أنت وأمثالك من الأئمة العلماء على من تقدمك من تسرعه في مثل ذلك ، وتطلعه إلى مطالب سقط دونها في مهاوي المهالك ، فأياك إياك أن تتبع في هذا النحو سبله" (٣) .

كما تبرز بعض رسائل النصيح التي وجهها القضاة إلى نوابهم في الولايات مثل الصورة المتقدمة آنفاً ، ومن ذلك أن القاضي ابن دقيق العيد ، قاضي الشافعية بمصر . أرسل إلى أحد القضاة في الريف يرشده ويعظه ، ويطلب إليه الانتباه من سينته ، والصحوة من غفلته التي أرخى زمامها لشيطان هواه ، قال فيها يصف انحرافه : "والمقتضي لإصدارها ما لمناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن

(١) صبح الاعشى ١٢ : ٢٣٠ ، وانظر : ٢٢٥ ، ٢٢٧ .

(٢) نفسه ١٢ : ٣٨ ، وانظر : ٣٧ ، ٤٣ ، ١١ : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ .

(٣) نفسه ١٢ : ٤٤ ، و انظر : ٤٥ - ٤٦ .

تقاعد الهمم عن القيام بما يجب للرب على المربوب ، ومن أنسهم بهذه الدار وهم عنها يزعمون ، وعلمهم بما بين أيديهم من عقبة كثود وهم منها لايتخلصون ، ولاسيما القضاة الذين تحملوا الأمانة على كواهل ضعيفة ،...، ولا أرى مع ذلك أمناً ولاقراراً ولاراحة ، اللهم إلا رجلاً نبذ الآخرة وراءه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصر همته وهمته على حظ نفسه ...، غير مستشعر خسة حاله ، ولاركاكة مقصده" (١) .

ويتضح للمطالع في رسائل التولية لقضاة المذاهب الأربعة أن المماليك كانوا يعدون قاضي الشافعية أعلاهم رتبة وأجلهم قدراً ، وإن كانوا قد فصلوا المذاهب الأربعة وجعلوا لكل منها قاضياً ، ففي عام ٦٦٣ هـ (٢) عمل بيبرس على ذلك واستمر العمل بما قرره ، لكن رتبة القاضي الشافعي ، ومنزلة المذهب الشافعي ، من نفوس المماليك ظلت كما هي (٣) .

إن ادعاء المماليك الحرص على تطبيق أحكام الشرع الخفيف ، ومزاعمهم في فتح آفاق العلوم الدينية لطلبة العلم ، وحشهم العلماء على الاجتهاد ، له ما يناقضه في رسائلهم ، حيث مدرت مراسيم سلطانية أحياناً تنهى الناس عن اتباع رأي عالم أو مجتهد في مسألة ، أو تأمر بترك مذهب والدخول في غيره ، أو تحث ولاية الأمر على تضييق أبواب الحياة على أهل رأي ، حتى يعودوا عن رأيهم .

وقد حفظت مصادر العصر المملوكي رسالتين فريدتين في هذا السياق، أولاهما كتبت في عهد الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٥ هـ ، وكتبت الأخرى عام ٧٦٤ هـ ، وتوضح الرسالتان موقف المماليك من العلماء الذين يحاولون البحث في قضايا فكرية في الإسلام مثل ابن تيمية ، ونظرتهم إلى الإسلام بشكل عام ، وموقفهم من الشيعة .

ويبدو أن ابن تيمية كان يخالف بعض الآراء الفقهية السائدة في زمنه ، كما

(١) الطالع السعيد بجامع أسماء نجباء الصعيد : ٥٩٨ ، وانظر البداية والنهاية ، ابن كثير ، تحقيق علي شيري ، دار إحياء التراث الإسلامي ، بيروت ١٩٨٨ م ، ١٢ : ٣٦٢ .
(٢) انظر الجوهر الثمين ٢ : ٧١ ، البداية والنهاية ١٣ : ٢٨٤ ، الملوك ١ : ٥٣٨ .
(٣) وانظر رسائل تبين ذلك صبح الأعشى ١٢ : ٣٦ - ٤٧ .

يبدو أن جراته سببت له متاعب كثيرة ، يذكر ابن أبيك الدواداري أنه عام ٧٠٥ هـ ضايق بعض الفقهاء ابن تيمية ، وحاججوه في مسائل أفحمهم في الرد عليها ، فتعرض جماعة من تلاميذه للاندى من قبل القاضيين الشافعي والحنفي ، ثم أصدر نائب السلطان مرسوماً أمر فيه بالإمساك عن الجدل في مسائل العقيدة ، جاء فيه : "من تكلم في العقائد حل ماله ودمه ، ونلغبت داره ، وهتكت عياله" (١) .

وقد تعصب القضاة الثلاثة : الشافعي والحنفي والمالكي ضد الشيخ ابن تيمية الحنبلي ، وجرى بينهم وبين القاضي الحنبلي كلام كثير ، وأهين الحنابلة بمصر ، وظلوا في سعي عليه عند السلطان الناصر حتى أمر بحضوره إلى القاهرة ، ثم حاكمه جماعة القضاة الثلاثة ، وأمر السلطان بعد ذلك باعتقاله ، وسُجن إخوته في برج من أبراج القلعة (٢) .

ثم أصدر السلطان بعد هذه الواقعة مرسوماً بمخالفة عقيدة الشيخ ابن تيمية ، وإلزام الناس جميعاً ، وبخاصة الحنابلة ، بذلك ، ويظهر المرسوم أن القضية التي أثيرت وسُجن ابن تيمية بسببها كانت تتعلق بأسماء الله تعالى وصفاته ، والتشبيه والتجسيم .

بدأ السلطان المرسوم بمقدمة تتضمن حمد الله تعالى الذي ألهمه العمل بالكتاب والسنة ، وطمس في أيامه ما يدعو إلى الشك والفتنة ، أثنى الكاتب فيها بآيات وأحاديث تنفي التشبيه والتجسيم والتحيز عن الله سبحانه ، وتدعو إلى التفكير في مخلوقات الله لا في ذاته .

ثم تحدث الكاتب عن العقيدة الإسلامية ، وضرورة تطبيق حكم الشرع على من زاع وظل ، وسلك فيها مسلكاً لا تفرجى معه النجاة ، وضرورة تحقيق الإجماع عليها بلا اختلاف ، حتى لا تكون الآراء مدعاة للفتن والبدع ، وهو في ذلك يُمهد لإلقاء خبر القبض على ابن تيمية بادعاء أنه صاحب بدعة فيما ذهب إليه ، قال الكاتب : "إن العقائد الشرعية ، وقواعد الإسلام المرعية ، وأركان الإسلام العليّة ،

(١) كنز الدرر وجامع الغرر ٩ : ١٣٣ - ١٣٥ .

(٢) انظر نفسه ٩ : ١٣٦ - ١٣٧ .

ومذاهب الدين المضيئة ، هي الأساس الذي يبنى الإيمان عليه ، والمؤمل الذي يرجع كل أحد إليه ، الطريق التي من سلكها قد فاز فوزاً عظيماً ، ومن زاع عنها فقد استوجب عذاباً أليماً ، فلهذا يجب أن تنفذ أحكامها ، ويؤكد زمامها ، وتضمن عقائد هذه الأمة عن الاختلاف ، وتوازن قواعد الأئمة بالائتلاف ، وتخمد شوائب البدع ، ويفرق من قوتها ما جتمع" (١) .

وأرى أن ما استند إليه السلطان في اعتقال ابن تيمية ، وعده مبرراً لمنع الناس من اتباع رأيه لأمراً مستهجن حقاً ، فلم يكن الخوض في مسائل الأسماء والصفات جديداً بل خاضه العلماء المسلمون في عصور متقدمة ، ولا كان الحديث فيما سكت عنه الصحابة والتابعون بدعة توصل الإنسان إلى الكفر البواح ، ولا كانت مخالفة (علماء العصر) في رأي تؤدي بالمرء إلى الشرك ، لكنما هو حرص السلاطين على جعل الدين ومسائله تقليدياً أعمى فيما يبدو ، وحصر الكلام فيه على جماعة من العلماء الذين يعملون في مناصب الدولة ، ورفض الحكام المماليك لأي محاولة للخروج عن ذلك . وإن حجج السلطان تظهر الأسباب الحقيقية وراء هذا المرسوم وإعلان الحرب على ابن تيمية وآرائه . قال : "وكان التقي بن التيمي في هذه المدة قد سلط لسان قلمه ، ومد عنان كلمه ، وتحدث في مسائل الذات والصفات ، ونص في كلامه على أمور منكرات ، وتكلم فيما سكت عنه الصحابة والتابعون ، وفاه بما يخفيه السلف الصالحون ، وأتى في ذلك بما أنكره أئمة الإسلام ، وانعقد على خلافه اجتماع العلماء والحكام ، وشهر من فتاويه في البلاد ما استخف به عقول العوام ، فخالف في ذلك علماء عصره ، وأئمة شامه ومصره ، وبعث رسائله إلى كل مكان" (٢) .

ادعى السلطان بعد ذلك حرصه على نقاء العقيدة الإسلامية ، ومحاربة البدع في سبيل الحفاظ على الإسلام ، وأنه إنما استدعى ابن تيمية إلى القاهرة بسبب انتشار آرائه "المضلّة" في مصر والشام على حد زعمه ، فأعطاه فرصة للدفاع عن نفسه أمام قضاة المسلمين وعلمائهم ، وأولي الألباب منهم ، فلما ثبت عليه أمر

(١) كنز الدرر ٩ : ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) نفسه ٩ : ١٤٠ .

بسجنه بعد أن استثيب مراراً فما ارعوى ، وروجع في آرائه فلم يرجع ، قال :
"ولما وصل إلينا ، تجمع أولو الحل والعقد ، وذوو التحقيق وفقهاء المسلمين ،
وعقد له مجلس شرع ، في ملا من الائمة وجمع ، فثبت عند ذلك عليه ، جميع ما
نسب إليه ، بمقتضى خط يده ، الدال على معتقده ، وانفصل ذلك الجمع وهم لعقيدته
منكرون" . ولم ينسب السلطان أمره بالسجن إلى ذاته ، بل إلى حكم الشرع ؛ ليكون
أكثر إقناعاً . قال : "فلما ثبت ذلك في مجلس الحكم العزيز ، حكم الشرع الشريف
بأن يسجن المذكور ، ويمنع من التصرف والظهور" (١) .

ويبدو أن هذا المرسوم كان يهدف إلى تهدئة خواطر الناس من اتباع ابن
تيمية ؛ ولذلك بدا السلطان بأمر الناس جميعاً في السلطنة بمخالفة رأي ابن
تيمية ، والابتعاد عن الخوض فيما خاض فيه ، ولزوم رأي "علماء الامة" المنكرين
عليه ، ثم هدد من حاد عن تلك الجادة بالسيف ، ثم عرض بالتهديد للحنابلة اتباع
ابن تيمية ، لكنه تهدد "بغير السيف ، بل بالسجن ، وإلغاء ما يترتب على المذهب
من وجود قضاة لاتباعه ، ورفض شهادتهم ، وإخراجهم من وظائفهم" . قال : " فليقف كل
أحد عند هذا الحد ، فله الأمر من قبل ومن بعد ، فليلزم كل من الحنابلة
بالرجوع عما أنكره الائمة من هذه العقيدة ، والخروج من هذه المشتبهات
الشديدة ، ولزوم ما أمر الله به من التمسك بمذاهب أهل الإيمان الحميدة ، فإنه
من خرج عن أمر الله تعالى فقد ضل سواء السبيل ، وليس له منا غير السجن الطويل
من مقيل ، ومتى أصروا على الامتناع ، وأبوا إلا الدفاع ، فليس لهم عندنا حكم
ولا قضاء ولا إمامة ، ولا نسمح له في بلادنا بشهادة ولا منصب ولا إقامة ، ونأمر
بإسقاطهم من مراتبهم ، وإخراجهم من مناصبهم ، وقد حذرنا وأعذرنا ، وأنصفنا حيث
أنذرنا" (٢) .

ويذكر ابن أبيك أن الحنابلة أجبروا بعد قراءة هذا المرسوم على القول
باعتقاد ما يعتقد الإمام الشافعي ، كما يذكر أن أهم الأسباب فيما حدث لابن
تيمية كان هجومه على محيي الدين بن عربي الموصي الشهير ، فقد لعنه ابن تيمية

(١) كنز الدرر ٩ : ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) نفسه ٩ : ١٤١ - ١٤٢ .

علناً ورد على كتابه "فصوص الحكم" بكتاب سماه "النصوص على الفصوص" ، وذكر فيه كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها ابن عربي ، فوقع ذلك في نفس بعض المتصوفة موقعاً سيئاً ، فسعوا عليه عند نائب السلطان بيبرس الجاشنكير ، وكان لهم عنده منزلة ، فما زالوا يسعون على الإيقاع به حتى حدث ما أرادوا ، وقد جرت على الحنابلة بعد هذه الواقعة فتن كثيرة (١) .

إذا كان موقف المماليك من الحنابلة ، وهم من أهل السنة ، قاسياً لهذه الدرجة ، مما يدل على حدة الخلافات المذهبية في المجتمع المملوكي ، فإن عوامل كثيرة دفعت المماليك إلى اتخاذ موقف أشد من الشيعة (٢) ، ومن أهمها خلافهم الممتد قروناً مع أهل السنة ، وقيام دولة المماليك بعد دولة أسلافهم الأيوبيين الذين حاربوا التشيع ، وحاولوا القضاء على كل أثر له في أعقاب القضاء على الدولة الفاطمية بمصر .

وقد سجلت الرسالة الديوانية هذه الموقف تسجيلاً واضحاً ، حيث أوصى السلاطين النواب بقمع الشيعة ، وتضييق الخناق عليهم ، وترى في بعض هذه الرسائل حاجة لهم ، وتسفيهاً لمذهبهم . ولى الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٣٦ هـ ابن جمّاز (٣) إمرة المدينة المنورة ، وأنشأ تقليده ابن فضل العمري ، أحمد . قال فيه يوميه : "فليكن من عادية هؤلاء الروافض الأشرار ما سيميلون في المواقفة بناره ، وسيميلون إلى الموافقة على ما طار من شراره ، ولا يدع للإمامية إماماً يقتدي به منهم قوم شرار ، ولا قاضياً يقضي بينهم : فإنه إنما يقطع لمن قضى له أو عليه قطعة من نار ، ولا عالماً يرفع له علم ، ولا يفتتح لهم بفتوى على مذاهبهم فم ، حتى ولما يتحرك به في فم الدواة القلم ، وليسطر هذا المسجد الشريف من دنسهم ، وليطم ما يحمله أديم مجلدات التمانيف من نجسهم" (٤) .

-
- (١) كنز الدرر ٩ : ١٤٣ - ١٤٥ .
 (٢) خطط المقرئ ٢ : ٣٣٤ ، وانظر مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك : ٢٩٠ .
 (٣) أبو مزروع ، ودي بن جمّاز بن شيعة ، ينتسب إلى آل الحسين ابن علي بن أبي طالب ، توفي عام ٧٤٣ هـ (انظر الأعلام ، الزركلي ، طبعة مطبعة كوستاتوماس ، القاهرة ١٩٥٤م ، ٨ : ١١٢) .
 (٤) صبح الأعشى ١٢ : ٢٤١ - ٢٤٢ .

وفي عام ٧٦٤ هـ أصدر السلطان الملك الأشرف شعبان^(١) بن حسين بن الناصر محمد مرسوماً "يمنع أهل صيدا وببيروت وأعمالهما من اعتقاد الرافضة والشيعة وردعهم ، والرجوع إلى السنة والجماعة ، واعتقاد مذهب أهل الحق ، ومنع أكابرهم من العقود الفاسدة والائتحة الباطلة ، والتعرض إلى أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين..." (٢) .

واستمد كاتب المرسوم في مقدمته معاني تمهد للغرض منه ، يظهر فيها تمسك الماليك بمذهب أهل السنة ، وحرهم المعلنة على الشيعة ، وتهديد السلطان لهم بالقمع ، ووصفه لهم بالاعاجم الأراذل . قال : "الحمد لله الذي شرع الحدود والأحكام ، وجدع بالحق أنوف العوام الأغتنام الطغام ، وجعل الصلاح والنجاح والفلاح في الأخذ بسنة خير الخلق وسيد الأنعام ، وقمع الزائغين عما عليه أهل السنة من الحق في كل نقص وإبرام" .

وبعد حمد الله والشهادة بوحدانيته ، والصلاة على نبيّه الكريم ، ذكر الكاتب فضائل الصحابة رضوان الله عليهم ، وركز في ذلك على ترتيب أربعة الخلفاء حسبما يراه أهل السنة من تقديم أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، مشيراً إلى فضل كل منهم ، وهو متأثر في ذلك بطبيعة الموضوع والغرض من الرسالة .

وحاول الكاتب بيان فساد مذهب الشيعة ، فبدأ بالحديث عن ظهور دين الإسلام ، وقيام الرسول الكريم بتبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، وتوضيح الطريق حتى لم يدع سبيلاً لمتأول ، فاتم الله دينه على يديه ، ودخل الناس فيه أفواجا ، ثم ذكر ما كان من أمر الصحابة بعده ، موضحاً أن خلفاء ما غيروا ولا بدلوا ، وساروا على ما سنه ، مقتدين به فيما بينه ، وهو يرد في ذلك على الشيعة الذين يتهمونهم . قال : "فقام خلفاؤه بعده بآثاره يقتدون ، وبهديه وإرشاده يهتدون ، ولأحكامه يتبعون ، ولأوامره يستمعون ، ولمعاني ما جاء به

(١) تولى السلطة في شعبان عام ٧٦٤ هـ بعد خلع ابن عمه المنصور محمد ابن حاجي بن الناصر محمد ، وأقام فيها إلى أن قتل عام ٧٧٨ هـ (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ابن تغري بردي ، تحقيق د. محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٤م ، ٢ : ٢٨٨) .

(٢) صبح الأعشى ١٣ : ١٤ .

يعون ، وإلى قضاياه يرجعون ، ولا يغيثون ولا يبدلون ، ولا يتعرضون ولا يتأولون ، ففضى على ذلك الخلفاء الراشدون المهديون، لم يتبع أحد منهم في زمانهم عقيدة فاسدة ، ولم يظهر أحد مقالة عن سواء السبيل حائدة" (١) .

إن هذا العرض المطول لما كان عليه الحال في عهد الرسول الكريم ، وعهد خلفائه لم يكن ، فيما يبدو ، سوى تمهيد للسديد عن تفرق الائمة أحزاباً كل بما لديهم فرحون ، كما يوحي بأن هذا الاختلاف بين السنة والشيعة يجب أن يزول ، ولكن على حساب الشيعة ، فهم ، كما يرى الكاتب ، الذين حادوا عن سواء السبيل ، شأنهم في ذلك شأن بقية الفرق التي حرفت أو انحرفت ؛ ولذلك عرض لتفريق الناس تبعاً لأهوائهم ، ثم ذم الشيعة وسفّه أحلامهم ، فوصفهم بأنهم أهل بدع وضلالات ، وعقائد زائفة ، وبأن حجّتهم ضعيفة ، ودعواهم سخيفة . قال : "ثم تفرقت الآراء ، وتعددت الأهواء ، واختلغت العقائد ، وتباينت المقاصد ، ووهت القواعد ، وتصادمت الشواهد ، وتفرقت الناس إلى مقرر بالحق وجاحد ، وظهرت البدع في المقالات... ، واضعفهم نقلاً ، وأوهنهم حجة ، وأبعدهم من الرشد محجة ، طائفة الرافضة الشيعة ، لارتكابهم أموراً شنيعة ، وإظهارهم كل مقالة فظيعة ، وخرقهم الإجماع ، وجمعهم قبيح الابتداع ، فتبددوا فرقاءً وملكوا من فواحش الاعتقادات طرقاً ، وتنوع ناسهم ، وتعددت أجناسهم ، وتجراؤا على تبديل قواعد الدين ، وأقدموا على نبذ أقوال الائمة المرشدين" (٢) .

أظنّ كاتب المرسوم في ذم الشيعة ، وحاول بكل الوسائل أن يثبت بطلان آرائهم ، وفساد عقيدتهم ، فجعل منهم حزب الشيطان ، ووصفهم بالمصارقين من الدين ، وبأنهم يتأولون القرآن على غير ما أراد الله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا أساس لآرائهم ، ولا يصح أن يدعوا التشيع لال بيت الرسول الكريم على حد قوله .

ثم خص الكاتب أهل بيروت وصيدا من الشيعة ، فذكر ما كان من اتباعهم للمذهب ، واتخاذهم أئمة لهم بتحاكمون إليهم ، وتعظيمهم لأعلام علماء الشيعة ،

(١) صبح الاعشى ١٣ : ١٤ - ١٦ .

(٢) نفسه ١٣ : ١٦ - ١٧ .

واتهمهم بأنهم يستحلون دم المسلمين من أهل السنة ، ويأكلون مال مخالفيهم ، ويجمعون بين الاختين في النكاح ، "ويتدينون بالكفر المصّراح ، إلى غير ذلك من فروع هذا الأصل الخبيث، والمذهب الذي ساوى في البطلان مذهب التشييع". على ما زعم (١) .

ولما كان الغرض من المرسوم هو التهديد ، والأمر بالإقلاع عن التشييع لمن اعتقده ، لوّح الكاتب بنية السلطان في استخدام القوة لقمع أولئك ، وسلك مسلك التبرير لاستخدامها ، فجعل يجادل ويحاور ، ويذكر أحكاماً شرعية وكأنه فقيه يرد على مسائل ، ووصف الجيش بأنه عسكر الإسلام ، وبأنه فرقة من جيش الإمام أمير المؤمنين ، وكأنه يلوح بوجوب طاعته والنزول على أمره . قال : "أردنا أن نجهز طائفة من عسكر الإسلام ، وفرقة من جند الإمام ، تستأصل شأفة هذه العصبة الملحدة ، وتطهر الأرض من رجس هذه المفسدة ، ثم رأينا أن نقدم الإنذار ، ونسبى إليهم بالاعتذار ، فكتبنا هذا الكتاب ، ووجهنا هذا الخطاب ، ليقرأ على كافتهم ، ويبلغ إلى خاصتهم وعامتهم ، يعلمهم أن هذه الأمور التي فعلوها ، والمذاهب التي انتحلوها ، تلبيح دماءهم وأموالهم ، وتقتضي تعميمهم بالعذاب واستئصالهم" (٢) .

ويبدو أن السلطان أراد أن يعود هؤلاء عما هم عليه دون استعمال القمع والقوة ، فجعل يرشدهم كاتب المرسوم وينصحهم ، وذكرهم بما ادخره الله تعالى لمن تاب وأصلح ، وطالبهم بإصلاح ما اقترفوه من موبقات ، وقرن ذلك بالترهيب بوعيد الله لمن حاد عن جادة الصواب ، ليكون أعظم أثراً في نفوسهم . قال : "فإن عذاب الله شديد ، ونكال المجرم في كل يوم يزيد ، ودار غضب الله تنادي بأعدائه هل من مزيد ، فلا طاقة لكم بعذابه ، ولا قدرة على اليم عقابه" (٣) .

ثم عاد الكاتب مرة أخرى إلى الوعظ والإرشاد ، فذكرهم بضرورة مراجعة النفس ، واستدراك ما فات " قبل فوات الفوت وهجوم الموت ، وانقطاع الصوت ،

(١) صبح الاعشى ١٣ : ١٨ - ١٩ .

(٢) نفسه ١٣ : ١٩ .

(٣) نفسه ١٣ : ٢٠ .

واعتقال اللسان ، وانتقال الإنسان" . قال في ختام المرسوم : "وقد أعذر من أندر ، وأنصف من حذر ، فإن حزب الله هم الغالبون ، والذين كفروا سيغلّبون" (١) . إن ما تقدم ينمّ عن تعصّب شديد ضد الشيعة ، وهو موقف لا مسوّغ له ، حيث كان موقف المماليك من أهل الذمة أقلّ قسوة وإجحافاً .

- الرسالة الديوانية والحياة الاجتماعية

لعل أكثر الظواهر بروزاً في رسائل التولية والتعيين تلك الوصايا التي يوصي بها السلاطين الموظفين ، وبخاصة العناية بالرعية ، وتحقيق العدل والأمن لهم ، والقيام على رعاية الأيتام والفقراء والضعفاء ، ويبدو أن المماليك حاولوا من خلال ذلك كسب تأييد الناس لهم ، ولذلك ترى في عقب كل وصية بذلك طلباً بتبصير الرعية بمحاسن السلطان ، واستجلاب الدعاء له . فقد كان ممّا أوصي به بهاء الدين السبكي في توليته قضاء الشافعية بدمشق العناية بالأيتام والفقراء . قال السلطان يوصيه بكف أيدي موظفي الأوقاف والصدقات عن الانتقاص من حقوقهم ، أو أكل أموالهم : "فاجتهد أن تكون فيهم أباً براءً ، وأن تتخذ فيهم عند الله أجراً ، وإن تعامل في بنيك بمثل ما عاملتهم إذا انقلببت إلى الدار الأخرى ، واحفظ أموالهم أن تنتهكها أجره العمال ، وترجع في قراضها إلى ما يجحف برؤوس الأموال" (٢) .

ويمكن القول بأن هذا الاتجاه كان أكثر وضوحاً فيما يتعلق بالحركات الصوفية التي انتشرت في المجتمع المملوكي انتشاراً واسعاً ، وقد استغل سلاطين المماليك هذه الحركات في نشر فكرة الانقطاع للعبادة والابتعاد عن الخوض في القضايا السياسية (٣) ، ولذلك علنوا بهم عناية خاصة ، وبنوا لهم الخانقاهات والزوايا والرُّبَط ، وقد برز هذا الموقف في الرسائل الديوانية بوضوح .

(١) صبح الأعشى ١٣ : ٢١ .
(٢) نفسه ١٢ : ٤٦ ، وانظر : ٩ ، ١٣-١٤ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢١-٢٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٩٢ .
(٣) انظر مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك : ٢٩١ - ٢٩٢ ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، د. سعيد عاشور ، دار النهضة القاهرة ١٩٦٢ : ١٦٢ - ١٦٣ .

وترى في الرسائل ترويجاً لصالح هؤلاء ، ولفكرة قريبهم من الله سبحانه ، فهم الذين يستجاب دعاؤهم ، ولا تغلق دونهم أبواب السماء ، وهم الأساس الذي يغبنى عليه ، إذ يستمطر بهم الرزق ، وتكشف بهم الغمة ، ويستشفى بهم وببركاتهم من السقام ، وصفهم ابن فضل الله العمري من توقيع بمشيخة الشيوخ بالخانقاه الملاحية (١) بقوله : "إن أولى ما استقام به الشخص على الطريقة ، واستدام به الرجوع إلى الحقيقة ، واستنام به يطمئن إلى الخالق لا إلى الخليفة ،...، طائفة أهل الصلاح ، ومن معهم من أهل الصفا ، الصوفيّة داعي الفلاح ، ومن تضحهم من الواردين إليهم بجناح ، والصادرين عنهم بنجاح" (٢) .

كما أوصى السلاطين أرباب الوظائف بالصوفيّة خيراً ، وأمر الموظفين بتعظيمهم وتقريبهم ، مدعين أنهم أهل الله وأحبّاءه ، والهداة المهديّون . أوصى الناصر محمد بهاء الدين السبكي بهم قائلاً : "ومن ناسب إلى خرقه الفقر وأهل الصلاح هم أولياء الله المقربون ، وأحبّاءه الأقربون ، فعظم هباتهم ، فما منهم ، وإن اختلفت أحوالهم ، إلا من هو على هدى مبين ، واخرى أن تكون لهم حياءً يملأ قلوبهم ، فإن الله ينظر إلى قوم من قلوب قوم آخرين" (٣) .

وتجدر الإشارة إلى أن بعض رسائل التولية تظهر فيها صورة المجتمع المملوكي في بعض جوانبه أكثر من غيرها ، وأهم هذه الرسائل رسائل تعيين المحتسبين ورؤساء الأطباء ، وهما مما يتأمل بحياة العامة اتصالاً وثيقاً .

وتظهر هذه الرسائل انتشار بعض الأمراض الاجتماعية في المجتمع المملوكي مثل الغش والاحتكار ، وتعاطي حرق وصناعات بغير معرفة ولاخبرة . قال ابن نُبّاتة المصري يومئذ محتسب بعلبك : " فليستمر في حسبه المباركة .. جاعلاً أول نظره من اقوات الرعية في الدقيق والجليل ، مستبنيًا لما التبس من غش المطاعم والمشارب ... دافعاً ضرر المجترى الباشع عن المشتري الممكنين ، ذكياً فيما يذكي فيذب

(١) شيخ الشيوخ : لقب كبير الصوفية ، وتسمى الخانقاه الملاحية بسعيد السعداء ، بناها الأستاذ قلنبر أحد الاستاذين المحنّكين خدام القصر أيام الخليفة المستنصر الفاطمي ، وقد جعلها صلاح الدين برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الإسلامية (خطط المقرئ ٢ : ٤١٥) .

(٢) صبح الاعشى ١١ : ٣٦٦ ، وانظر : ٣٧٠ - ٣٧١ .

(٣) صبح الاعشى ١٢ : ٤٧ ، وانظر : ٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ .

بسكين ويذبح متناوله بغير سكين ، قاضياً بالحق في كل ما يشتري ويبيع ،... ،
ومن عانى صناعة ليس له فيها يد فليُلزمه بما بسط في إفساده اليدين... " (١) .

ويبدو أن وظيفة المحتسب كانت مهمة إلى درجة كبيرة ، وقد أعطاه السلطان المملوكي سلطات واسعة من تفتيش ومراقبة وتحسس وعقاب . قال ابن فضل الله من توقيع بنظر الحسبة في القاهرة بأن المحتسب "له التصرف المطلق ، والتعرف الذي يفتح من الحوانيت على أربابها كل باب مغلق ، ولركوبه في المدينة زينة" يلحشر لها الناس ضى ، ورهبة" يغدو بها كل أمين لشانه مصلحاً ، وإليه الرجوع في كل تقويم ، وهو المرجو" في كل أمر عظيم" (٢) .

كما أظهر ابن فضل الله أن كثيراً من التجار وأرباب الحرف كانوا يرغبون في الكسب عن طريق الغش والاحتكار ، فأوصاه بضرورة التدقيق في أمورهم ومعاملاتهم ، ومعاينة المفسدين منهم بقسوة ، وأن يقيم له عيوناً أعواناً على من يظن فيهم الخداع والتحايل ، وأن يحدد الربح على ما يسمح به الشرع ويطبقه الناس ، ثم أشار إلى انتشار الجهل بين العامة وإقبالهم على المنجمين ، وفساد بعض معلّمي الكتاتيب ، وإقبال الناس على القمصان الذين يلهونهم بقصص كاذبة ، وهي لاشك جوانب طريفة في وصف المجتمع المملوكي نادرة" في الرسائل . قال ابن فضل الله : "وتفقد الأسواق مما يتولد فيها من المفاسد ، فإن الشيطان ربما باض في الأسواق وفرخ ، وأرباب الصنائع فيهم من يبدلس ، وفقهاء المكاتب منهم من لعرضه يبدنس ، والقمصان غالبهم يتعمّد الكذب في قصصه ، وأهل النجامة كم منهم من لعب مرة بعقل امرأة وأمات رجلاً بفحصه ، وآخرون ممن تفل بهم العقول ، وتظل حائرة فيهم النقول" (٣) .

ومما يدل على انتشار الشعوذة في المجتمع المملوكي ، قيام المنجمين بممارسة أعمالهم علانية في الطرقات ؛ ولذلك كان رئيس الأطباء يوصى بملاحقة هؤلاء ، ومنعهم من الاستخفاف بعقول الناس ، ومن ذلك في توقيع برئاسة الطب في وصية

(١) صبح الاعشى ١٢ : ٣٧٨ - ٣٧٩ .

(٢) نفسه ١٢ : ٦١ .

(٣) نفسه ١٢ : ٦٢ ، وانظر : ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

للمولى: "وليحط هذه الوظيفة حقها من تقديم المبرزين في علمها ،...، ومنع من يتطرق من الطرقيّة إلى معالجة وهو عار من رداثها ، وكف يد من يتهجم على النفوس فيما غمض من أدواثها قبل تحقق دواثها" (١) .

ويتبين من رسائل تولية الأطباء أنهم كانت تجرى لهم اختبارات يمتحن بها من أهليتهم ، وأن بعضهم كان يطلب منه ألا يعالج إلا بعد اكتساب خبرة كافية ، ويشترط فيه التقوى ، ومن ذلك ما جاء في توقيع أنشاء الشهاب الحلبي يوصي رئيس الأطباء : "فلا يقبل في التزكية إلا من يشق بدينه كوشوقه بعلمه ، ولا يلمصر أحداء في هذه الصناعة إلا الذين زكت أعمالهم قبل التزكية ، وليشفعها بالامتحانات التي تفسر عن وجوه الشوق بالاهلية لثام دقائقها المنكية ، فإن العيان شاهد لنفسه ،...، وليأمر من أُلجئ إلى معالجة مرض لا يعرفه بمتابعة من هو أوفق منه بالتقديم ، ومراجعة من هو أعلم منه به ، فإن الحوادث قد تختلف" (٢) .

وتشير بعض الرسائل الديوانية إلى فساد عدد من الموظفين ، وبخاصة المفتشون الذين تلمسند إليهم وظيفة مراقبة المعاملات من بيع وشراء ، وتحصيل حقوق الدولة من الضمان وأصحاب الإقطاعات ، كما تشير إلى تعدي بعض هؤلاء على حقوق الناس وأموالهم ، ومن ذلك ما جاء في توقيع وصية المولى : "فليضبط الأمور ضبطاً مستوعباً ،...، إذ الضممان لا ينتظر لهم نظرة إلى ميسرة ، فإنهم سوس المعاملات ، وكواسر الجهات ، ومنهم يحفظ أو يضاع ، وبهم يترقى أو ينحط الارتفاع ، وجهات المقطعين الواجب له أن يجعل عليها واقية باقية ، ولتحم لهم حتى لا يتناول إلى ذروتها امتداد الأيدي المختزلة ، ولاخطا العدوان البراقية ، وليصرف وجهه بحفظة إلى مراقبة من في باب الشد من مقدمين ، ومن رسل يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويبيعون الاجل بالعاجل ، ويخيفون العام والخاص ، وكل منهم يروم الغناء وهو رقاص" (٣) .

وتدل بعض رسائل التولية والتعيين على أن الوظائف كانت تتوارث أحياناً ،

(١) صبح الاعشى ١١ : ٣٧٤ ، وانظر : ٣٧٦ .

(٢) نفسه ١١ : ٣٧٦ - ٣٧٧ .

(٣) نفسه ١٢ : ٣٥ ، وانظر في فساد القضاة ١٢ : ٤٢ ، ٤٤ .

بحيث تؤمن الوظيفة إلى الولد بعد أبيه ، أو إلى الأخ بعد أخيه (١) ؛ ولذلك كانت بعض الأسر تشتهر بتعاقب أفرادها في وظيفة معينة مثل تعاقب أبناء عبد الظاهر ، وأبناء فضل الله العمري ، وأبناء الشهاب محمود الحلبي في العمل بديوان الإنشاء (٢) .

ومن أهم الرسائل الديوانية التي تكشف عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية في عصر المماليك ، وتبين موقف الدولة من المجتمع والرعية ، مراسيم المسامحات وإلغاء الضرائب ، ومراسيم إبطال المفاسد ، ومراسيم إلزام أهل الذمة بالشروط العمرية (٣) .

يتضح من خلال مراسيم المسامحات سعي بعض السلاطين إلى التخفيف من أعباء الحياة عن الرعية في الظروف القاسية مثل الجذب أو انتشار الأوبئة ، وقد حفظ القلقشندي عدة مراسيم منها كتبت في عهد الناصر محمد بن قلاوون (٤) ، وقد عُرف عنه وقوفه إلى جانب العامة وحبهم له ، حتى إنه ألغى خمساً وعشرين ضريبة كانت مقررّة قبل عهده وهي أثنائه (٥) .

أصدر الناصر عام ٧٠٢ هـ مرسوماً بالمسامحة بما هو مقرر على الجنود والرعايا ببلاد الشام ، وهو من إنشاء كمال الدين الزمليكاني (٦) ، وقد جرت العادة أن تُقرأ هذه المراسيم على المنابر ، فقرأ المرسوم بالجامع الأموي بدمشق .

بدأ الزمليكاني المرسوم بحمد الله ، واستمد معاني الحمد من مضمون المرسوم وغرضه قائلاً : "الحمد لله الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً ، وسمع نداء كل حي

(١) انظر إشارات إلى ذلك في رسائل في صبح الأعشى ١٢ : ٦٦ ، ٣٥٢ ، ٣٧٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ .

(٢) انظر الأدب في العصر المملوكي ٢ : ٤٥ - ٨٧ .

(٣) الشروط التي حدد بها عمر بن الخطاب معالم حياة أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، انظر أحكام أهل الذمة ، ابن قيم الجوزية ، تحقيق د. صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٣م ٢ : ٦٥٧ .

(٤) انظر صبح الأعشى ١٣ : ٢٤ - ٣٩ .

(٥) السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده ، د. حياة ناصر الحجي ، مكتبة الفلاح ، الكويت ١٩٨٣م : ٣٥ - ٣٦ .

(٦) محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري ، فقيه ، انتهت إليه رئاسة الشافعية في عصره ، كتب في ديوان الإنشاء بدمشق ومصر ، وولي قضاء حلب ، توفي عام ٧٢٧ هـ (انظر : الاعلام ٦ : ٢٨٤) .

رأفةً وحلماء ، وخص أيامنا الزاهرة بالإحسان وأنجح فيها من عدل وخاب من حمل ظلماً ، وزان دولتنا بالعفو والتجاوز فهي تعتدّ المسامحة بالأموال الجسيمة غنماً إذا اعتدتّها الدول غرماً" (١) .

ثم كرر الحمد ورحمة الله لعباده وتخفيفه عنهم ، وصلى على رسوله الذي سن الرأفة بعباد الله ، وحث على الإحسان إلى المعسرین منهم ، وذكر ما كان من أمر الصحابة في الحنو على المسلمين ، وكل ذلك لا يخرج عن سياق المرسوم .

وقد ركز الكاتب على قيام الناصر بأمر رعيته ، وإحسانه إليهم كلما سنحت لذلك فرصة ، وتحمله لأعباء الجهاد في سبيل الله ، وسعيه لتحقيق الأمن والطمأنينة لمجتمعه بالعفو والمسامحة ، وحرصه على رعاية أحوال الناس والنظر في مصالحهم . قال : "رأينا أن نفسح لهم مجال الدعة والسكون ،... وأن نشفع العدل فيهم كما أمر الله تعالى بالإحسان إليهم ، ونضع عنهم بوضع هذه الأثقال إصرهم والاضلال التي كانت عليهم ، وأن نوفر على عمارة البلاد همهم ، ونبرئ من تبعات هذه الأموال اللازمة لهم ذممهم ، ونريح من ذلك أسرارهم ، ونطلق من ربقة الطلب المستمر إصارهم ، ونسامحهم بالأموال التي أهملوها وهي كالأعمال محسوبة عليهم ، ونعفيهم من الطلب بالبواقي التي نسوها كالأجال وهي مقدمة بين يديهم ، لتكون بشرهم بالنصر كاملة ، ومسرتهم بالأمن من كل سبيل شاملة" (٢) .

وبعد تعداد الأموال والغلل التي صدر المرسوم بالمسامحة بها ، حاول الكاتب أن يدخل إلى نفوس الناس فيحقق لسلطانه التأييد ، ويجعلهم يؤازرونه ، وبخاصة أن هذه الرسالة كتبت بعد انتصاره على المغول عام ٧٠٢ هـ ، وكان الناصر وقتذاك صغيراً يتحكم في دولته كبار الأمراء - كما تقدم في الحياة السياسية - قال ابن الزمكاني : "فليتلقوا هذه النعمة بباع شكرها المديد ، ويستقبلوا هذه النعمة بحمد الله تعالى فإن الحمد يستدعي المزيد ،... وليتوفروا على رفع الادعية الصالحة لآيامنا الزاهرة ، ويتنيموا بما شملهم من الأمن والمن في دولتنا

(١) مبح الأعشى ١٣ : ٢٩ .

(٢) نفسه ١٣ : ٣٠ .

القاهرة ، فقد تصدقنا بهذه البواقي التي أبقت لنا أجرها وهي اكمل ما يثقتنى ،
وخضت أشتال رعايانا وذلك أجمل ما به يثقتنى" (١) .

أما مراسيم إبطال المفاسد فتشير إلى شدة بعض السلاطين والامراء على مخالفة
أحكام الشريعة ، وقسوتهم في معاملة المفسدين ، ونهوضهم بواجب مكافحة الفساد ،
وقد اشتهر ذلك عن الظاهر بيبرس ومحمد بن قلاوون (٢) ، كما تدل هذه المراسيم على
انتشار الفساد في بعض الفترات في العصر المملوكي (٣) وقد ساعد على ذلك فساد بعض
النواب والولاة (٤) ، وضعف السلاطين أحياناً (٥) . ذكر ابن حجر العسقلاني أنه
كان في بعض نواحي مصر حارات للمغاني "يُعمل فيها من الفساد جهراً" ما يقبح
ذكره (٦) .

أمدر بيبرس عام ٦٦٧ هـ مرسوماً يقضي "بإراقة الخمر ، وتبديل المفسدات ،
والخواري في البلاد كلها ، فنهبت الخواري ، وسلبن جميع ما كان معهن حتى
يتزوجن" (٧) ، واتبع ذلك بمرسوم آخر يأمر فيه بإبطال الحشيش أنشأه محيي الدين
بن عبد الظاهر .

ويُفهم من المرسوم الأخير أن استعمال الحشيشة كان مستشرياً حتى إنهم
تظاهروا به في المساجد ، ولذلك أمر بيبرس بحرقها ، وتاديب من يتعاطاها ويتاجر
بها ، ويبدو أن هذين المرسومين كانا خطوتين من خطة إصلاح شاملة ، قال محيي
الدين بأن استعمال الحشيشة "فشا في كثير من الناس ، وعُرف في عيونهم ما يُعرف
من الاحمرار في الكاس ، وصاروا كأنهم خشب مسندة" سكرًا ، وإذا مشوا يقدمون
لفساد أذهانهم رجلاً ويؤخرون أخرى ، ونحن نأمر بأن تجتث أصولها وتقتلع ، ويؤدب

-
- (١) صبح الاعشى ١٣ : ٣١ .
(٢) انظر البداية والنهاية ١٣ : ٢٩٥ ، السلوك ٢ : ١٧٦ ، ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ٣٨٧ ، ٥٣٤ ،
النجوم الزاهرة ٩ : ٧٣ ، ١٧٤ ، الدرر الكامنة ١ : ٤١٩ .
(٣) انظر السلوك ٢ : ١٥١ ، ٦٨٩ ، النجوم الزاهرة ٩ : ٤٦ ، ١٠ ، ١٢٢ ، ١٢٨ -
١٣٠ ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ابن إياس ، تحقيق محمد مصطفى ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤م ١ : ١٨٤ .
(٤) انظر السلوك ٢ : ٦٤٩ ، النجوم الزاهرة ١١ : ٢١١ ، معيد النعم : ٥١ ، ٧٢ .
(٥) انظر السلوك ٢ : ٧٠٣ .
(٦) إنباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق د. حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٩م ، ١ : ١٢٧ .
(٧) البداية والنهاية ١٣ : ٢٩٥ .

غارسها حتى يحصد الندامة بما زرع ، وتظهر منها المساجد والجوامع ، ويشهر مستعملها في المحافل والمجامع" (١) .

كما يبدو أن الناصر محمد^١ بن قلاوون بدأ سلسلة من الإصلاحات بعد عودته إلى الحكم عام ٧٠٩هـ ، سعيًا منه لكسب تأييد الناس والجند ، فقد أصدر عام ٧١٧هـ مرسومًا يقضي بإبطال المفاصد في طرابلس ونواحيها ، وكانت فيها حانة اشتهر أمرها ، ويشير المرسوم إلى أن حركة الإصلاح التي بدأها الناصر بدأت بمصر ثم نشرها في بلاد الشام . قال : "استقصينا ذلك في ممالكنا الشريفة مملكة مملكة ، واستطردنا في إبطال كل فاحشة موبقة مهلكة ، فعفينا من ذلك في الديار المصرية ما شاع خبره ، وظهر بين الأنعام أثره ، وطبقت بحاسنه الافاق ، ولهجت به السنة الدعاة والرفاق ،...، ثم بثشنا ذلك في سائر الممالك الشامية المحروسة ، وجنبنا ثمرات النمر من شجرات العدل التي هي بيد يقظتنا مغروسة" (٢) .

وفي المرسوم وصف^٢ لما كان عليه الحال من المجاهرة بالمنكر في طرابلس ، وارتكاب المعاصي في حانتها ، والمتاجرة بالخمر ، ويبدو أن ذلك كان مقراء قبيل الناصر ، أو من قبيل نائبيه ، وحجة من أقصره ما يدفعه صاحب الحانة لخزينة الدولة من ضرائب ، فأمر الناصر بإبطالها . قال يصف الحانة والفساد فيها : "ومما انهي إلينا أن بها حانة عبيتر عنها بالافراج قد تطاير شررها ، وتفاقم ضررها ، وجوهر فيها بالمعاصي ،...، وغدت لأهل الأهوية مجمعا ، ولذوي الفساد مربعا ومرتعا ، يتظاهر فيها بما أمر بستره من القاذورات ، ويؤتى بما يجب تجنبه من المحذورات" . ثم أمر الناصر بأن يبلغى ما كان مقراء على تلك الحانة من ضرائب وإن تغلق ويعفى أثرها . قال : "فلتعتد مراسنا الشريفة ولا يعُتدل عن شيء منها ، ولتجتر المملكة الطرابلسية مجرى بقية الممالك المحروسة في عدم التظاهر بالمنكرات ، وتعفية آثار الفواحش" (٣) .

(١) مطلع الفوائد ومجمع الفرائد ، ابن نباتة المصري ، تحقيق د. عمر باشا ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٧٢م : ٤٧٢ ، ثمرات الأوراق في المحاضرات ، ابن حجة الحموي ، تقديم د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣م : ٢٣٤ ، وانظر الروض الزاهر : ٢٢٨ .
(٢) صبح الاعشى ١٣ : ٣٢ - ٣٣ .
(٣) نفسه ١٣ : ٣٥ - ٣٦ .

ومن هذه المراسيم مرسوم أصدره نائب طرابلس إلى نائب حصن الأكراد (١) عام ٧٦٥ هـ يأمره فيه بإبطال ما في الحصن من مفاسد كانت قد استشرت ، كالمجاهرة بالخمور ، وبناء الحانات ، وتعاطي الحشيش ، والزنا ، ولعب القمار ، وأمره بملاحقة المتاجرين ، والمتعاطين ، وهدم الحانة ، ومُعاقبة كل بما يراه الشرع فيه (٢) .

وأما المراسيم التي أصدرها المماليك لإلزام أهل الذمة بالشروط العمرية فقد حفظ القلقشندي اثنين منها ، صدر أحدهما عام ٧٥٥ هـ ، وصدر الثاني عام ٧٦٥ هـ عن نائب طرابلس قرين الأمر بإبطال المفاسد في حصن الأكراد المتقدم ذكره آنفاً ، وهذا يخالف ما ذكره القلقشندي من أن آخر مرسوم صدر بذلك هو مرسوم الملك الصالح (٣) صالح بن الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٥٥ هـ (٤) ، وتجدر الإشارة إلى أن ابن كثير ذكر مدور مرسوم بذلك عام ٧٦٧ هـ (٥) .

وقد جرت العادة في دولة المماليك أن يعين السلطان رؤساء لطوائف أهل الذمة ، ويوصى المعيّنون منهم بإلزام أتباعهم بالطاعة والخضوع للدولة ، والاعتناء بأمورهم الخاصة دون التعرض لأحد من المسلمين ، أو المشاركة في الأحداث السياسية ، إذ سُمح لهم بمزاولة شعائرهم ، وبالاكتكام إلى علمائهم فيما يخص أمور دينهم (٦) .

-
- (١) قلعة مقابل حمص من غربيها على الجبل المتمثل بجبل لبنان ، كانت محل النياحة ومقر العسكر منذ حررها بيبرس عام ٦٦٩ هـ (انظر معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، طبعة دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٨٤م ، ٢ : ٢٦٤ ، صبح الأعشى ٤ : ١٤٤) ، تبعد عن حمص حوالي ٦٠ كيلومتراً ، وما زالت قلعة الحصن ماثلة إلى الآن ، وهي موقع أثري سياحي تابع لمحافظة حمص في سوريا (المعالم الأثرية في البلاد العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الشركة المصرية للطباعة ، القاهرة ١٩٧٢م ، ٢ : ٢٩٠ - ٢٩٢) .
 - (٢) صبح الأعشى ١٣ : ٢١ ، وانظر ٢٢ ، ٢٣ ، وقد اشتهر عن بعض النواب شدتهم على أهل المنكرات ، انظر السلوك ٢ : ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٥١٠ - ٥١١ ، النجوم الزاهرة ٩ : ١٥٢ ، بدائع الزهور ١ : ١٧١ - ١٧٢ .
 - (٣) تولى السلطنة عام ٧٥٢ هـ وظل حتى أواخر عام ٧٥٥ هـ ، ثم عُزل وسجن بالقلعة حتى مات عام ٧٦١ هـ (الجوهر الثمين ٢ : ١٩٩ - ٢٠٦) .
 - (٤) مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، القلقشندي ، تحقيق عبد الستار فراج ، وزارة الإرشاد والإنباء ، الكويت ١٩٦٤م ، ٢ : ١٥٧ .
 - (٥) البداية والنهاية ١٤ : ٣٦١ .
 - (٦) انظر رسائل تولية من ذلك في تشريف الأيام والعصور : ٢١٦ - ٢٢٠ ، ووصايا للمعنيين منهم في التعريف بالمصطلح الشريف : ١٨١ - ١٨٤ .

كما وقفت السلطة لدفع أذى العامة عنهم في أحيان كثيرة (١) ، وقد أصدر الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٠ هـ مرسوماً يقضي بإحسان معاملته رهبان دير القديسة كاترين بعد تقدمهم بشكوى ضد بعد العاملين في وظائف الدولة الذين اعتدوا على ممتلكاتهم الوقفية ، فأمر الناصر أن يمنع "من يتعرض إليهم بأذية في نخلهم وحيازتهم ، وكرومهم ، وزروعهم ، وأسبابهم ، وغلالهم" ، "ولا يمنع فلاحهم ولقائطوهم من العبور إلى نخلهم متى أرادوا ، ومهما سرق لهم أو غنم فليخلص لهم" (٢) .

لكن العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة في مجتمع المماليك كانت محكومة بعدة عوامل ، أهمها الصراع الدامي بين المسلمين والمسيحيين ، كما ارتكب بعض النصارى جرائم شنيعة بحق المسلمين أحياناً ، حيث أهانوهم وبطشوا بهم عندما دخل المغول بلاد الشام عام ٦٥٨ هـ (٣) ، وشارك بعضهم في حرق بعض المساجد والبيوت (٤) وتناول بعض أغنيائهم على بعض المسلمين في الطرقات وأذلّوهم (٥) ، وساعدوا على توفير بعض المفاسد وإشاعتها ، واستغلوا كنائسهم أحياناً لتصنيع الخمور والمتاجرة بها (٦) ، أما اليهود فقد سرق بعض الكتاب منهم في الدواوين أمثالاً احتيلاً (٧) ، وبذلك كان أمراء طبيعياً أن تقسو الدولة عليهم أحياناً .

ويبدو أن صدور مراسيم إلزامهم بالشروط العمرية كانت تابعة لسلوكهم في المجتمع ، إذ كانت تصدر في فترات متباعدة ، وبديل المرسوم الذي أصدره الصالح عام ٧٥٥ هـ على أن المرسوم الذي قد تقدمه كتب في عهد أبيه الناصر عام ٧٧٠ هـ (٨) .

-
- (١) انظر السلوك ٢ : ٥٩٩ ، الخطط ٢ : ٦٢٢ ، النجوم الزاهرة ١٠ : ٥٦ ، بدائع الزهور ١ : ١٧٨ ، الدرر الكامنة ٢ : ٢٧٦ .
 - (٢) وثيقة رقم (٣٣) من وثائق دير القديسة كاترين ، نقلها عن : السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده : ٧٨-٨٠ .
 - (٣) انظر كنز الدرر ٨ : ٥٢ ، الجواهر الثمين ٢ : ٦٠ ، السلوك ١ : ٤٢٥ ، النجوم الزاهرة ٧ : ٨٠ - ٨١ .
 - (٤) انظر البداية والنهاية ١٣ : ٢٨٤ ، الجواهر الثمين ٢ : ٧٣ ، السلوك ١ : ٥٣٥ ، النجوم الزاهرة ٩ : ٦٨ ، بدائع الزهور ١ : ٣٢٤ - ٣٢٥ .
 - (٥) انظر السلوك ٢ : ٩٢١ .
 - (٦) انظر الروض الزاهر : ٣١٢ - ٣١٣ ، ٣٨٠ ، البداية والنهاية ١٤ : ٣٦١ .
 - (٧) انظر كنز الدرر ٩ : ٤٤ .
 - (٨) انظر صبح الأعشى ١٣ : ٣٧٧ ، ٣٨٦ .

استند الملك الصالح في مرسومه إلى أسس دينية ، وبين أنه إنما ينفذ ما أقره الشرع من أحكام في شأنهم ، وما عهد به إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فعليهم أن يلتزموا بما ألزمهم به الدين الإسلامي ، ولهم من المسلمين أن يحقنوا دماءهم ما كفوا أيديهم عن الأذى ، وحمايتهم من الاعتداء عليهم ، فإن لم يلتزموا ، نقض عهدهم عليهم (١) .

وتضمن المرسوم عرضاً تاريخياً لأوضاع أهل الذمة في الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب ، وما شرطه عليهم ، وأن الحال استمر على ذلك في الدول جميعها ، ثم ما كان من أمر الناصر لهم بأن يلتزموا بتلك الشروط عام ٧٠٠ هـ .

كما بين الملك الصالح في المرسوم الأسباب الموجبة لإصداره ، فذكر أنهم تناولوا على المسلمين ، واستكبروا عليهم فتزينوا ، وخرجوا عما حدد لهم من لباس حتى أصبحوا لا يميزون من المسلمين ، وسعوا في الأرض بالإفساد ، وعاندوا وسدروا في غيهم ، ولأجل أن يكون الأمر مشروعاً استشار الصالح الفقهاء والقضاة . قال : « فاستفتينا في أمرهم المجالس العالية حكام الشريعة المطهرة ، واقتدينا بأقوال مذهبهم المحررة ، التي لنا بهديها إلى إصابة الصواب تبصرة ، وعقدنا لهم مجلساً بدار عدلنا الشريف ، والزمناهم أحكام أهل الذمة التي بالتزام أوائلهم لها جرى عليهم حكم هذا التكليف » (٢) .

ويعلم المرسوم بحياة أهل الذمة في كثير من جوانبها ، من حيث كنائسهم ، إذ منعوا من بناء جديد ، أو تجديد قديم ، ولا يمنعون المسلمين من نزولها ، ومن حيث علاقتهم بأعداء المسلمين ، فقد حظروا عليهم أن يطلعوا أحداً على عورات المسلمين أو يؤووا الجواسيس ، وفي علاقتهم بالمسلمين منعوا من أن يتشبهوا بهم في الملبس والسكن والأسماء والألقاب ، أو تعلم القرآن ، أو الركوب والمير في وسط الطريق ، وأمروا بأن لا يتسلحوا أو ينقشوا على خواتمهم بالعربية ، وأن يجزوا مقادير رؤوسهم ، ولا يستخدموا مسلماً ، أو يجاوروهم بموتاهم ، ولا يشترخوا

(١) صبح الاعشى ١٣ : ٣٨٠ .

(٢) نفسه ١٣ : ٣٨١ - ٣٨٢ .

رقيقاً مسلماً ، ولا من كان منشؤه على الإسلام ، وأن لا يهودوا أو ينصروا رقيقاً ، وأن يظهرُوا في أعناقهم علامات تميزهم عند دخولهم الحمام ، أما نساؤهم فيُمنعن من دخول الحمام مع المسلمات ، بل لهن حمامات خاصة ، وتلبس البالغة منهن خفين : أحدهما أبيض والآخر أسود تمييزاً لها ، كما أمرُوا بأن لا يظهرُوا كفرةً ، أو يضربوا بالنواقيس في كنائسهم إلا ضرباً خفيفاً ، ولا يرفعوا أصواتهم في صلواتهم ، أو على موتاهم .

وكان مما أثبتته المرسوم أن مواريتهم تكون حسب نظام المواريث في الإسلام ، ويجب على الورثة أن يثبتوا ما يستحقونه من الميراث وما تبقى يعود لخزينة الدولة ، فإن مات منهم من لا ورثة له ، عاد ماله إلى بيت المال استناداً إلى حكم الشرع .

وأمر الملك الصالح بأن لا يُستخدم واحد من أهل الذمة في دواوين الدولة كلها ، فإذا عمل أحدهم وجب أن لا يكون له تأمّر على أحد من المسلمين .

ثم أصدر أمره إلى الولاة والنواب والمتصرفين في شؤون الحكم كافة بتطبيق ما في المرسوم ، وأعطاهم صلاحية معاقبة من يتجاوزوه . قال : "فليعتمد حكم هذا المرسوم الذي هو بالعدل والإحسان موسوم ، وليُخذل في صفائف المشوبات ليستقر ويستمر ويدوم ، وليُشع ذكره في الممالك ، وليُذع أمره في المسالك ، وعلى حكام المسلمين - أيدهم الله تعالى - وقضاتهم ، ومتصرفيهم وولاتهم ، أن يوقعوا بمن تعدى هذه الحدود ، من النصاري واليهود ، ويردعوا بسيف الشرع كل جهول من أهل الجود ، ويحلوا العذاب بمن حمله العقوق على حل العقود" (١) .

واظطلعت الرسائل الديوانية بدورٍ مهمٍ في التعبير عن مظاهر البهجة والفرح في المناسبات السعيدة مثل وفاء النيل .

وكان النيل من الموضوعات البارزة التي ترددت في إنتاج المنشئين، وقد تناولها كل منهم بحسب ما تجود به قريحته ، وبحسب المناسبة التي يصفه فيها ،

(١) صبح الاعشى ١٣ : ٣٨٤ - ٣٨٦ ، وانظر ١٢ : ٢٣ ، ٣٠٧ .

فعلى الرغم من أن الجميع كانوا يترقبون وفاءه ، إلا أن ارتفاعه كان يزيد عن الحد أحياناً ؛ فيفيض محدثاً دماراً في المزروعات والبيوت والطرق كما حدث عام ٧٨٤ هـ (١) .

وقد دأب المنشئون على وصفه حين وفائه ، ودأب ديوان الإنشاء على مكاتبة الجهات المختلفة بشارة بذلك ، وأفاضوا في "وصف بركته ويثمنه ، وطيب أيامه وزمانه ، وما تفيد به البلاد من مائه من من خصب ويثنع ، ونبات وزرع ، ويصفون مجراه وماءه ووفاءه" (٢) ، وقد خص القلقشندي مصر بهذه المكاتبات (٣) ، وعلّة ذلك واضحة جليّة ؛ إذ إن له أثره الحيوي في الحياة بجميع جوانبها في مصر ، وحتى في الشام .

كُتبت البشارات بوفاء النيل في جو نفسي ممتلئ به ؛ "كُتبت والنفس والعقل والحواس المصرية جميعاً مشغولة بالنيل بعد حساب وتقدير وشروء... بين الخوف والرجاء - قر وهدأ وابتهج فاستعلن فرحه" فيها (٤) . ولذلك لانستغرب تلك الصور الحية له في رسائلهم فوفاؤه من مظاهر الحياة ، وارتفاع الماء فيه إحساس منهم بالنيل في عروقهم . وتكاد تلمس في رسائلهم شيئاً من التقديس له ، ويبدو أن ارتباط ظروف معيشتهم به أدى إلى تولد رابط نفسي قوي عميق بينهم وبينه ، وتري خوفهم ورجاءهم وفرحتهم جنباً إلى جنب في بشاراتهم بوفائه ، يقول ابن نُبّاتة المصري من رسالة : "وطالما خيمناه بدعاء فكانت الراحة به كمقياسه ذات بسطة ، وكنازل الخصب بقدمه المبارك ذات غبطة ، ومنحناه بولاء وشناء... ، وكم ورد إلى البلاد ضيفاً ومعه القرى ، وكم أتى مرسلات بمعجز آيات الخصب إلى أهل القرى ، فهو جواد قد خلّج الرمن ، ساهر في مصالح الخلق وقد ملاّ الأمن أجفانهم بالوسن... ، وبلغ وبلغ بتحرير التيار سلامه ، وبات الناس بوفائه من حذار الغلاء تحت الستر والسلامة" (٥) .

(١) انظر صبح الأعشى ١٤ : ٢٦٨ .

(٢) عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٤٤ .

(٣) صبح الأعشى ٨ : ٣٢٢ .

(٤) النيل في الأدب المصري ، د. نعمات أحمد فؤاد ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م :

(٥) صبح الأعشى ١٤ : ٢٦٧ .

ويلاحظ الدارس في هذه النصوص اختفاء شخص الحاكم ، وما يتبعه من من تسبب كاذب ، ومدح منافع ، وبروز النيل وحده مصدر خير ونعمة وعطاء (١) ، بوفائه تشهد الأرض جنازة الجذب ، وبه تزدان في أبهى حللها . ويبدو أن عادة الطراعة بإلقاء فتاة جميلة عذراء فيه كل عام ظلت عالقة بأذهان المنشئين فظهرت في رسائلهم ، ومن ذلك قول محي الدين بن عبد الظاهر : "فحسن في مئسرى (٢) مسراه ، وجعل على اسم الله مجراه ، فكم ميت جد* بر عليه التراب في تلك الجسور قد هيل ، وكم عروس قرية يبني بها ، فكان ، كما قيل ، في مئسرى عرس النيل" (٣) .

وتصور هذه الرسائل مظاهر الحياة التي تبدأ بالظهور ، ومخايل الجمال والخضرة ، فالأرض عاشقة ترقب وصال حبيبها ، والجسور تعانقه بشوق ، ويتحرق الشرى للشمس ، وقد أبدع المنشئون في توظيف ما يتعلق بالنيل من مقياسه ، ومقادير زيادته في رسائلهم ، فجاءت منسجمة مع عميم خيره ، وعظيم بركته . قال ابن نباتة : "وأما النيل ، فإنه ورد والأرض أعطش ما تكون لقربه ، وأشوق ما تثرى لزيارة صبه ، وقد امتدت أيدي الجسور لتعنيقه ، واستعدت شفاة الجروف اللعس لارتشاف ريقه ، فعمت منافعه ، وأحكمت في الندى شرائعه ، وعظمت أياديه على الخلق وإن قيل أصابعه ، فهنيئاً لأهل مصر ذلك العيش النضر ، وبركة ذلك الماء فإنه ماء الحياة وذلك السفح فإنه الخضر" (٤) .

ومن البشارات الرفيعة بوفاء النيل تلك التي شبه فيها النيل وماؤه بالجيش اللجب ، بيد أنه جيش خير وعطاء ، فكانه حين وفائه "نشر على الخافقين لواء خصبه ، وأتى بعسكر ريته لقتل المحل وجده ، وبينما هو في القاع إذ بلغ بإذن ربه ، فجعل من الذهب لباسه ، وعطر بالشذا أنفاسه ، ولم يترك خلال قطرة إلا جاءه فجاسه" (٥) .

(١) النيل في الأدب المصري : ١٩٧ .
(٢) اسم لشهر آب بالقبطية (قوانين الدواوين ، ابن مماتي ، تحقيق عزيز سوريال ، مطبعة مصر ١٩٤٣م : ٢٥٦) .
(٣) مطلع الفوائد ومجمع الفرائد : ٤٦٧ .
(٤) مطلع الفوائد ومجمع الفرائد : ٤٧٨ .
(٥) صبح الأعشى ٨ : ٣٣٤ .

وتجدر الإشارة إلى أن المكاتبات بوفاء النيل ظلت مستمرة طوال العصر المملوكي ، وذكر القلقشندي أنه كان يكتب "في كل سنة عن الابواب السلطانية إلى نواب السلطنة بالممالك الشامية عند وفاء النيل" ، وتسيّر البريدية بتلك الرسائل (١) .

(١) صبح الاعشى ٨ : ٣٣٣ .

الرسائل الإخوانية

جعل الشهاب الحلبي لكتابها حرية تامة ؛ إذ قال : "أما الكتب الإخوانية ، والكتب التي تشتمل رياضة للخاطر فيما يقل وقوعه ،... فإن الكاتب في ذلك الأمر مطلق العنان ، مثلى بينه وبين قوته فيه أو ضعفه" (١) . ولذلك كان المجال فيها لقريحة الكاتب رحباً "على عكس الكتب التي لها أمثلة ورسوم لا تتغير ولا تتجاوز" (٢) .

والطريف في الرسائل الإخوانية في هذا العصر أنها تعرض جانباً من الحياة مختلف الملامح عما تقدمه الديوانيات (٣) ؛ إذ تكشف عن اهتمامات الكتاب الخاصة ، ورؤاهم وأحلامهم ، وخلجات نفوسهم ، واضطرابات مشاعرهم ، وتصور علاقات المودة المادقة حيناً ، والجفاء والعتاب حيناً آخر . لكنه ، على الرغم من ذلك ، لا يمكن ادعاء أن صدق العاطفة ظاهر في كل رسالة منها ، وأن كلا منها صدرت عن منشأها نتيجة انفعال عاطفي ؛ فتعلق بالوجدان (٤) كما قال محمود رزق سليم ، بل على العكس من ذلك ، فبعضها يوحى بالتكلف ، وبأن منشأ الرسالة كابد مشقة فكرية حتى استقامت له ، وبخامة إذا ما نظرنا في ذلك "الإسراف في عبارات المجاملة ، ونعوت التعظيم والتكريم للمرسل إليه ، والتواضع الشديد الذي قد تنظر منه أذواقنا" (٥) كما يرى الدكتور محمد زغلول سلام .

وقد درج دارسو أدب هذا العصر على أن الكتابة فيه اقتضت على الشعر ميادينه ، وصار المنشئون يدبجون الرسائل في أغراض شعرية أصلاً (٦) ، واعتقد أن هذا التقسيم مخالف للحقيقة ؛ ذلك لأن ما يصلح للشعر قد يصلح للنثر ، ولا يمكن

(١) حسن التوصل : ٣٨٢ - ٣٨٣ ، وانظر : نفسه : ٣٩٢ .

(٢) صبح الاعشى ٩ : ٣ .

(٣) الأصول الأدبية في صبح الاعشى ، د. مصطفى الشكعة ، دار الأحد ، بيروت ١٩٧٦م : ١٧٩ .

(٤) انظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٥٨ ، الأدب العربي في العصر المملوكي : ١١١ ، الأدب في بلاد الشام ، د. عمر باشا ، دار الفكر الحديث ، دمشق ١٩٦٧م : ٧٥١ .

(٥) الأدب في العصر المملوكي ٢ : ١٤ - ١٥ .

(٦) انظر عصر السلاطين المماليك ٥ : ١٥٨ ، الأدب العربي في العصر المملوكي : ١١١ ، الأدب في العصر المملوكي ٢ : ١٥ ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : ٣١٣ ، الأصول الأدبية في صبح الاعشى : ١٧٦ .

أن نخس الشعر بموضوع أو معنى ونزعم أنه غير صالح للنثر ، وقد يكون العذر لهؤلاء الدارسين في أن النثر لم يبلغ في أي عصر من العصور السابقة شأو الشعر ، وظل ما يلقا من شعر في المناسبة أرفع من غيره .

وقد تنوعت موضوعات الرسائل الإخوانية ، فكان منها التهاني ، والتعازي ، والشكر ، والتشوق والاستدعاء ، والشكوى والعتاب ، والاعتذار ، والهدايا ، والشطاعات .

التهاني :

جعلها القلقشندي أحد عشر ضرباً هي : التهنئة بالولاية ، وبكرامة السلطان ، والعودة من الحج ، والقدوم من السفر ، والتهنئة بالمواسم والأعياد ، والزواج ، والأولاد ، والشفاء من المرض ، وقرب المزار ، ونزول المنازل المستجدة ، وأضاف إليها بعضاً من التهاني النادرة ، مثل : تهنئة الذمّيّ بإسلامه ، والتهنئة بالمرّف عن الولاية ، والتهنئة بالمرض ، وبزواج الأئم . وقد أشار قبل هذا التقسيم إلى أن أغراضها متشعبة لا تقف عند حد^(١) .

ولم تخل رسائل التهاني من مديح للمكاتب ، وبيان فضائله ومآثره^(٢) ، لكنه مديح لا يخلو من نفاق وتزلف أحياناً ، وبخاصة في تلك الرسائل الموجهة إلى السلطان أو أحد أعيان الدولة من الموظفين في بعض المناسبات ، ويظهر ذلك من الفاظ العبودية التي يصف الكاتب بها نفسه ، فمن تهنئة لأمير بولاية إمرة جندار^(٣) من إنشاء ابن نباتة قوله : "ويثني أنه بلغه ما أفاضته الصدقات الشريفة على مولانا من المبرات ، وما جددت له من الممرات ، ... ، فأخذ المملوك حظه من هذه البشري ، وأوجب على نفسه السرح وسجد لله شكراً" ، وود لو حضر يشافه بهذا الهناء الشامل ، ومثل قائماً بين يديه بحسب التهنئة القيام الحقيقي

(١) صبح الأعشى ٩ : ٤ .

(٢) عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٥٩ .

(٣) الحارس الخاص بالسلطان ، وأمير جندار هو قائد الحرس السلطاني ، لا يأذن بالدخول عليه إلا لمن يأمن عاقبته ، وله مهام أخرى ، وهو لقب فارسي معرب معناه الأمير الممك لروح السلطان (انظر صبح الأعشى ٤ : ٢٠ ، ٥ : ٤٦١ ، وخطط المقرئ ٢ : ٢٢٢) .

الكامل" (١) .

وإذا ما خلت التهنئة من ألفاظ العبودية ، فإنها لاتخلو من المبالغة في وصف الفرح والسرور لما أصابه المكاتب من نعمة ، وإن كانت المبالغة مقبولة ، أحياناً ، يسودها ما بين الصديقين من مودة ، فإن جعل المناسبة مفرحة للجميع مما لايقبل . قال الشهاب الحلبي مهنئاً بالسلام من الاعتقال : "وتهنئيه بما جدد الله له بعد الاعتقال من الفرج والفرح ، ومن به بعد ضيق السواطر من الابتهاج والمرح ، فهذه المسرة ماء زلال برد بها الآوام ، وإنعام عام ، حمد الله عليها الخاص والعام (٢) .

وكان الغرض من وراء بعض التهاني استمناع المهنئ ، وقد يلجأ الكاتب إلى التلميح بذلك في تضاعيف رسالته ، ويوحى ذلك بأن المشاعر لم تكن صادقة فيما يصدر عنه ، وبأن المديح فيها أصبح وسيلة للتكسب ، فمن رسالة للشهاب الحلبي مهنئاً بالعيد وقت الربيع : "والعيد والربيع ضيفان ومكارم المولى جديرة بإكرام الضيف ، والتمتع بالملاذ فيهما قبل رحيلهما وقدم حر الصيف ، وأن يخصص وجه عيده ، بطولته في مغناه ووجوده ، وبما يوليه لعفاته من إنعامه وجوده" (٣) .

ومن تهنئة له بمولود ، وقد افتتحها بالشعر ، وعرض فيها بطلب المنحة قوله : (الكامل)

هنئت بالإسعاف والإسعاد ونفذ أمر في العدا بنفاد

ويقول في المولود والدعاء له : "اتمل به قدوم المسافر بل إسفار البدر ، وظهور ميمون الغرة الذي جاء لأهله بأمان من صروف الدهر ، وهو الولد العزيز الموفق النجيب ،... ، أبقاء الله تعالى ليحيا مشكوراً محموداً ، وأدام عزه وعلاه ، وأعلى نجمه وخلد شرفه وبهاه ، وضاعف سناءه وسناه ، وأرانا منه ما أرانا من السعادة في أبيه" (٤) .

(١) صبح الأعشى ٩ : ١٢ ، وانظر ٩ : ١٨ ، ٢٧-٢٨ .

(٢) نفسه ٩ : ٣٠ - ٣١ .

(٣) نفسه ٩ : ٤٦ ، وانظر ٩ : ٤٧ - ٤٨ .

(٤) نفسه ٩ : ٦٠ .

وفي التهاني بالشفاء من مرض ترى المنشئ يفتدي من كان مريضاً ، ويتمنى نزول المرض به وإثبات الأجر للمهنئ ، ويدعي بأن شفاء ملا الدنيا بهجة وأسقم حساده وأعداءه ، ويدعوه بتمام العافية ، ويحمد الله على أن سكتن الأوجاع وأذهب الآلام ، فمن تهنئة لابن نباتة إلى أحد أصدقائه بالشفاء قوله : فيالها مسرة شملت ، ومبررة كملت ، وتهنئة جمعت قلوب الأوداء وجملت ، وأعضاء فدتها عيون المها فنقلت عنها صفات السقام وحملت ، وعافية حولت إلى قلوب الأعداء المرض ،... ، والله تعالى يسبغ عليه ظلال نعمه" (١) .

وقد أورد القلقشندي تهنئة بقرب المزار (٢) ، غير أنها إلى موضوع التشوق أقرب .

- التعازي

وقد جعلها القلقشندي في ستة (٣) أضرب ، بيد أن فني حصره لها شيئاً من الخطأ ؛ إذ قصرها على : الابن ، والبنت ، والاب ، والام ، والاخ ، والزوجة ، غير أنها قد تكون في غير هؤلاء ، كأن يعزي الصديق بصديقه (٤) ، وقد يعزي بغير من ذكر من الأقارب . وتدور رسالة التعزية حول محور واحد ، ذلك هو التسرية عن نفس المعزي ، فتتضمن إرشاده إلى الصبر ، وحثه على التسليم بأمر الله ، وتنبيهه إلى حسن الجزاء ، وغير ذلك مما يخبر عليه صبره (٥) .

وتدل هذه الرسائل على أن الكتاب أحسنوا فيها غاية الإحسان ، وبلغوا من القدرة على دفع أثر المصيبة درجة عالية ، ونهلوا في رسائلهم من معين القرآن الكريم والسنة الشريفة ، ما يستحضر الصبر ، ويخفف ما ران على القلوب من هم وحزن ، ومن ذلك رسالة لابن نباتة يعزي فيها بولد . قال فيها : "وما بقي إلا التمسك بأسباب الصبر ، والتفويض إلى من له الأمر ، والدنيا طريق والآخر دار"

(١) صبح الاعشى ٩ : ٦٩ ، وانظر تهنئة أخرى بالشفاء ٩ : ٦٨ .

(٢) نفسه ٩ : ٧١ .

(٣) نفسه ٩ : ٨٢ - ٩٢ .

(٤) عزى الشهاب محمود بصديق له توفي ، وله رسالة جوابية إلى من عزاه (انظر صبح الاعشى ٩ : ١٠٠) .

(٥) صبح الاعشى ٩ : ٨٢ .

دهليزها القبر . وللمرء من تشبته وازع ، والاجتماع بالاحبة الراحين واقع ، إن لم يصيروا إلينا ، صرنا إليهم ، وإن لم يقدموا في الدار الفانية علينا ، قدمنا في الدار الباقية عليهم ،...، والله تعالى يُدارك بالصبر الجميل قلبه ، ولا يجمع عليه فقد الثواب وفقد الاحبة" (١) .

وغير خاف أن حُسن العزاء يخفف المصيبة ، وأن مشاركة المصاب ، وإظهار التوجع لما أصابه يهونُان إحساسه بمصابه ، وأن جعل المصيبة عامة يُشعره بأنه ليس وحيداً في حزنه ، وقد أجاد الكتّاب في ذلك ، فجعلوا المصيبة مؤثرة في القلوب كلها ، حتى بان أثرها في الجمادات. يقول الشهاب الحلبي من تعزية إلى صديق له بابنه : "وينهي إلى العلم الشريف علمه بهذه المصيبة التي أصابت فؤاد كل محب فأممته ، وطرقت سمع كل ولي فأممته ، وولجت كل قلب فأحرقت صباة حزنًا ، ومرت على الصلدة فمدعتهم ولو كان حزنًا" ، ومنه في الإرشاد إلى الصبر : "وفي بقاء المولى ما يوجب التسليم والقضاء ، والشكر لله تعالى في حالتي الشدة والرخاء" (٢) .

ومن جميل ما وقفت عليه من التعازي ، رسالة لمحبي الدين بن عبد الظاهر أشخصها إلى صديق له عزاءً بولد له ، وشخص رسالته فجعلها نادرة تلبس الأسود حداداً ، جاء فيها : "وينهي أنه أرسل هذه النادرة لابسة ثياب الحداد من النقص ، شائبة الفود من الطرس ، حين أصم الناعي وإن كان أسمع ، وسلبتته الأيام سلاحه إلا تنقص المصعداء وأدمعه ، ... ، وبلغه الخبر الذي شرقت فيه بالدماء المآلي ، ووقفت النفوس على مشرف الوداع من التراقي ، وتجاغت الجنوب عن المضاجع" (٣) .

ولم تكن الحال في بعض رسائل التعازي بأصلح منها في التهاني من حيث صدق الكاتب في التعبير عن مشاعره ، بل إن بعض هذه الرسائل يبدو فيها التمنع بوضوح ، والإسراف في تصوير فداخة المصيبة وعمومها جلياً ، بحث يقليلان من أثر

(١) صبح الاعشى ٩ : ٨٤ .

(٢) نفسه ٩ : ٨٦ ، وانظر : ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ .

(٣) مطلع الفوائد ومجمع الفرائد : ٤٨٠ - ٤٨١ .

الرسالة في التخفيف عن المعزى ، ومثال هذه الرسائل تلك التي كتبها ابن الوردي (١) معزياً بوفاة القاضي شرف الدين (٢) البارزي عام ٧٣٨ هـ ، وأرسل بها إلى حفيده . قال فيها : "ويُنهي أنه بلغ المملوك وفاة الحَبير الراسخ ، بل انهداد الطود الشامخ ، وزوال الجبل البانخ ، الذي بكته السماء والأرض ، وقابلت فيه المكروه بالنذب وذلك فرض ، فشرقت أجفان المملوك بالدموع ، واحترق قلبه بين الضلوع ، وساواه في الحزن الصادر والوارد ، واجتمعت القلوب لما تمّ لمّا تمّ واحد" (٣) .

أما التعزية بالنساء ، فيبدو أنها لم تكن منتشرة إلا إن كانت المعزى بها من الأوساط الحاكمة ، ولم أقف من هذا النوع سوى على رسالة واحدة قصيرة أنشأها الشهاب الحلبي ، وأرسلها إلى أحد النواب بوفاة زوجته . جاء فيها : "لما علم مملوك المجلس السامي - أطال الله بقاءه ، وأعظم أجره وأحسن عزاءه - وفاة السيدة المرحومة - سقى الله عهداً عهداً يبطل الثرى ، وجعل الرحمة لمن نزلت به لها القرى - تالم لفقداء غاية الألم ، ووجد حرقه كستته شوبى ضىء وسقم ، وحزنًا لا يعبر عنه بعبارة بيانه ، ولا يستوعب وصفه بلسان قلمه وبناؤه" (٤) .

- رسائل الشكر -

ولا تكون هذه الرسائل ابتداءً في الأغلب الاّعم ، بل جواباً عن رسالة من أحد الأصدقاء أو الأعيان ، وإن كانت ابتداءً فتكون تعبيراً عن امتنان الكاتب لصنيع أصداء الميثاق له . وعلى ذلك فإن الأجوبة التي تكتب عن الرسائل في المناسبات الاجتماعية المختلفة تدخل في هذا الموضوع ، وينبغي للكاتب "أن يفتن" فيها ،

(١) القاضي زين الدين عمر بن مظفر بن أبي الفوارس ، كان فقيهاً وأديباً ، وأحد فضلاء العصر ، وأجاد في المنظوم والمنثور ، توفي في الطاعون عام ٧٤٩ هـ (فوات الوفيات ٣ : ١٥٧) .

(٢) القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن عبد الرحيم ، قاضي قضاة حماة وابن قاضيها ، توفي عام ٧٣٨ هـ ، وله مصنفات كثيرة في التفسير والحديث ، وحفيده المذكور هو القاضي نجم الدين عبد الرحيم بن إبراهيم (تتمة المختصر ٢ : ٤٥٣ - ٤٥٥) .

(٣) تتمة المختصر في أخبار البشر ، زين الدين عمر بن الوردي ، المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف ١٩٦٩ ، ٢ : ٤٥٥ - ٤٥٦ .

(٤) صبح الأعشى ٩ : ٩٣ .

ويقرب معانيها ، وينتحل لها من ألفاظ الشكر أنوطها بالقلوب ؛ لتستيقن نفس المتفضل أنه قد اجتنى ثمرة تفضله" (١) .

ولهذا النوع من الرسائل ارتباط وثيق بالنفاق والتملق ، وبخاصة في الشكر على الهدايا ، وقد تنبه النقاد إلى ذلك ؛ ف أشاروا إلى وجوب الاختصار فيها ، "والإتيان بالالفاظ الوجيزة الجامعة لمعاني الشكر دون مذهب الغلو" والإفراط" (٢) وبناء رسالة الشكر جواباً يعتمد على ما أرسل إلى الكاتب ابتداءً ، من : تهنئة ، أو تعزية ، أو غير ذلك ، ولا بد فيها من الثناء على المكاتب ، وشكره على اهتمامه وعنايته ، ومقابلة إحسانه بالدعاء له بما يناسب الحال : فإن كان أرسل تهنئة بالشفاء من مرض ، دُعي له بأن لا يصيبه ، وإن كان أرسل تعزية دُعي له بأن لا يجمع بعزير عليه (٣) .

وقد أفاض الكتاب في وصف رسائل أصدقائهم ، وبيان أثرها في زيادة أفراحهم ، أو التخفيف من حزنهم والمهم ، أو إشارة مكان الشوق إلى زيارتهم والجلوس معهم . كتب برهان الدين القيرواني (٤) رسالة جوابية لابن نعباتة المصري . جاء فيها في وصف رسالته : "فسبحان من أسرى بها في ليل نيقسها إلى المحل الأقمى ، وحبها بالفضل الذي لا يحصى ، وأنبت دوحها في رياض الفصاحة ، ونمق حدائقها التي لو فتح النرجس عينه في عينها لنسب إلى الوقاحة" (٥) .

والملاحظ في رسائل الشكر أن ما يلغى على المراسل من صفات يستمد من العلوم التي اشتهر بها ؛ فتكون اصطلاحات ذلك العلم وأسماء علمائه وسيلة يتوصل الكاتب بتوجيهها إلى ما يريد من صور ومعاني (٦) . يقول القيرواني من رسالته المتقدمة الذكر في مدح ابن نعباتة : "فتبارك الذي جعل في سماء دوحته لشمس

(١) صبح الأعشى ٩ : ١٨٣ .

(٢) نفسه ٩ : ١٨٤ .

(٣) انظر نفسه ٩ : ٢٥ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٩٩ ، ١٥٦ .

(٤) إبراهيم بن عبد الله بن محمد الشافعي ، اشتغل بالفقه والعربية وبرع في الأدب ، ولد عام ٧٢٦ هـ ، ودارت بينه وبين ابن نعباتة مراسلات ، وكانت وفاته عام ٧٨١ هـ (انظر الدرر الكامنة ١ : ٣٢ ، والنجوم الزاهرة ١١ : ١٩٦-٢٠٠) .

(٥) خزانة الأدب وغاية الأثر ، تقي الدين علي بن حجة الحموي ، شرح عصام شعيتو ، دار الهلال ، بيروت ١٩٨٧م ٢ : ٤٦٧ .

(٦) عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٥٩ .

بلاغته بروجاءً ، وأعلى هممه التي لا ترضى الشهب جيساداً والالهة سروجاً ، حتى أقام يراع قلمه لسوق الأدب قصبة ، وشاد من قصائده كل بيت إذا مر الحاسد ببابسه قبيل العتبة ، وسارت كالسبعة السيارة مصنفاته ، وعلت من قصره المشيد بسيئات سطورهِ شرفاته ، وفدّيت بالمباسم والقُدود ميماته وألِفاته" (١) .

وكما أفاض الكتاب في وصف الرسائل الواردة عليهم ، ومدح مؤرسلها ، أطالوا في وصف الهدايا ، وبالغوا في قيمتها على الرغم من بساطتها في أحيان كثيرة ، وهو من قبيل الإطراء لمن أهدى ، وتمهيد لمواصلة هداياه أولاً ، واعتراف بفضله وشكره عليه ثانياً . وقد جعلوا الهدايا وما يتعلق بها مجالاً يستمدون منه الفاظهم وصورهم ، واجادوا في ذلك أيما إجادة . يقول ابن نباتة في جواب شكر عن هدية طيور جارحة للمفيد : "لا زالت الجوارح شاهدة ببرّه ، والجوانح حائمة الجناح على شريف ذكره ، والمحامد من مصايد أقلامه ورماحه في السلم والحرب ، فإما بقوادم سُمّره ، وإما بمناسر حُمّره" (٢) .

ويقف المطالع في بعض هذه الرسائل على عبارات توحى بأن الكاتب قد تكلف إنشاءها ، وليست إلا من قبيل المجاملة ، ومن هذه العبارات الاعتذار عن عدم الإطالة فيها للإيجاز ، والتعلل بأن القريحة لم تجد بسبب بعد المكاتب ، وبأنه لو كان قريباً حاضراً لتداعت أمامه أسرار البيان ، وجاءته مفاتيح البلاغة والمعاني طوعاً ، وتدل مثل هذه الإشارات على أن الكاتب يرغب في إنهاء الرسالة ، وتنم عن شكلية العلاقة بينه وبين المكاتب وسطحيّتها . رد إبراهيم بن محمود الحلبي على رسالة تهنئة وصلتته من الملاح الصفدي بقوله : "وقد تقلد المملوك لمولانا هذا الإحسان ، وهو يعتذر من التقصير بشكر هذه العوارف الحسان ، فلو كان بين يدي مولانا ، لانفتح له من المعاني كل باب ، واقتبس من فوائده وفرائده ما ينظمه في سلك هذا الجواب ، وإنما بئعده عن فضائل مولانا

(١) خزائن الأدب وغاية الأرب ٢ : ٤٦٧ ، وانظر مطلع الفوائد ومجمع الفوائد : ٤٨٨ - ٤٨٩ ، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ، اليوسفي ، تحقيق أحمد حطيط ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٦م : ٢٢٨-٢٢٩ ، وصبح الأعشى ٩ : ١٨٨ .
(٢) صبح الأعشى ٩ : ١١٥ ، وانظر : ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ، وأجوبة بوصول هدية من الخيل ٩ : ١٠٦ - ١٠٩ .

أوجب له الاعتراف بتقصيره ، والتعويض بقليل اللفظ عن كثيره" (١) .

- التشوق والاستدعاء

جعل القلقشندي هذا اللون من الرسائل نوعين ، هما : التشوق ، والاستزارة ، وفصل الحديث في كل منهما على حدة (٢) ، وأخذ برأيه محمود رزق سليم (٣) ، لكن مدار الحديث فيهما واحد ، وكذلك بناء الرسالة في الحالين ؛ ذلك لأن الرسالة تشتمل على وصف لواعج الشوق، وتموير الحنين الصريح إلى المكاتب ورؤيته ومجالسته ، ويرسم الكاتب فيها " ما يضم المجلس من عليّة الإخوان ، وصفوة الخلان ، ومابه من دواعي الانس ، ومعدات اللهو والسرور ، من طعام وشراب ، ومن غلمان صبيحةٍ وجوارٍ مليحة ، وسفارة ونُدمان" (٤) .

وأكثر هذه الرسائل كانت على درجة من المدق في العواطف ؛ لأنها ما كانت لتصدر عن منشئها إلا في لحظات يحسّون فيها بحرقة البُعد عن الخلان الأوفياء ، وأتراب الصبا ، وأصحاب الفضل عليهم من شيوخ تلقّوا عنهم علمهم ، وتتلّمذوا عليهم في أدبهم ؛ ولذلك أخذ الكاتب في كتابتها "مأخذاً" من اللطافة والرقّة ، يدلّ على تمازج الأرواح ، وائتلاف القلوب" ، واستخدموا فيها أعذب الألفاظ والطف المعاني ، وغلب عليها الإيجاز تجنّباً للملق والتكلف اللذين تمجّتهما أسماع الإخوان والاصدقاء (٥) .

وترى في بعض منها مبالغةً في وصف ما يدعو الكاتب مديقه إليه ، وهي مقبولة فيما أرى ؛ ذلك لأنها تزيد لهفة المدعو إلى الحضور، وتحثه على الإسراع (٦) . والوصف فيها لا يجعلها تفضّف في رسائل الوصف ؛ لأنّه وسيلة لا غاية .

ويبدو أن معظم هذه الرسائل دار بين الكتاب من الأدباء والعلماء بسبب

-
- (١) عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٦٥ ، والنص فيه مأخوذ عن كتاب إلحان السواجع للمصفي ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية لم أقف عليه .
 - (٢) صبح الأعشى ٩ : ١٢٤ ، ١٥٢ .
 - (٣) انظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٦٦ ، ١٧٣ .
 - (٤) نفسه ٥ : ١٧٣ .
 - (٥) صبح الأعشى ٩ : ١٤٤ .
 - (٦) نفسه ٩ : ١٥٢ .

السفر والافتراق . يذكر اليوسفي أن صلاح الدين الصفدي عندما سافر من مصر إلى الشام دارت بينه وبين فتح الدين ابن سيد الناس (١) مراسلات كثيرة ، أورد بعضها في كتابه "نزهة الناظر" (٢) .

ومن أجمل ما وقفت عليه في وصف الشوق وحرقته ، والحنين واتقاده رسالة للشهاب الحلبي أرسلها إلى بعض أصحابه بلغه أنه مسافر ، أطل في تصوير تشوقه مستمد^١ معانيه من القرآن الكريم . قال فيها : "ما أمّ طفل قذفها الزمن العنيد ، في بعض البيد ، في أرض موحشة المسالك ، قليلة السالك ، قد لمع سربها ، وتوقدت هضابها ، وصرخ بومها ، ونفر ظليهما ، وحضر سمومها ، وغاب نسيمها ، فلمّا خافت على ولدها من الظم الهلاك ، أجلسته إلى جنب الكتيب هناك ، ثمّ ذهبت في طلب الماء للغلام ؛ لئلاّ يقضي عليه الآوام ، فأنتهى بها المسير ، إلى روضة وغدير ، وآثار مطيّ بوارك ، تدلّ على أن الطريق هنالك ، فعادت إلى ولدها مسرعة ، وكلّ أعضائها إليه عيون متطلّعة ، فلمّا شارفت جنب الكتيب ، رأت ولدها في فم الذيب : (طويل)

بأكثر مني حسرةً وتلهفاً وأعظم مني حرقةً وتوجعاً

وأغزر دمعاً عندما قيل لي: الذي كلفت به أضى على البعد مزماً" (٣) .

وتفويض رسائل الاستدعاء والاستزارة بالوصف ، غير أنه وصف مقتصر على "حالات الائنس ، ومجالس الذات ، ومشاهد المسرات" (٤) ، والاستدعاء قد يكون إلى مجلس خمر أو إلى احتفال ، أو إلى الحمّام ، كما في رسالة محيي الدين بن عبد الظاهر في استدعاء أحد أصحابه قائلاً : "هل لك - أطل الله بقاءك إطالةً تكرّع بها من منهل النعيم ... - في المشاركة في حمّام جمع بين جنة ونار ، وأنواء وأنوار ، وزهر وأزهار ، قد زال فيه الاحتشام فكل عاري ولا عار ، نجوم سماءه لا يعتريها

(١) محمد بن محمد بن سيد الناس ، ولد عام ٦٧١ هـ ، وتأدب بالشهاب الحلبي ، ثم أصبح شيخ المدرسة الظاهرية بالقاهرة ، وكانت وفاته عام ٧٣٤ هـ (انظر الوافي بالوفيات ، الصفدي ، باعثناء هـ . ريتر ، هيسبان ، فرانز شتاينز ١٩٨٣م : ٣١١-٢٨٩) .

(٢) نزهة الناظر : ٢٢٥-٢٢٩ .

(٣) خزنة الأدب وغاية الأرب ٢ : ٣٨٦ .

(٤) صبح الأعشى ٩ : ١٥٢ ، وانظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٧٤ .

أقول ، وتنافست العناصر على خدمة الحال^١ به تنافساً أحسن كل التوصل فيه إلى بلوغ أربه". وأطال في وصف مائه وأدواته ، وخبرة قيّمه وحسن خدمته ، ثم عاود دعوته إليه ، معدّداً بعض المغريات بقوله : "لدي" - أبهّجك الله - عصون قد هزها الحسن طرباً ، بل رماح^٢ لغير كفاح قد نشرت من شعورها عذبا ، وبدور^٣ أسدلت من الذواشب غيهاً^(١) .

وفي الاستدعاء إلى مجلس خمر كتب الأديب بدر الدين بن المصاحب^(٢) رسالة إلى صديقه فخر الدين بن مكانس^(٣) تفيض بمعاني خمريات أبي نواس في وصف الخمر ، من تغزل بها كأنها حسناء ، وتصوير لفعليتها في نفس شاربها ، وصفائها ، ومنها لقوله : "هل لك - بسط الله آمالك ، وضاعف نعيمك ودلالك - في عذراء مصونة ، كالدرّة المكنونة ، فتانة مفتونة ، كأن^٤ على خدها فوق ورده ياسمينة ، مخدرة تدهش العقول لمجئتها ، وتعشى العيون لضوء سناها"^(٤) .

- الشكوى والعتاب

وهذا اللون من الرسائل يمسّ شغاف القلب ، ويشير شجون النفس ؛ ذلك لأنّ الشكوى والعتاب لا يكونان إلا بعد مرارة تجربة الجفاء والإعراض أو تجرّع الهموم والاسقام ، أو مكابدة الحياة وعنائها ، ورسالة الشاكي تستمد من وصف الحال المشككية على ما يوجب المشاركة فيها بالمساعدة إن استدعيت عليها ، من غير إغراق يفضي إلى تظلم الاقدار وإحباط الأجر ، ... ، وأن يشفع الشكوى بذكر الثقة بالله سبحانه ، والتسليم إليه والرضا بأحكامه . فإن كتب الاتباع إلى الرؤساء ، فيكتفي بالتعريض والتلميح ، ويعرض الكاتب عن الشكوى إلى لفظ الشكر ومعناه ، وطلب الزيادة والإلحاق بالنظر في الإحسان ؛ لما في ذلك

(١) هوات الوفيات ٢ : ١٨٢-١٨٣ .

(٢) لم أقف على ترجمته .

(٣) المصاحب عبد الرحمن ، كان ناظر الدولة بمصر في أواخر عهد المماليك الأول ، ثم وزيراً للشام ، توفّي في ذي الحجة سنة ٧٩٤هـ (انظر نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ، علي بن داود ، تحقيق د. حسن حبشي ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ١ : ٢٠١ ، ٣٤٤) .

(٤) مطالع البدور في منازل السرور ، علاء الدين الغزولي ، مطبعة الإدارة الوطنية ، القاهرة ١٢٢٩هـ ، ١ : ١٥٢ .

التصريح من تعريفه بإخلال المكاتب بما يلزمه النظر فيه من أحوال أتباعه (١) .

والشكوى أصدق ما تكون في الهموم العامة ؛ إذ يعاني الجميع من همومه الخاصة ، وقد تكون بدافع الانتقاد لفئة من الناس الحسدة ، أو لبعض من علا شأنه وليس بأهل ، ومنها ما يكون نابعاً من تجربة خاض الأديب غمارها ، ومن ذلك ما قاله ابن دقيق العيد في متاعب تحصيل العلم ، وحسد بعض أهل زمانه له ، وإزرائهم بما يؤلف : "إن المرء يتعب أفكاره ، ويكد ليله ونهاره ، ويقدر زناد القريحة حتى يثرى قريحه ، ويرقب فجر الحقائق حتى يتبلج صبحه ، يروى مصاعب النظر حتى يسهل جامحها ، ويستدني شوارد الفكر حتى يقرّب نازحها ، فإذا تجلّى له من ذلك نادرة أبداهها ، وتأمل أن يودّع بالفكر خاتمتها ويتلقى بالشكر مبداهها ، قام الحاسد فقبّح تلك الصورة الجميلة وشأها" (٢) .

ومن الشكوى ما يكون لأمر خاص بالكاتب ، مثل : رقّة الحال أو الإصابة بالمرض ، أو الفجيرة بعزیز عليه ، أو الإقامة في بلد لا يوافق هوى النفس ، إلى غير ذلك من الدوافع الشخصية ، ففي الهم والمرض ، والشكوى منهما قال ابن نباتة مرسلًا إلى بعض أصحابه : "ويُنهي أنّه سطرّها وقد أحاط بقلبه وبدنه مرضان كلاهما الأخطر ، وسببان مجموعان على ما صادف الصبر فاجدب ، والجفن فافطر ؛ أما مرض القلب فإنّه وجد بالأمس من فلان نكداً يفضي القلوب المصاح ، وتشويشاً يفضع جليده عن بعضه ولو أنه تشويش أصداع الملاح ، وأما مرض الجسد فظهور دملي هو وليه سواء ليس لهما فجر" ، ولا لوصلهما الذي لا تلتذ به النفس هجر ، وقد قسا ولكن أشد من قسوة الحجر ، وخيط فمه ولكن بأشد من وخز الإبر ، ففكره للهموم معرض ، وجسمه محبّب إلا أنه مبغض" (٣) .

أما العتاب فينبى عن صادق المودة والإخاء ، ولا يكون إلا بين من إذا تباعد احنا ، ومن موجباته انقطاع الإخوان عن بعضهم حتى بالتراسل ، أو حدود

(١) صبح الاعشى ٩ : ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢) طبقات الشافعية : جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الاسنوي ، تحقيق د. عبدالله الجبوري ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٩٧٠م ، ٦ : ١٤٦ .

(٣) مطلع الفوائد ومجمع الفرائد : ٤٨٣-٤٨٤ ، وانظر رسائل أخرى فيه : ٤٨٤-٤٨٦ ، ورسائل أخرى في صبح الاعشى ٩ : ١٧٤-١٧٦ .

جفوة بينهم بسبب الحساد والوشاة (١) ، وقد دأبوا في معاتباتهم على الاستفهام عن أسباب الجفاء ، وتصوير الحسرة والالام نتيجة الطرقة والقطيعة ، وإشارة ما في نفس المعاتب من تسامح وعطف ، وحسّم وأناة ولطف ، ويتخلل الرسالة أبيات من الشعر تناسب الغرض . قال الشهاب الحلبيّ معاتباً بعض أصدقائه : "وينهي أنه انكسر خاطره ، وأرق جفنه وناظره ، وتضاعف بلباله ، وتزايدت في النقص أحواله ، مذ تأخرت الأمثلة الكرام ، وانقطعت عنه بانقطاعها المنن الجسام ، وهو يسأل العفو عن ذنبٍ وقع ، وتشريفه بمشالٍ يرفع من قدره ما وضع" (٢) .

ورسائل العتاب تفيض بالشكوى مما سببه الهجر ، وتلمح في ثناياها ما يشبه عتاب العشاق ، ونهجهم في إظهار الحسرة والحرقة واللوعة ، وترقّ عبارات الكتاب أحياناً حتى لتحبسها رسائل غرام وصباة ، وترى فيها غيرة المعاتيب من ومثل المعاتب غيره . يقول ابن نباتة شاكياً ومعاتباً : "المملوك يشكو من المولى فيراقاً أوجب له على نفسه فرقا ، وجيش صدود منحه من العزائم طوائف وفرقا ، وداء صباة كلما ترجى الإفراق منه ، ازداد تلهفا وحرقا ، ووجوب قلبه تحتتم لغيبته ووجب ، ودمع عينه يمحو مهتما عبّر عنه لسان قلمه أو كتب ، وقد أطل الهجر تألّمه وعشّبه ، وأطار سينته ولبّته ، مذ ومل المولى غيره ، وقطع كتّبه" (٣) .

بيد أن في بعض المعاتبات خشونة وقسوة ، وبخاسة إذا كان المعاتب لا ذنب له في الجفاء ، ولم تصدر عنه زلّة إلى من قلاه وهجره ، وقطع أوامر وده به وزجره ، جاء في عتاب الشهاب الحلبيّ لمن أبعدته ونحّاه عنه بغير ذنب منه : "مع أن المملوك أحق أن يبدا بالإعراض ، ويرفل من إغفال مودته في الشوب الغضاض ، فإن المولى ألمه بالقول مرارا ، وجعل سحابة حيفه تهمي عليه مدرارا ، وهو يحتمل الأذى ، ويغضي على القذى ، ولا يظهر إلا محبّة ، ولا يبطن إلا مودة . فإن شاهد المولى بعد إعراضه إعراضا ، فليلم نفسه ، أو أحرقه لهب نار

(١) صبح الاعشى ٩ : ١٨٩ .

(٢) نفسه ٩ : ١٩٦ .

(٣) نفسه ٩ : ١٥٠ .

الجفاء ، فلا يشكك منه" (١) .

- الاعتذار :

قال القلشندي في حديثه عن رسائل الاعتذار : "وينبغي للكاتب أن يستعمل فيها فكره ، ويوفّيها حقّها من جودة الترتيب ، واستيفاء المعاني ، وأن يذهب إلى استعمال اللفاظ الجامعة لمعاني العذر ، الملوحة بالبراءة مما قُترِف به ، ولا يخرج لفظه مخترج من يقيم الحجّة على براءة السّاحة مما رُمي به" (٢) .

وإذا كان الحساد سبباً في انقطاع المودة بين الأحيّة عند الشعراء ، فقد جعلهم الكتاب أعواداً يعلّقون عليها أخطاءهم وزلاتهم التي تورث الجفاء من مكاتبيهم ، فمن رسالة اعتذار كتبها الشهاب الحلبي إلى أحد أصدقائه ، وكان حاسداً قد وشى لصاحبه به ، ونقل عنه كلاماً زاد فيه ، وحرفه عن موضعه : "وكان المملوك أرسل لفظاً على سبيل الإشفاق ذهب به الحاسد إلى غير معناه ، وخالف في تفسيره حقيقة مغزاه ، وأحاله عن بُنْيَتِهِ ، وعرضه عليه على غير صورته ، ليوحش محلّ المملوك المأنوس من رعايته ، ويُنْفِر سِرْبِهِ المطمئنّ بملاحظته وعنايته ، وقد أرسل المملوك هذه العبودية سائلاً في محو إظلام موّجّدته" (٣) .

ومن الاعتذاريات الطريفة تلك التي أرسلها فخر الدين بن مكّان إلى صديقه زين الدين أبي بكر ابن العجمي^(٤) ، وقد أشار دواعي الفتنة والشقاق بينهما رجل ضريب كان يحضر مجلسيهما ، جاء فيها : " (ليس على الأعشى حرج) (٥) . بلغني - بلّغ الله سيدنا ومولانا ... أقصى ما ينتهي إليه تنافس المتنافس ... - من غيبة ذلك الضريب ما لا خشيّ الله فيه بظهور الغيب ، ونقل إلى المسمع الكريمة ما لا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من الريب" ، ومنهسا يسأله قبول

(١) صبح الأعشى ٩ : ١٩٧ ، وانظر ٩ : ١٩٥ - ١٩٦ ، السوافي بالوفيات ١ : ٣٢٠ ، مطلع الفوائد : ٤٦٨ - ٤٦٩ ، طبقات الشافعية للأسنوي ٦ : ١٠٠ .
(٢) صبح الأعشى ٩ : ١٦٦ .
(٣) نفسه ٩ : ١٦٩ - ١٧٠ .
(٤) عبد الله بن عليّ ، عين كتاب الإنشاء الشريف في نهايات العصر المملوكي الأول . ولد في القاهرة عام ٦٩٧ هـ ، وتتلّمذ على بعض علماء عصره ، توفي عام ٧٧٧ هـ (الدرر الكامنة ٢ : ٣٨٠) .
(٥) سورة النور : ٢٤ .

المعذرة ، وعدم الإنصات للواشي أو الالتفات إلى وشايته : "والمسؤول من إحسانه أمران : أحدهما الجواب ، فإنّه يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة ، والاخر ردّ كل فاسق عن الباب العالي ، فإنّ أبا بكر أول من تملّص في الردّة" (١) .

- الهدايا

عني القلقشندي بما يتّصل بالسلطان ونوابه من هذا النوع من الرسائل ، وأهم ما دار بين الأصدقاء من الأدباء والعلماء ، سوى في حديثه عن الأجوبة بوصول الهدايا ، وقد ألحقت الأجوبة بموضوع الشكر آنفاً . وأشار إلى أن العادة جرت في مثل تلك الرسائل أن تدع "من أوصاف الشيء المهدى ما يحسنه في نفس المهدى إليه" ، وينبغي لمن ذهب هذا المذهب "أن لا يعتمد تفخيم هديته ، ولا الإشارة إلى جلالة خطرهما ، فإنّ ذلك يخلّ بشروط المروءة ، ويتحاماه الكرماء" . وأشار القلقشندي في موضع آخر إلى أن ما يكتب مع ما يهدى قد يكتب مع ما يستهدى ، "إلا أن الغالب مما جرت به عادة الكتاب في الاستهداء طلب الأشياء المستظرفة الخفيفة المنّة دون ما يعظم خطره" (٢) .

ولا بدّ للكاتب في الاستهداء من مدح المكاتب ، وبيان فضله ، ومن سعي إلى استشارة جوده واستمناع نداه ، وتمهيدٍ للطلب بذكر الحاجة إليه . ويبدو أن هذه الرسائل كانت كثيرة استناداً إلى كثرة الأجوبة عنها ، غير أنني لم ألق سوى على رسالة واحدة جمعت بين الشعر والنثر ، كتبها عيسى بن حجاج (٣) إلى أحد أصحابه من ولاة الأمر في استهداء شاشٍ لعمامته ، وصف فيها قمّة احتراقها بقوله : "ولمّا أغفى على وجه الكتاب ، لعبت الشمعة بلسانها ، وتناولت ظرف شاشه بين نيرانها ، فهبّ المملوك وأحمد ما تصاعد من الانفاس ، وقابلها على حرق الشاش

(١) خزائن الأدب وغاية الأرب ٢ : ٤٦٧-٤٦٨ .

(٢) صبح الأعشى ٩ : ١٠١ ، ١٢٤ .

(٣) شرف الدين الملقب بالعالية لمهارته في الشطرنج ، شاعر اهتمّ بالمدائح النبوية وتمنّيف البديعيات ، له ديوان شعر ، وكسّنت وفاته بالقاهرة عام ٨٠٧هـ (انظر في ترجمته الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، شمس الدين السخاوي ، نشر مكتبة حسام الدين القدسي ، القاهرة ١٣٥٣هـ ، ٦ : ١٥١-١٥٢) .

بقطع الرأس" ، وتابع ، بعد أبيات من الشعر في وصف ما حدث قاتلاً : "وقد توسلت بهذه الرسالة المدونة في باب المنظوم والمنثور ، ومددت يد سؤلي إلى طربي شاشاً مقصوراً ، وأرجو أن يجمع لي بين الممدود والمقصور ، أبقاك الله للأولياء الذين يحبون وجودك ، ويستمتطون كرمك وجودك" (١) .

- الشفاعات

الشفاعة رسالة تصدر عن "ذوي المراتب والخطار ، والمنازل والاقدار ، الذين يتوسل بجاههم إلى نيل المطلوب ودرء ك الرغائب" . وعلى الرغم من رتبة كاتبها ، إلا أنه يحتاج فيها إلى التلطف ، فيودعها "من الخطاب ما يخرج به عن صورة المثقل على المشفوع إليه بما يكلفه إيّاه ، ويؤدي إلى بلوغ غرض المشفوع له" . ويحبذ فيها مسلك الإيجاز والاختصار ، وأن يفرج إلى قدر الشافع والمشفوع له ، ويثراعي قدر المشفوع إليه (٢) .

ويدل وجود مثل هذه المكاتبات على أن بعض كبار الشأن في المجتمع المملوكي كانوا يستغلون مناصبهم للشفاعة في غيرهم ، ولا ينفي كون ما وقفت عليه منها إيجابياً أن تكون قد أسّيت في استخدامها بين الحين والآخر .

وقد تكون الشفاعة في طلب المسامحة بالأموال ، أو التجاوز عن الزلات ، أو في تعيين المشفوع له في وظيفة يطمح إليها ، أو في إعادته إلى وظيفة عزل عنها (٣) . ولا بدّ للشافع في رسالته من التذكير بحسن علاقته بالمكاتب ، ومنزلته عنده ، وقديم محبته له ، ومن هزّ أريحيتته بمدحه بما يطيّب له من صفات ، ثم يتبع ذلك كلّه بسؤال إجابته إلى ما شفع فيه . يقول الشهاب الحلبي من شفاعة في استخدام كاتب درج : "ومحبة المملوك له شديدة ، والمحبّة بينهما قديمة وشقّة المودة جديدة ، ولولا ذلك ما ثقل على خدمته ، وتهجّم على المولى بمكاتبته ، وقد توجه إلى بابه العالي مهاجراً ، وناداه لسان جوده فلبّاه

(١) مطالع البدور في منازل السرور ١ : ٨٦ .

(٢) صبح الاعشى ٩ : ١٢٧ .

(٣) نفسه ٩ : ١٢٧ ، ١٢٨ .

واجابه مبادرا ، وغرضه أن يكون كاتباً بين يديه ، ومملوكاً تقفع عين العناية عليه ، وهو من الكرام الكاتبين ، والراغبين في الانتظام في سلك خدمه والمؤثرين ، ... ، فإذا انعم المولى باستخدامه ، وتحقيق مرامه ، كان قد وضع الشيء في محله ، وصنع المعروف مع أهله ، وبيّض وجه المملوك وشفاعته" (١) .

ومما يلاحظ على بعض الشفاعات أنها كانت تصدر ممن هو أعلى رتبة إلى من هو دونه ، لكنها كانت لا تخرج بصيغة الأمر ، بل يميل الشافع فيهما إلى الرقة ، واستخدام ألفاظ المجاملة أكثر من غيره وبخاصة فيما بين موظفي السلطنة ، فمن شفاعاة لنائب الشام في موظف اسمه جمال الدين إلى نائب حمصا ، وهو دونه في الرتبة : "ومملوك مولانا ، أعز الله أنصاره ، فلان ، قد اعترف بهفوة بدت منه ، وزلة نقلت عنه ، وما يسعها إلا عفو مولانا ومراحمه ، وقدم على المملوك فكأنه ما خرج عن ظل مولانا ولا فارقته معالمه ، وسأل سؤال مولانا أن يشمل به بالعفو ، ويتجاوز له عن السهو ، ويرحم كبر سنه وكبيرة جهله ، ... ، والمسؤول من صدقات مولانا تجاوزه عن هفوته ، وردّه إلى أمنه ووظيفته" (٢) .

(١) صبح الاعشى ٩ : ١٣٧ .

(٢) نفسه ٩ : ١٤٣ ، وانظر الصفحات : ١٣٨-١٤٢ ، ١٤٤ ، ففيها نصوص لشفاعات في غير ما ذكر .

الرسالة الأدبية

لا بدّ للمبدع الساعي إلى تطوير ملكته الإبداعية من شراء التجربة ، ويميل الباحث إلى أن تنوع الموضوعات التي يطرقها الكاتب ، وأسلوب عرضه لكل منها ، تعبر عن اتساع تجربته ، وتسعى به قدماً نحو إنضاجها واكتمالها ، وتدلّ على يقظته وعمق إحساسه بواقعه ، وتفتح أمامه آفاقاً جديدة .

وإذا كان الكاتب يصدر في كتاباته عن تجارب خاصة ، أو عامة ، فتكون موضوعاته مستمدة من حياته الخاصة ، ومن اهتمامات مجتمعه ، فإنّ إحساسه الفطريّ ، ودقة ملاحظته يدفعانه في بعض الأحيان إلى الكتابة في موضوعات ذهنية متخيلة ، ولا أقصد بذلك أن تكون بعيدة عن واقعه ، بل إنّ كتابته فيها توضح موقفه - أو موقف مجتمعه - منها .

وتجدر الإشارة إلى أن الرسائل الأدبية كانت أقرب ما تكون إلى التعبير الذاتي الانطباعي عن مشاعر الكاتب ومواقفهم من الحياة ومباهجها ومتاسيها ، والناس وطباعهم ، والطبيعة وفتنتها وقسوتها ، والبلاد ومناخاتها وبيئاتها ، وهذه الرسائل قد يكتب بها ، وقد لا يكتب (١) ، لكنّها ، وإن كوتب بها أحياناً ، تظلّ مختلفة عن الرسائل الإخوانية في المضمون والغرض ؛ ويغلب على هذه الرسائل الوصف ، فقد كان أجلّ ما لدى كاتبها ، وميدان بلاغتهم ، "فإن لم يكن المقام مقام الوصف ، لوو* إليه أعنّة الأقلام كلما عنّت مناسبة ، وسنحت فرمة" (٢) ، كما يرى محمود رزق سليم .

وقد تنوعت موضوعات هذه الرسائل ، فكان منها الطرديات ، والشتويات ، ووصف النكبات ، والمجونيات ، والمفاخرات والمناظرات ، والنقد .

- الطرديات

جعل القلقشندي رسائل الميّد ضرباً من الرسائل الملوكية (٣) ، وتحدث في موضع

(١) صبح الاعشى ١٤ : ١٥٧ .

(٢) عمر سلاطين المماليك ٥ : ٢١٥ ، وانظر : ٢١٧ .

(٣) صبح الاعشى ١٤ : ١٨٨ ، وانظر عمر سلاطين المماليك ٥ : ٢٣٤ .

آخر عن قيد* مات البندق (١) ، وعرفها بقوله : "وهي رسائل تشتمل على حال السرمي بالبندق ، وأحوال الرماة ، وأسماء طير الواجب (٢) ، واصطلاح الرماة وشروطهم" (٣) . وليس هناك فرق* كبير بين النوعين سوى أن* أولاها تكون للصيد عامة ، وأخراها يكون مخصوصاً بصيد الطيور ، كما تخدم رسائل الصيد بالملوك ، أما قدمات البندق فلغيرهم .

وتصور هذه الرسائل عادة سلاطين المماليك ، والامراء في أوقات السلم ، إذ كانوا يخرجون إلى الصيد ، ويصاحبهم في تلك الرحلات المقربون إليهم ، إضافة إلى الحرس السلطاني* والرماة والخدم ، وترى فيها ابتداء الرحلة إلى الصيد ، ومراحلها ، وأماكن نزول الركب ، "وما حقا" بذلك كله من مواضع جامعة ، ومناسظر رائعة ، وحفاوة بالغة" (٤) .

كما وصف كتاب هذه الرسائل أوقات الطهو والسمر التي يقضيها ركب الصيد ، وتندرس* المحب ببعض القصص والاشعار ، أو وصف بعض المناظر نثراً* ، ومن ذلك قول ابن المائح الحنفي* (٥) في رسالة وصف فيها رحلة صاحب له للرمي بالبندق : "فسار مع سرايا كالنجوم ، يتفأكهون في الحديث بالمنثور والمنظوم ، ويخلطون جد* القول بهزله ، كلما خلط لهم ظل* الجود بوبله" (٦) .

وتصور هذه الرسائل فوائد الصيد الجملة بوصفه رياضة* للجسم والنفس ؛ إذ به تظهر الفرسان مواهبها ، وهو تدريب* لركوب الخيل ، وبه يضاعف السرور ، ويتأتى النشاط ، وتجربة مثيرة تزيد الحواس قدرة على تمييز الأشياء وتحديدتها . يصف ابن المائح هذه الفوائد بقوله : "إن* الصيد من أحل* الأشياء وأحلاها ، وأبهرها

-
- (١) كرات من الرصاص استعملت في مصر أيام المماليك للصيد ، وترمى عن قوس في وسط وترها قطعة معدنية دائرية تسمى الجوزة ، توضع فيها البندقية عند الرمي (التعريف بمصطلحات صبح الاعشى ، محمد قنديل البقلي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (ب،ت) : ٦٨) .
- (٢) بعض أنواع الطيور التي تفاخر رماة البندق بصيدها ، وقد حددها ابن فضل الله العمري بأربعة عشر طيراً* (انظر التعريف بالمصطلح الشريف : ٣٠٦) .
- (٣) صبح الاعشى ١٤ : ٣٢١ .
- (٤) عصر سلاطين المماليك ٥ : ٢٣٤ .
- (٥) محمد بن عبد الرحمن بن علي ، ولي عدة وظائف بمصر ، وبخامة في ديوان الإنشاء ، توفي عام ٥٧٧٦ هـ (الوافي بالوفيات ٣ : ٢٤٤) .
- (٦) صبح الاعشى ١٤ : ٣٢٥ .

وأبهاها ، وأشهرها وأشهاها ، وأفخرها قيمة ، وأغزرها ديمة ، بورود الطير فيه إلى المناهل تنشرح الصدور ، وبوقوعه في شرور الشراك يتم الصدور ، يحصل عند متعاطيه نشاطا ، ويزيده انبساطا ، ويشرح خاطره ، ويسرح ناظره ، ويملا عينيه قفرة ، وقلبه مسرة ، يثجج الجبان ، ويثبت الجنان ، ويقوي الشهوة ، ويسوي الخطوة ، ويسوق الظفر ، ويشوق النظر" (١) .

ويربط بعض الكتاب بين الصيد وبين الحرب ، إذ كل منهما ينمّي القدرة على الآخر ، ويمقل النفس ، ويقوي الشكيمة ، ويضاعف العزيمة ، وفي كل : ركوب خيل ، واستعمال سلاح ، ومواجهة مشاق ، ومغالبة صعب . ومن ذلك ما جاء في وصف تاج الدين بن البارنباري (٢) لرحلة صيد الملك الناصر محمد ، حيث قال : "إن في ابتغاء الصيد ملاذ" (٣) تدركها كل ذات شرفت ، وتملكها السجيا التي تعارفت بالغفار واكتلفت ، وتناولها النفوس التي مالت إلى العز وإلى تلقائه صُرِفَتْ ، ومنشؤها من حالتين : إما في موقف عزٍ عندما تلمع بروق الصفاح ، وتشيب من هول الحرب رؤوس الرماح ، وتسرح جوارح النبال لتتل في الجوارح وتصيد في الأرواح ؛ وإما في موطن سلمٍ عندما تنبسط النفوس إلى امتطاء صهوات الجياد في الأمن والدعة ، وتنشرح الصدور إلى معاطاة الصيود والمسرات مجتمعة" (٤) .

ويقف المطالع لرسائل الصيد على آياتٍ من الوصف حسان ، مثل وصف أدوات الصيد وآلاته كالقيسي ، وكرات البندق ، ومثل وصف الطيور الجارحة المستصعبة من البعزة والشواهين والبواشق (٥) . وصف ابن البارنباري الجوارح بعد وصفه مسير السلطان ورفقته بين الزروع قائلًا : "وأعدت للصيد بزاته وصقوره ، من كل متوقد اللحظ من الشهامة ، محمول على الراحة من فرط الكرامة ، يلتوسم فيه النجاح قبل خفق الجناح ، ويخرج من جو السماء ولا حرج ولا جناح ، وبازها

-
- (١) صبح الاعشى ١٤ : ٣٢٢ ، وانظر : ٣٢٨ ، حسن التوسل : ٣٥٣ .
 - (٢) محمد بن محمد بن عيد المنعم المعروف بابن البارنباري ، عمل في ديوان الإنشاء بدمشق من عام ٧١٣هـ حتى ٧٣٤هـ حيث نقل إلى طرابلس الشام ، وفي عام ٧٤٧هـ عُزل ، فعاد إلى دمشق ليصبح كاتباً للدست فيها عام ٧٥١هـ ، وقد توفي عام ٧٥٦هـ (انظر الوافي بالوفيات ١ : ١٦٢) .
 - (٣) في الأمل ملاذاً ، وهو خطأ لأنها من الممنوع من الصرف .
 - (٤) صبح الاعشى ١٤ : ١٨٨ - ١٩٠ .
 - (٥) انظر في الجوارح المستخدمة في الصيد : التعريف بالمصطلح الشريف : ٣٠٦-٣٠٢ .

الاشهب ، يجيء بالظفر ويذهب ، بمدرٍ مفضّض ، وناظرٍ مذهب ، له منسر أُنقى ، طالما أغنى ، كأنّما هو شبا السّنان وقد حباه الكماة طعنا" (١) .

وتبدو عنايتهم بآلات الصيد ، واهتمامهم بتزيينها ، والدقة في صنعها من خلال وصفهم لها . يصف الشهاب الحليّ " أقواس البندق " ، ولينّها ، ودقة صنعها بأنّسها : " كالغصون في لطافتها ولينها ، والاهلّة في نحافتها وتكوينها ، والازاهر في ترفها وتلوينها ، بطونها مدبّجة ، ومتونها مدرجة ، كأنّها كواكب الشّولة في انعطافها ، أو أرواق الظباء في التفافها ، لاوتارها عند القوادم أوتار ، ولبنادقها في الحواصل أوكار" (٢) .

وتصور هذه الرسائل بعض المناظر الطبيعية الجميلة التي يمرّ بها الراكب في أثناء مسيره ، وقد مال الكتاب فيها إلى التشخيص ، فالغصون تميل طرباً ، ويعانق بعضها بعضاً عناق الاحبسة ، وتتهامس الورود تهامس العشّاق . يقول الشهاب الحليّ بأن الراكب وصلوا : " إلى حدائق ملتفة ، وجداول محتفّة ، إذا خمّش النسيم غصونها ، اعتنقت اعتناق الاحباب ، وإذا فرك مرّ المياه متونها ، انسابت في الجدول انسياب الحباب ، ورقمت في المناهل رقص الحباب" (٣) .

ويصور ابن البارنجاريّ خروج السلطان سحراء من خيمته للصيد بقوله : " يسرح والطير جاشمة في وكورها ، ويخرج في أغباش السحر وعليه سواد ، ... ، ويأمر - خلّد الله سلطانه - أمراءه فيضربون على الطير حلقة وهي لاهية" في التقاط حبها ، غافلة عمّا يراد بها ، فيذعرونها بخفق الطبول وضربها ، ومولانا السلطان - ... - لنافرها مترقب ، ولطائرها بالجارج معقّب" (٤) . ويقضي السلطان سحابة نهاره على هذه الحال ، ثم يعود إلى الخيام ، فإذا طلع الفجر وزع شيئاً من صيوده على من معه ، وقضى فيما يستجد من أمور السلطنة ، ثم يعود إلى الصيد . وكانت رحلة الصيد تدوم أياماً يخصّص قسمٌ منها للطيور ، والباقي يقضيه

(١) صبح الاعشى ١٤ : ١٩٠-١٩١ .

(٢) حسن التوسل : ٣٥٧ ، وانظر صبح الاعشى ١٤ : ٣٢٤ .

(٣) نفسه : ٣٥٦ .

(٤) صبح الاعشى ١٤ : ١٩١ .

السلطان وصحبه في مطاردة الحيوانات البرية ، فيعدّ "لإمساكها كل" هيكل قيد الاتّوابع من الخيل ، من أشهب كريم المغار ، وأحمر كائما صُبغ بالدم ، وأدهم "مدرّك كالليل ، منصّب كالسيل ، كريم الناصية ، جواب قاصية ، كأن غرته صبح" تنفّس في الدجى الحالك ، وكأنّ من الليل باق بين عينيه كوكب يضيء المسالك" (١) .

ولعلّ أجمل ما في هذه الرسائل تلك الروح القصصيّة التي تسري في جنباتها ، وإن كانت القصة فيها تسرد سرداءً ، ويقلل من نضجها واكتمالها استطرادهم في الوصف ، فإنّها تظلّ مفعمة بالحركة والتنامي ، ولعلّ قلة اعتنائهم بتنامي الأحداث فيها عائذ إلى تركيزهم على الوصف وحسب ، وكان الأجدر بهم في رسائل الصيد أن يهتمّوا بالأحداث لا بوصف ما يصادف في أثناء الرحلة . غير أنّنا نجد فيها عكس ذلك ، فبينما يستغرق وصف طائرٍ ثمانية سطور مثلاً ، يأتي وصف صيده في سطرين فقط (٢) .

وتلمح في هذه الرسائل مظهرًا من مظاهر الطبقية حتى في ممارسة الصيد ، ونفسيّة السلاطين المترقبة الخائفة من انقلاب الأمراء عليهم ، فتراهم يمنعون من إلصاحهم إلى الصيد من استعمال الأسلحة وآلات الصيد ، إلّا بعد أن ينتهوا هم ، ويعودوا إلى القلعة . ولهذا كانت وظيفة من يماحب السلطان من الأمراء التمهيد لصيده ، والقيام على خدمته وتوفير أسباب الراحة له ، وبعد عودته يرسم السلطان لهم بالصيد (٣) . وتشير بعض المصادر إلى أن خليلًا بن قلاوون ، الملك الأشرف ، قتل في أثناء ممارسته الصيد (٤) .

- الشّتويات

وهي رسائل دبّجها منشئوها في وصف الشتاء أو ما يتعلق به من سيول وأمطار وثلوج وبرد ، وعبر فيها بعضهم عن الفرح بنزول الغيث بعد جدد ، كما وصف بعضهم مشاعر الخوف والرهبّة من السيول الجارفة ، ومنهم من عبر عن الفرح والتشاؤم معاً بسبب سقوط الثلج وإمساك الناس عن الحركة .

(١) صبح الأعشى ١٤ : ١٩٢-١٩٣ .

(٢) انظر نفسه ١٤ : ٣٣٧-٣٣٨ ، حسن التوسل : ٣٦٣-٣٦٤ .

(٣) نفسه ١٤ : ١٩٥ .

(٤) انظر فوات الوفيات ١ : ٤٠٩ ، والجوهر الثمين ٢ : ١٠٨ .

وصف المطر

والمطر كالنيل ، كلاهما مصدر خير وعطاء ، وخوف ورجاء ؛ ولذلك كان وصفهم لنزوله مليئاً بالحيوية ، مفعماً بالفرح والنشوة ، وبخاصة بعد إمحال الأرض ، فهطلوه بشير بتدني الأسعار ، وهو كرم من الباري ورحمة .

وقد صوروا في رسائلهم السماء وغيومها ، وانهمار الغيث ليستقر في بطن الأرض فتحيا به بعد موتها ، وتنبت من كل زوج بهيج ، وتجمعه في السيول والغدران ، فجعلوا منه شفاءً لوجه الأرض المجذبة ، ولم ينسوا ممدوحهم فشبهوه بهم ، وسلکوا إلى مدحهم مسلکاً لطيفاً ، ومن ذلك قول ابن البارباري : "مطر غامت له السماء ، وعامت الأرض لما كثر من الماء ، ودامت به من الله الرحمة والنعمة ، وغابت تحت غمامه عين الشمس فمالها إشارة ولا إيماء ، وتوالى كرمه إلى الرياض فله عند كل ساق يد بيضاء ، إلا أن الأرض تغير حالها ، واستقر في بطون الأرض ما أرسلته جبالها ، فتفرق في الأرض غدراناً ، وروت أحاديثه السيول عن الحيا عن البحر عن جود مولانا . كأنما الأرض به سقيت فشفيت من بأسها ، لا بل كأنما أبو حفص هذه الأمة استسقى الله بعباسها ، وأضحت فاكهة الشتاء كوجه المحبوب غير مملولة ، وأمنت سحبه القلوب وإن كانت سيوف بروقها مسلولة ، وخدمت فيها كل نار إلا نار قراك ، وما غابت فيه الشمس ونحن نراك" (١) .

ووصف ابن الوردي مشاعر البهجة بالمطر بعد القنوط ، وأظهر في وصفه بعض عادات التجار في احتكار المواد لرفع أسعارها ، وكيف يكون المطر تخريباً عليهم لمال الناس ؛ إذ يتباشرون بمغلّ جيد فلا ينساقون وراء أولئك التجار فتفشل خططهم ، قال : "لله هذا الوحل ، بعد هذا المثل ، وكثرة البئر" ، بعد أن مس الضرر ، فقد عمّت الأمطار الاقطار ، حتى أصبح هري الحكار (٢) ، (على شفا جرف هار) (٣) ، ورمت المخازن مقاليدها إليكم ، (وقال لهم خزنتها سلام عليكم) (٤) .

(١) الوافي بالوفيات ١ : ٢٥٧ .

(٢) مخزن كبير تجمع فيه الغلال للخزن احتكاراً لها .

(٣) سورة التوبة : ١٠٩ .

(٤) ديوان ابن الوردي : ١٣٦ ، والاية الاخيرة من سورة الزمر : ٧٣ .

يبدو من خلال بعض الرسائل أن السيول كانت مخيفة ؛ ذلك لأن الناس لم يكونوا يملكون وسائل لدفعها عن بيوتهم ومنزلهم ، ولذلك وصفها بعض الكتاب بأنها يوم الدين ، ففي عام ٧٢٨هـ أصاب مدينة عجلون سيل جارف أتى على كثير مما فيها ، فأرسل أحد أهلها رسالة إلى دمشق يخبر فيها عما حدث .

وصف في بداية الرسالة الرياح الشديدة وتلبّد السماء بالغيوم ، والبرق والرعد التي سبقت نزول المطر الغزير ، وقد أبرز الكاتب رهبة الناس من ذلك المنظر ، ووصف ما كان يختلج في صدورهم في تلك اللحظة المهولة من مشاعر اضطراب وقلق ، فكلّ يخاف على ما يهيمّه من ولد أو مال . قال كاتبه الرسالة : "أرسل الله تعالى ريحاً عاصفة ، فأشارت سحباً واكفة ، في خلالها بروق خاطفة ، ليس لما جاءت به من دون الله كاشفة ، فطبقت الوهاد وجلّت الاكام ، وخيمت على مدينة عجلون وما قاربها من أرض الشام ، ثم أرخت عزاليها كأفواه القرب ، حتى خيل لمن رآها أن الوعد الحق قد اقترب ، فوجلت القلوب لهول ذلك وتمدعت ، وكادت الحوامل أن تضع حملها وتذهل كل مرضعة عمّا أرضعت ، فمن باكٍ على ما في يده من متاع الدنيا الحقيقير ، ومن مشفق خائف على ولده الصغير ، ومن غريق ما له من ملجأ يومئذ وماله من نكير ، ومن ناجٍ يقول : أشهد أن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير" .

ثم صور الكاتب قوة الماء واندفاع السيول من كل مكان حتى خيل إلى الناس أنهم لا محالة مغرقون ، كما صور الخراب الذي أحدثته في البساتين والبيوت والمساجد ، واتخذ من ذلك مدخلاً إلى الوعظ بقوله : "فانتبهوا يا أهل الغفلة ، واعتبروا يا أولي الالباب" ، ومن وصفه لما خربه السيل عبارات لطيفة يبدو أن الوعظ فيها هدفه . قال : "وأتلف كثيراً من الأمتعة والبضائع والأموال ، حتى أبيع لكثير من أرباب ذلك أن يمدّ يده للسؤال" .

وفي الرسالة تفصيل لمدة دوام ذلك السيل ، وكشافة مائه وارتفاعه وعرضه ، وما أحدثه من خسائر مادية لأهل عجلون . قال : "وكانت مدته من بكرة الشهر إلى

وقت العصر ، (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء اقلعي ، وغيض الماء وقضي الامر) (١) ، وكان عرض هذا السيل قدر رمية حجر ، وارتفاعه قدر قامتين أو أكثر (٢) .

والسيول مصدر خير إن لم تكن مدمرة جارفة ، ولذلك وصف ابن نباتة سيلاً^٣ بمفات مختلفة عنها في الرسالة المتقدمة ، وبين أثره في الأرض والحيوانات ، وشكر الناس لربهم على ما منحهم من نعمه وكرمه ، قال : "سيل" كأنما سعت به البحار ، ودنت منه الديم الغزار ، فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وتكاثر منه المن^٤ المبتدىء والمنح المبتدر ، فوردت الهيم وسجدت الهام ، وصار السراب على الحقيقة بحراً^٥ جارية فيه سفن العيس كالاعلام (٣) .

وصف الثلوج

ولهم في وصف الثلج رسائل جمعوا فيها بين التزيين والتقبيح ، وحاولوا توظيفها في تقرير أصدقائهم ومدح رؤسائهم ، ومن هذه الرسائل ما قاله ابن الوردي^٦ وبهاء الدين السبكي^٧ (٤) في وصف ثلج أصاب دمشق عام ٧٤٥ هـ .

تحدث ابن الوردي في بداية رسالته عن غزارة الثلج الذي سقط ، وما صاحبه من برد وغيوم شعراء في قصيدة مدح في تضاعيفها شهاب الدين أحمد بن فضل الله الذي تبادل مع ابن الوردي رسائل في ذلك ، ثم وصف الثلج نشراً^٨ ، فذكر مسا سببه من برد شديد ، ووصف كيف غطى وجه الأرض فجعلها بساطاً أبيض ، وبكاء الناس بسبب البرد ، واستطرد في وصفه قائلًا : "قل" تجلد الأرض على جليده ظهراً وبطناً ، فقال لها : أتبردين وقد طرح قوس السحاب على جبينك قطناً^٩ . . . ، كم زمجرت الرعود على الناس كأنها تطالبهم بشار قتيل وما قتلوه ، وقعقت عليهم لجم صواهلها حتى تلو^{١٠} (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) (٥) .

(١) سورة هود : ٤٤ .

(٢) تذكرة النبيه ٢ : ١٨٩-١٩٠ ، وانظر ٣ : ٦٣ .

(٣) مطلع الفوائد : ٤٩٣ ، وانظر ٤٩٤ .

(٤) أحمد بن علي بن عبد الكافي المتوفى سنة ٧٧٣ هـ (الوافي بالوفيات ٧ : ٢٤٦) .

(٥) ديوان ابن الوردي : ١٨٤ ، والاية من سورة النحل : ١ .

ثم صور ابن الوردي مشاعر الخوف عندما أحسّ الناس بهول الأمر ، فذكروا الله لما أصابهم من شدة ، وتحسّروا على الصيف ودفنّه ، ورسم منظراً لطيفاً للثلج وقد علا الجامع الأموي وقبّة النسر فيه ، وتراكم فوق مثذنة العروس . قال : "وتضور الجامع الأموي من ترصيص الثلج على ترصيصه ، وزاد عليه حتى كاد يطمس عظام قصومه ، وأصبحت العروس تنجلي في شربوش من فضة ، وبلى جناح نسره بالندى فعجز عن الطيران والنهضة ، ونادى جيرون الجيرة من غائلة ثلوج تلوح ، فقيل له لا تخش من باب يزيد السيل فباب الزيادة مفتوح ، وجمّد الرّيق في الهوات ثلجاً وبرداً تسطح وتسنّم ، وسجد الكافر للشمس من شدة برده واشتاق إلى جهنّم" (١) . وختم رسالته هذه بمديح ابن فضل الله العمري .

أمّا بهاء الدين السبكي فقد جعل من وصف الثلج مدخلاً لمدح صاحب له ، وذم أعدائه وخصومه ، فقد شبهه بممدوحه في الكرم وسيب العطاء وبياض السريرة ، وجعل من ندهمه مثلاً لدرر لفظه .

ثم ألصق السبكي ما للثلج من مساوئ بخمم صاحبه ، فقدره في انحطاط ، وضجرت منه البلاد والعباد ، وهو ثقليل الظل لا يطاق ، وأسوأ ما فيه أنّه يحول بين المرء والحركة ، ويأتي على جمال الطبيعة الخضراء فلا ترى العيون إلا بياضه . قال : "أشبه عدو مولانا في السقوط ، وسأواه فلا يزال في نزول وهبوط ، وفرق شمله في البلاد ، وسمّته ظهور الأراضي ومدور العباد . أقبح به من باردٍ حيث كان ، ثقليل في كل مكان" (٢) .

- وصف النّكبات

تعرضت مصر والشام في عصر المماليك لكثير من الحوادث المأساوية التي ولجت

(١) ديوان ابن الوردي : ١٨٥-١٨٦ ، قبّة النّسر : القبّة الجنوبية للجامع الأموي . قال فيها ياقوت : ليس في دمشق شيء أعلى ولا أبهى منظراً منها (معجم البلدان ٢ : ٤٦٣) ، مثذنة العروس : إحدى مآذن الجامع الأموي ، وهي أعلاها ، (الاعلاق الخطيرة : ٣٦) ، جيرون : أحد أبواب سور مدينة دمشق (الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ابن شدّاد ، طبع المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٣م : ٢٦) ، يزيد هو أحد فروع نهر بردى (المصدر نفسه : ٤٤) .
(٢) تذكرة النّبيه ٣ : ٦٤ .

آثارها كثيراً من البيوت ، وغيّرت معالم الحياة ، ففي عام ٧٤٩هـ شهدت البلاد "الوباء الذي لم يفهد في الإسلام مثله" (١) . وفي عام ٧٦٢هـ فشت الأمراض في الناس وساءت أحوالهم (٢) ، وكذلك عام ٧٦٤هـ ، حتى بلغ عدد الموتى في اليوم الواحد في مصر ثلاثة آلاف ، وانتشر الوباء في دمشق وحلب وغزة وسائر الشام (٣) . وأحياناً كانت الأوبئة تصيب منطقة بعينها كما حدث في ٧٧٢هـ عندما انتشر الوباء في القاهرة (٤) ، وعام ٧٨٢هـ عندما انتشر في الإسكندرية (٥) .

وقد أثرت هذه الحوادث في الكتاب أبلغ تأثير ، فكتبوا فيها رسائل فنيّة صادرة عن إحساس بمرارة المأساة ، ولا يمكن أن نتصور فتور العاطفة عند هؤلاء ، بل إن كتابتهم في تلك الحوادث ، واهتمامهم بها دالّان على يقظتهم الفكرية ، ورقبيّ ملكاتهم ، وقوة إحساسهم بمجتمعهم . وإذا أنكر عليهم ذلك منكر ، وزعم أن رسائلهم كانت في باب الترف الفكري والادبي أدخل ، فإن مشاعر الخوف الذاتي ، على أقل تقدير ، تبثّ فيها روح الصدق ، حتّى لو أغفل انتماء الكتاب إلى مجتمعهم ، وهو أمرٌ بعيد على كل حال .

وتشير هذه الدراسة إلى رسالتين : أولاهما في وصف زلزال حلب عام ٧٤٤هـ ، والآخرى في وصف طاعون عام ٧٤٩هـ ، وهما لابن الوردي ، عرض فيهما لهول الكارثتين ، وأثرهما في نفوس الناس من حاكم ومحكوم ، ومبلغ الدمار والخسائر التي لحقت بالمجتمع ، غير أنّه ركز على مجرى الأحداث في حلب لإقامته فيها .

بدأ ابن الوردي رسالته في وصف الزلزال بالاستعاذة بالله تعالى ، وصور تشاؤمه وأهل حلب من تلك السنة لما حدث فيها من أهوال ، زاغت بها الأبصار ، وحاتت العقول . قال : "نعوذ بالله من شرّ ما يلجّ في الأرض وما يخرج منها ، ونستعينه في طيب الإقامة بها وحسن الرحلة عنها ، نعم ، نستعيد بالله ونستعين ، من سمّ هذه السنة فهي أم أربعة وأربعين ، ذات زلزال شتت في بلاد الشمال رجّله

(١) السلوك ٢ : ٧٧٢ ، والنجوم الزاهرة ١٠ : ١٩٥ ، وبدائع الزهور ١ : ١٩١ .
(٢) انظر السلوك ٣ : ٥٨ ، والنجوم الزاهرة ١٠ : ٣١١ ، وبدائع الزهور ١ : ٢٠٨ .
(٣) انظر السلوك ٣ : ٨١-٨٢ .
(٤) نفسه ٣ : ١٩٠ .
(٥) انظر بدائع الزهور ١ : ٢٥٤ .

وخيله ، وجزم برفع الأرض لما جرّ ذيلسه ، لا عماد من زلزال ، زاغ به العقل وزال" (١) .

وقد أصبحت المساجد في العصر المملوكي الأول ملاذاً للعامة الذين يبحثون عن مصادر الاستقرار والطمأنينة ، فعندما تحلّ بالبلاد ممّية كانوا يتكبدون خسائر جسيمة تفوق طاقاتهم ؛ فلا يجدون سوى المساجد يلجأون إليها ، يدعون الله فيها أن يرحمهم ، ويرأف بحالهم ، ويرفع عنهم البلاء (٢) . وفي هذه الزلزلة تجمّع أهل حلب عن آخرهم في أحد المساجد وحوّله ، "وكشفوا رؤوسهم ومعهم أطفالهم ، والمصاحف مرفوعة ، وهم يضجون بالدعاء والابتهال إلى الله برفع هذا المقت ، فأقاموا على ذلك أيّاماً" (٣) . يقول ابن الوردي مصوراً ذلك : "قنت الناس لأجله في المصنّعات" ، ويقول : "وكم ليلة سهرناها سهر ليالي الهجر ، ودعونا الله تعالى أنها (سلام هي حتى مطلع الفجر)" (٤) ، وفي خروج نائب حلب مع الناس يقول : "فخرج النائب بحلب لهذه النائية ، ماشياً متفرعاً من نتيجة هذه الكلية السالبة ، وهو يأسى ويأسف ، وعلى رأسه المصحف" (٥) .

وتصور الرسالة اختلاف الآراء في أسباب حدوث الزلزلة ، واعتماد كل صاحب رأي على علمه ، وفي ذلك إشارة إلى محاولتهم تحليل الظواهر الطبيعية ، وتعليلها . وصف ابن الوردي ذلك بقوله : "فالحكيم يقول: هذا بخار ريح احتبس ، والمنجّم يقول : هو من حركة كوكب كالكبس ، وأما الفقيه فينشد فيه : (الكامل)

إني بفعل الله أوّل مؤمنٍ وبما قضاه النجم أوّل كافر

كذب الحكيم فماله من قوّةٍ وذو النجوم فمالهم من ناصر"

وعقّب ابن الوردي على ذلك قائلاً : "فالعلماء أحقق وأحقق ، والشريعة الشريفة أقصد وأصدق" (٦) . ووقوف الفقهاء هذا الموقف إزاء الحكماء والمنجمين منبّهة فيما

(١) ديوان ابن الوردي : ١٤٩ .

(٢) انظر في لجوء العامة إلى المساجد أوقات الشدة السلوك ١ : ٩٢٣ ، ٢ : ٤٤٦ ، ٣ : ١٩٠ ، ١٩٥ ، والنجوم الزاهرة ٩ : ٦٥ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٢ : ١٢٢ ، وبدائع الزهور ١ : ١٤٦ .

(٣) السلوك ٢ : ٦٥٢ .

(٤) ديوان ابن الوردي : ١٥٠ ، والاية من سورة القدر : ٥ .

(٥) نفسه : ١٥٢ .

(٦) نفسه : ١٥٠ .

وخيله ، وجزم برفع الأرض لما جرّ ذيله ، لا عاد من زلزال ، زاع به العقل وزال" (١) .

وقد أصبحت المساجد في العصر المملوكي الأول ملاذاً للعامة الذين يبحثون عن مصادر الاستقرار والطمأنينة ، فعندما تحل بالبلاد مميبة كائنوا يتكبدون خسائر جسيمة تفوق طاقاتهم ؛ فلا يجدون سوى المساجد يلجأون إليها ، يدعون الله فيها أن يرحمهم ، ويرأف بحالهم ، ويرفع عنهم البلاء (٢) . وفي هذه الزلزلة تجمّع أهل حلب عن آخرهم في أحد المساجد وخوّه ، "وكشفوا رؤوسهم ومعهم أطفالهم ، والمصاحف مرفوعة ، وهم يضيجون بالدعاء والابتهال إلى الله برفع هذا المقت ، فأقاموا على ذلك أياماً" (٣) . يقول ابن الوردي مصوراً ذلك : "قنت الناس لآجله في المثلوات" ، ويقول : "وكم ليلة سهرناها سهر ليالي الهجر ، ودعونا الله تعالى أنها (سلام هي حتى مطلع الفجر)" (٤) ، وفي خروج نائب حلب منع الناس يقول : "فخرج النائب بحلب لهذه النائية ، ماشياً متفرعاً من نتيجة هذه الكلية السالبة ، وهو يأسى ويأسف ، وعلى رأسه المصحف" (٥) .

وتصور الرسالة اختلاف الآراء في أسباب حدوث الزلزلة ، واعتماد كل صاحب رأي على علمه ، وفي ذلك إشارة إلى محاولتهم تحليل الظواهر الطبيعية ، وتعليلها . وصف ابن الوردي ذلك بقوله : "فالحكيم يقول : هذا بخار ريح احتبس ، والمنجّس يقول : هو من حركة كوكب كالكبس ، وأما الفقيه فينشد فيه : (الكامل)

إنني بفعل الله أوّل مؤمنٍ وبما قضاه النجم أوّل كافر

كذب الحكيم فماله من قوّة وذو النجوم فمالهم من ناصر

وعقّب ابن الوردي على ذلك قاثلاً : "فالعلماء أحق وأحق ، والشريعة الشريفة أقصد وأصدق" (٦) . ووقوف الفقهاء هذا الموقف إزاء الحكماء والمنجمين منبعه فيما

(١) ديوان ابن الوردي : ١٤٩ .

(٢) انظر في لجوء العامة إلى المساجد أوقات الشدة السلوك ١ : ٩٢٣ ، ٢ : ٤٤٦ ، ٣ : ١٩٠ ، ١٩٥ ، والنجوم الزاهرة ٩ : ٦٥ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٢ : ١٢٢ ، وبدائع الزهور ١ : ١٤٦ .

(٣) السلوك ٢ : ٦٥٢ .

(٤) ديوان ابن الوردي : ١٥٠ ، والاية من سورة القدر : ٥ .

(٥) نفسه : ١٥٢ .

(٦) نفسه : ١٥٠ .

أرى : الحرص الشديد على الدين ، وسوء الفهم لعلاقة الدين بالحياة والعلم .

ويصور ابن الوردي الدمار الذي خلفه الزلزال في حلب على طريقته الخاصة ، فلا تكاد جملة له تخلو من توجيه اصطلاحات لغوية . قال : "ولو رأيت حلب ، وقصد أشرفت على سوء المنقلب ، ووضع لجامعها فروق في أماكن ، وتعلمت منارته باب الإمامة وتحريك الساكن ، فلولا بركة النداء فيها لرخت ، ولكن الله سلّم جمعها فسلمت ، انتفع تأنيثها بشرف التذكير ، وسلم جمعها الصحيح من التفسير" (١) ، وقال متحسراً على منبج (٢) مستخدماً عنوان كتاب كليله ودمنة : "فوا أسفاً على منبج من مدينة جليّة ، أصبحت دمنة وكانت اللّسن عن وصفها كليله ، غشيها قتر وظلمة ، وركبتها ريح سوداء مدلهمة" (٣) .

وفي رسالة (النبا في وصف الوباء) بدأ ابن الوردي بالاستعاذة كما في الرسالة المتقدمة ، وتوسّل بالرسول الكريم لردّ الوباء ، ثم جاء بوصف طويل لحركة الوباء وتنقله بين البلاد من الشرق إلى الغرب حتى وصل إلى حلب ، فكان أثره فيها أقلّ منه في غيرها (٤) . ويصور في رسالته ما كان الوباء يسببه لمن أصيب به بقوله : "ومن الاقدار أنّه يتتبع أهل الدار ، فمتى بصق واحد منهم دماً ، تحقق كلهم عدماً ، ثم يسكن الباصق الاقدار ، بعد ليلتين أو ثلاث" (٥) .

ويبدو من وصف ابن الوردي لمحاولات الاعيان بحلب دفع الوباء عنهم : بالبحث في كتب الادوية ، والاستطباب ، والعدول إلى بعض أصناف من الطعام دون غيرها ، أن العامة لم يكونوا يجدون شيئاً من الرعاية في مثل هذه الاحوال ، وهي صورة مظلمة لمجتمع لا تكافل فيه في الاوقات العصيبة ، قال : "فلو رأيت الاعيان بحلب وهم يطالعون من كتب الطب الغوامض ، ويكثرون في علاجه من أكل النواشف والحوامض ، قد تنغم عيشهم الهني ، بملاطخة مسلم الطيّنة الطين الارمني" ، وقد

(١) ديوان ابن الوردي : ١٥١ .

(٢) منبج . قال ياقوت : "وهو بلد قديم ، وما أظنه إلا رومياً" ، وذكر بعضهم أن أول من بناها كسرى لما غلب على بلاد الشام . وهي إلى الشمال من حلب ، (انظر معجم البلدان ٥ : ٢٠٥) . وهي الآن مركز قضاء في محافظة حلب بسوريا .

(٣) ديوان ابن الوردي : ١٥٣ .

(٤) نفسه : ٨٦-٩٠ .

(٥) نفسه : ٩٠ .

لاطف كل منهم مزاجه وعدل ، وبخسروا ببيوتهم بالعنبر والكافور والسعد والمندل (١) ، وتختصموا بالياقوت وجعلوا البمل والخل من جملة اللذات والقوت ، وأقلوا من اللامراق والفاكهة ، وقربوا إليهم الاثترنج (٢) وما شابهه (٣) . وكثير مما ذكره ابن الوردي من أنواع العلاجات التي مارسها الأغنياء هنا هو من قبيل الشعوذة والجهل .

وقد بلغ الأمر من كثرة الموتى حد^{١٣} أدى بالجنائزية ، وهم من أشد الناس فقرا^{١٤} ، وأقلتهم شأنًا في مجتمع المماليك ، إلى التقاعس عن العمل لما أصبحوا عليه من غنى ، بحيث استغلوا الوضع وصاروا يرفعون أجورهم عن نقل الموتى وتغسيلهم ودفنهم ، فانتقدهم ابن الوردي واصفاً جشعهم قائلاً : "ولو شاهدت كثرة النعوش وحملة الموتى ، وسمعت بكل قطر من حلب نعيًا وصوتًا ، (لولايت منهم فرار) (٤) ، وأبيت فيهم قرارًا ، فلقد كثرت فيها أرزاق الجنائزية ، فلا رزقوا ، وعاشوا بهذا الموسم وعرقوا من الحمل ، فلا عاشوا ولا عرقوا ، فهم يلهون ويلعبون ، ويتقاعدون على الزبون" (٥) .

وعلى نهجه في عرض الآراء في رسالته المتقدمة الذكر ، انتحى ابن الوردي منحنى الفقهاء في رسالته هذه ، فوقف يناظر ، ويجادل المدعين في أمر العدوى ، ويدعو إلى الصبر على البلوى "فهو عبادة" ، وكل من أصيب بالوباء ، فصبر ، ومات ، فقد رزق الشهادة . قال : "هذا وهو للمسلمين شهادة وأجر ، وعلى الكافرين رجز" وزجر ، إذا صبر المسلم على مصيبة ، فالصبر عبادة ، وقد ثبت عن نبينا - صلى الله عليه وسلم - أن "المطعون شهيد" (٦) ، فهذا الثبوت حكم بالشهادة ،... فإن قال قائل : هو يعدي ويبعد ، قل : بل الله (يعبدى ويعيد) (٧) ، وإن جادل الكاذب في دعوى العدوى وتأول ، قلت : قد قال الصادق عليه السلام : (فمن أعدى

(١) نباتات لها رائحة طيبة إذ تحرق .
(٢) شامر حامضة المذاق ، ذهبية اللون ، زكية الرائحة .
(٣) ديوان ابن الوردي : ٩١ .
(٤) سورة الكهف : ١٨ .
(٥) ديوان ابن الوردي : ٩١ .
(٦) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ، دار صادر ، بيروت (١٩٩٠م) ٥ : ٣١٥ .
(٧) سورة البروج : ١٣ .

الاول) (١) ، ولو سلمنا فتكه باهل الدار ، فهو بإرادة الفاعل المختار" (٢) .

وفي الرسالة وصف شعري لطيف لما قام به الناس عندما أيقنوا بالهلاك ، فقام كل يومى بأولاده ، ويودع أصحابه ، ويجهز كفنه ، ويعمل على مصالحة خصومه ، ويزيد من إنفاقه في وجوه الخير ، ويعتق ما عنده من رقاب ، ويستبدل ما فيه من خلال السوء بالسعيد منها ، والتاجر الذي اعتاد الغش قام بملح موازينه ومكاييله .

وقد ختم ابن الوردي رسالته بدعاء إلى الله ، ويوحى دعاؤه بأنه كتب رسالته هذه في أثناء الوباء ، وقد تكون آخر ما كتبه لائسه توفي فيه . كما يوحى بأن الاعتقاد السائد بين الناس كان أن الوباء حل بهم بسبب عميانهم لأوامر الله ، وظلمهم لأنفسهم ، وبما جنت أيديهم من المفساد والمنكرات . جاء فيه : " اللهم إنا ندعوك بأفضل ما دعاك به الداعون ، أن ترفع عنا الوباء والطاعون ، لا نلتجئ في رفعهما إلا إليك ، ولا نعول في العافية منهما إلا عليك ، نعوذ بك يا رب الفلق من الضرب بهذه العصا ، ونسألك رحمتك فهي أوسع من ذنوبنا ولو كانت عدد الرمل والحصي" (٣) .

- المجونيات

أشار محمود رزق سليم إلى مشاركة الرسائل في عرض جوانب من النهو والفساد في المجتمع المملوكي (٤) ، ويبدو أن بروز هذا الجانب من الحياة في عصر المماليك في الشعر كان أوضح منه في الرسائل ، إذ لم تحفظ المصادر من رسائلهم في هذا الموضوع إلا النزر اليسير ، بينما تفيض بالنماذج الشعرية في وصف الخمرة والحشيش والغلمان والجواري والمغامرات .

وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه الرسائل كان يغنشا رياضة للخاطر ،

(١) انظر مسند الإمام أحمد ١ : ٢٦٩ .

(٢) ديوان ابن الوردي : ٩٢-٩٣ .

(٣) نفسه : ٩٤ .

(٤) عمر سلاطين المماليك ٥ : ٢٧٦ ، وانظر الادب في العصر المملوكي ٢ : ١٤ .

واختباراً للقريحة ، لابهذف الوصف لأمر حدث ، أو تجربة وقعت ، وقد أشار ابن الوردي إلى ذلك في خطبة ديوانه بقوله : "إنني أمرت أن أكتب في هذا الكتاب شيئاً من نثري ونظمي ، وها أنا قد أثبت علي به مسطوراً يشهد بقصر فهمي ، وقد يقف الناظر في مجموعي هذا على وصف عذار الحبيب وخده ، ونعت ردفه وقده ، وشكوى عشقه ومده ؛ فيظن لذلك بي الظنون" (١) .

وصف الخمرة ومجالسها

أفاد الكتاب في وصفهم الخمر ومجالسها ، وسقاتها وكؤوسها ، والوانها وأصنافها ، وأشرها في شاربينها ، من معاني أبي نواس ، فتراهم يشبهونها بالحناء ، التي تسلب الحكيم لبه ، ويسقطون عليها صفات الغيد ، ويبدو أن بعض الكتاب كانوا مغرمين باحتسائها ، فبدر الدين بن الصاحب مثلاً كتب رسالة إلى صديقه فخر الدين بن مكاس يدعوه فيها للانضمام إلى مجلس شراب ، وأطال فيها في وصف الخمرة مشوقاً ابن مكاس لحضور مجلسها .

وفي رسالته تشبيهات واستعارات جميلة في وصفها ، حيث جعل منها فتاة لعباء رعاء تحرك الشهوة ، وتدفع إلى ارتكاب المعاصي ، وكأنها لقوة تأثيرها من الحور العين . قال : " يخلع الوقور في حبها العذار ، ويطيعها بالسعد فلك اللهو المدار ، شلة المعاطف ، تقهقه قهقهة الرعونة ، كأنما خلقت نشوانة من الطينة ، يزداد شغرها طيباً في ساعة السحر ، وتعرف عينها المخفية بحسن الأثر" (٢) .

كما وصف ابن الصاحب فعلها في شاربها ، فهو يظن نفسه ملكاً ، وقد ادعى أنها تجمع شمل الأحباب ، وتلين عريكة الشارب فترق طباعه ، وتقلل من إحساسه بالهموم ووطأتها ، فتصفو الحياة بعد كدر . قال : "نديمها يجد في نفسه تخيل المملكة ، ويكاد أن يمد على الدنيا من لؤلؤ حبابها شبكة ،...، تجمع شمل الأحباب ، وتهذب

(١) ديوانه : خطبة الديوان .

(٢) مطالع البدور : ١٥٢ .

الـأخلاق الصـعاب" ، و " تعيد الشيخ مـبـيـاء" ، والمـشـغول خـلـيـاء" (١) .

ولابن فضل الله العمري مقطوعة في وصف خمرة دمشق ، وصف فيها ألوانها وأنواعها ، وتحدث عن شهرتها ، وما تضيفه على الوجه من جمال بعد شربها ، وشبهها بخدود الحسان المشربة بحمرة ، وشبه صفاءها بنقاء اللجين ومياه الغدران . قال : "تنشر كاساتها ألوية حمرا ، وتتوقد في صفحات الخدود حمرا ، فمن حمراء كنار تتلهب ، ومن صفراء كالزجاج المذهب ، ومن بيضاء كأنها نطفة غدير ، أو فضة طافت بها قوارير ، أو وردية تتضاحك في الشفاه اللسع شغورها المفترة ، ويخالطها الصفاء كخد" أبيض تشرب بحمرة ، تنضيء في دجى الليل مصباحا ، وتهدي إلى الجلساء بريحا تفتاحا" (٢) .

أما مجالس الشراب فوصفوا فيها المـحـب ، والقـداح ، والـأيساريق وأنواع الشراب ، وصفوا الاطعمة ، والسقا ، والقيان ، والشموع وما يصاحب ذلك من لهو ومجون ، ومن ذلك قول ابن حبيب الطيبي "في مجلس بانه ينطوي على قيان ، ينشدن البديع من سحر البيان ، لهن أصوات ، توقظ أعين اللذات ،... وفيه أنوع من الشراب تلمع في أوانيها كلمع السراب ،... إلى غير ذلك من روح وريحان ، ومحاسن وإحسان ، ومسموع ومشوم ، ومشروب ومطعم ، وعود يثرق ويحرك ، وميسك في الصحاف يفتت ويغفر ، وقريض يغش ، وعترف ضائع لا يغش" (٣) .

وفي وصف ابن حبيب لهذا المجلس بضعة أسطر في وصف صاحب له أخذت عليه الخمر كل مأخذ بعد انقضاء الشرب فجاء ، فصور ترنحه يمنية ويسرة ، وتحامله على ابن حبيب في الطريق حتى إذا وصل بيته خانت قواه فوقع لاحتراك فيه . قال : "أشرت إلى صاحبي بالنقلة ، وعرفت أنه الليل قد عزم على الرحلة ، فقام يهتز من السكر اهتزاز الأفنان ، وانصرفنا أنا أمشي كالرخ وهو يمشي كالغرشان ، فلما صرنا إلى البيت ، خر صعيقا كالميث" (٤) .

(١) مطالع البدور : ١٥٣ .

(٢) مسالك الأبصار : ١٧٦ - ١٧٧ .

(٣) نسيم الصبا ، ابن حبيب الطيبي ، تصحيح محمود العلاف ، ١٢٨٩ هـ : ٦٠ .

(٤) نسيم الصبا : ٦١ .

ويُعد من الموضوعات التي طرقها أدباء عصر المماليك شعراء ونثراء ، وما كتبوه من رسائل في عشق الغلمان المثرود أشبه ما يكون بالقصص ، إذ يحكي الكاتب في رسالته تجربة متخيّلة ، أو حقيقيّة ، ويسرد أحداثها : من لقاء المصادفة الأولى الذي سلبه لبيّه ، إلى الحديث عن الرقيب العاذل ، إلى اللقاء الموعود ، والهجر والصدود ، ومراسلة الحبيب ، ولايفوت فرصة لوصف جمال حبيبه وبهائمه ، ولطفه ورقّته ، وأدبه وظرفه ، وترى تفصيلاً في وصف الجسد من قدود وخذود ، وعيون وجفون ، وشعر وشفاه ، وريق ، إلى غير ذلك .

ومن هذه الرسائل رسالة لابن أبي حجلة (١) ، وصف فيها عشقه لغلام من شلاشة غلمان رآهم في أثناء تجواله في رياض دمشق ، بدأها بمقدمة وعظيمة ، وكأنه يشير بذلك إلى أن هذه الرسالة من وحي الخيال ، قال فيها بعد حمد الله على نعمه ، وبيان فضله على خلقه ، ووصف أثر المطر في إحياء الأرض : "فحياة الأرض بعد موتها عبرة لمن اعتبر ، وهذا البعث من أعظم الاستدلال عند أهل النظر ، فسبحان من قضى على الخلق بالمحو والإثبات ، وحكم على العقل بالإقرار بالتوحيد لما أقامته آياته البيّنات" (٢) .

وأفاض ابن أبي حجلة في وصف رياض دمشق ، وأطيّارها وأشجارها ، وخضرتها وزهورها ، وخروج أهلها للاستمتاع بما فيها من مناظر ، وطربه لسماع أصوات المغاني وهن يرددن غناءهن على أصوات الدف والمعارف . قال في دمشق : "كل ما تشتهي نفسك فيها وبها البشر والهناء والسرور ، قلت للركب مذ أنخنا عليها ونزلت ولدانها من القصور ، هذه الجنّة ادخلوها بسلام ، بلد طيب ورب غفور" (٣) .

وصف الكاتب بعد ذلك المصادفة التي جمعت بين عشقه ، إذ مرّ به شلاشة غلمان

(١) أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد ، الشهير بابن أبي حجلة ، أصله من تلمسان بالمغرب العربي ، سافر إلى المشرق العربي فأقام في مصر ودمشق ، وكان من أعيان أهل الأدب ، توفي عام ٧٧٦ هـ (المنهل الصافي ٢ : ٢٥٩) .

(٢) الرسالة ، (ميكرو فيلم) بالجامعة الأردنية رقم (١٢٧) : ١-٢ .

(٣) نفسه : ٢ - ٣ .

يتمايلون تمايل الاغصان حركها النسيم ، ويتيهون على الشمس صفاءً ودلالاً ،
وعلى الغزلان رشاقةً واختيالاً . قال: "وإذا أنا بسرب طباء أوانس ، بل دوحة
غصون مواس ،...، فحصل لي تكميل النذة بهذا المعنى ، وشببت بموصول المقاطيع
في منازل الاحباب وما أحسن التشبيب في المغنى ، وأسفر ذلك السرب عن ثلاث أناس
قد أمّنوا من التعزيز ، وامنهم إلا من جعل القلب ميمراً وقال أنا العزيز" .

ولاترى في وصفه الغلام الاول سوى صفات حسنة ، فوصف عيونه الذواويل
الفاثكة ، وقدسه المياد ، وخمره النحيل ، قال بأنه اختان في مشيته "بوجنة"
كجنته أينع روضها ، وأزهر فيه وردها ، عليه دم العشاق منشور ، وثغر تزهو من
صفاء صفاته بحدود النحور ، ومبستسم لو تبسم في الليل سيّر الظلام نهارة" .

وانتقل ابن أبي حجلة إلى وصف الثاني ، وأطال في الحديث عن جسده وسماته
حسنه ، ثم قال يصف أثر نظراته فيه : "بالحاظ كم تركت صباءً مصاباً بالعين
والنظرة ، وأجفان أضلت الناس حين فترة ، أسفر فرائت البدر طالعاً من أطواقه ،
وقد لبس حلة الجمال مصبوغة بدم عشاقه ، رماني بسهم لحظ من قوس الحاجب ،
فصاد بجراح اللحظ قلبي الطائر" (١) .

ويبدو أن كل ما تقدم كان تمهيداً لوصف ثالث الغلمان ، فهو أسمر البشرة ،
له خال في صفحة خده ، يميز مثل غصن هذه الطرب ، وكان صاحبه قد أشارا مكامن
العشق في نفس الكاتب ، فما لبث أن رآه حتى سباه بلحظه ، ورماه بسهمه فأصماه .
قال : "وأقبل الثالث ، وعندي لميبت الغرام منه باعث ، يخطر كالأغصن في
الاعتدال ، بقوام كم أتلّف روحاً ومال . أسمر عمّ السحن بخاله ، وقد نصب صدغه
شركاً فوق القلب في حباله ،...، يختال في حلة زرقاء ، كأنه البدر في أديم
السماء ، تبدو في زرقنتها مشارق أنواره ، فتحبب الشمي طالعةً من إزاره" .

وقع هذا الفتى من قلب ابن أبي حجلة موقعاً لم يملك حياله إلا أن ينساق
وراءه ، ونهاه عن التمهّل والتفكر ما رآه من حسنه فأعلن لمالكه ولاءه ، فما
لجراح سهام الاحاظ شفاء . قال : "فما كانت إلا نظرة أتعبت خاطر ، وغيببت رشد

الحاضر ، ومن أمسى أسير العيون كيف يرجى له خلاص ؟ ومن نصبت على عقليته شراك الجفون .. هيهات ، ولأت حين مناص !".

وقد جرى الكاتب على ماكان عليه الشعراء من وصف دلال المحبوبة على حبيبها ، فذكر أن الغلام لما أن رأى شغفه به تدلل ، ونظر إليه نظرة المعرض المستخف ، فأرق جفن عاشقه ، وأطال ليله ، وأبكى عينه بدمع سخين . قال : "وما هو إلا أن رأى عيني قد انصرفت إليه ، وقلبي قد حل في يديه ، وعلم أن حبسه ملك قبيادي ، وأنه من الثلاثة مرادي، وهو الذي أضرم ناري ، ولكن لشقوتي وقع عليه اختياري ، فرنا ونظر ، وأخذ القلب بلمح البصر" (١) .

ثم وصف الكاتب استنجاهه بأحد أصحابه ؛ لأن الفتى أعرض عنه ، فنمحه بأن يرأسه عن طريقه فوافق ، وذكر نص الرسالة التي كتبها بدموعه ، وذكر فيها شوقه المستعر بين ضلوعه ، وأشجانه وأحزانه ، وأخذ يستعطفه ويذكره بسقامه ونحول جسمه ، وأفاض في وصف لواعج شوقه ، واستطرد في استعطاف معشوقه واسترحامه ، ولاينه في أثناء ذلك بالحديث عن جماله ، وتمنى عليه تحقيق وصاله القريب ، ومن ذلك قوله : "عرضت رقبي ، ووقفت بين الترجي والتمنّي" ، وقوله : "فأسأل الله أن يجمع الشمل بعد الفراق ،... ، نادى الجفن دمعاً فارحاً ، وأمست عنك كأخبار وأنت تعلم ،... ، وأصبح القلب بعموم الوجد مخصوماً ، وأمسى الكرى والمبر : هذا منكراً وهذا منقوصاً" ، وقوله : "أشكو إليك غراماً حكم على القلب سلطانه ، وهوى قد استحوذ على اللب شيطانه ، وجوى تأججت في الحشا نيرانه ،... ، كيف يصحو من سكر الهوى ، من شرب صيرف الشوق بكؤوس النوى" .

وفي ختام رسالته إلى معشوقه طلب لقاء يراه فيه ، وتمنى عليه الرأفة بحاله . قال : "والمراد ساعة أتمثل بها بين يديك ، وأبثّ بعض ما ألقى إليك ، والسلام" (٢) .

تحدث الكاتب بعد ذلك عن إجابة معشوقه إلى طلبه ، فعاد الرسول بمن أرسل

(١) رسالة ابن أبي حجلة : ٨ - ٩ .

(٢) نفسه : ١٠ - ١٣ .

إليه ، ووصف فرحته بقدومه ، وبأخ في ذلك أيما مبالغة فقال : "فقلت ووجهي بقدوم
البدر يتهلل ، ومُحيّاه من الحياء بلؤلؤ العرق يتكلل ، وكنت قد أعددت له ما
يليق بمثله ، ووددت لو فرشت خدي موطئاً لنعله ، وتلقّيته كما يتلقّى المحب
الحبيب ، ورحت ولي من لحظه وشغره سهم ونميب" .

وأسقط ابن أبي حجلة فرحته بلقاء محبوبه على ما حوله من زهور وطيور ،
وأغصان وغزلان ، فترى الورود تخدم معشوقه ، ووصف الليلة التي قضاها معه ،
لكنها ليلة كان العفاف أنيسها ، والادب والظرف واللطافة أضفت عليها جمالا
وسحرا ، فكانت قصيرة مثل لحظات السعادة ، ما إن طلع بدرها حتى أشرقت الشمس
مؤذنة بغيابه . قال يصف تلك الليلة : "في روضة طاب ربها ، وتمسك الطيب بذيل
صباها ، والطبي سارج في نواحيها ، وقد تبسّمت فرحاً به شغور أقاحيها ، والثلث
يثنى في التثنى على قوامه ، والورد من الخجل يستتر بأكمامه ... ، فقطعناها
ليلة ما غاب شفقها ، حتى طلع فلقها ، وكاد يسبق أولها آخرها ، ولم يكن عيبها
إلا تقاصرهما ، فيالها ليلة كانت غرة في جبهة الدهر" (١) .

- رسائل المفازات والمناظرات

وهذه الرسائل غاية في الظرف ، وإن دلت على ضرب من الترف الفكري ، وهي
قائمة على تخيّل الكاتب (٢) ، وقدرته على تلمّس الفروق بين الأشياء ، وتغلب أن
تكون المفازة بين نقيضين كالماء والنار ، والليل والنهار ، أو بين ما يثوهم
فيهما التناقض كالسيف والرمح ، والسيف والقلم ؛ "فيتحدث الكاتب على لسان أحد
الطرفين مُجلبياً محاسنه ، مظهراً خصائصه ، مستهدفاً تفضيله . وقد يتوخى ذكر
معائب الآخر ، حتى يأنهي المحاوراة بالممالحة أو بتغليب أحدهما" (٣) كما قال
الدكتور محمد كامل الفقي .

وتختلف المفازات عن رسائل الوصف ، وإن كان الوصف عمادها ؛ ذلك لأنها تقوم

(١) رسالة ابن أبي حجلة : ١٣ ، وانظر رسائل أخرى في : نهاية الأرب ٨ : ١٤٠ -
١٤٩ ، نسيم الصبا : ٣٥ - ٤٣ ، لوعة الشاكي ودمعة الباكي ، صلاح الدين
المصفي ، مطبعة الجوائب بالستانة ١٢٩٢ هـ .

(٢) عصر سلاطين المماليك ٥ : ٢٦٤ .

(٣) الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢١ .

على الحوار والجدل وسوق الأدلة ، "فتتمشى الحماسة بين سطورها ، وينقلب أسلوبها إلى نمط من الأساليب الخطابية" (١) شعبياء وراء التأشير وكسب الانصار المتخيلين كما رأى محمود رزق سليم ، ويقتضي ذلك أحياناً قلب الحقائق ، وبهجة الزيف . وتوضح نهاية الرسالة موقف الكاتب من كلا المتفاهرين ، وتكون الرسالة في أصلها قائمة على فكرة تحمّلت في ذهنه ، فقام ينشرها ويدافع عنها بما لديه من قوة بيان ، وسموّ خيال .

ذهب الدكتور محمد زغلول سلام إلى أن هذا اللون من الرسائل ظهر في العصر الأيوبي (٢) ، لكنني أميل إلى تقدم ظهورها عن ذلك (٣) ، وأعتقد أن ما قيل في المفاخرة بين السيف والقلم قد يعود إلى مفاخرة أبي تمام بينهما في فتح عمورية (٤) ، وأن المفاخرات بين السيف والرمح قد تكون تأثرت بقصيدة المتنبي في الحدث الحمراء (٥) ، وتفضيله السيف على الرمح فيها .

أورد ابن حبيب في "نسيم الصبا" مفاخرة بين فصول السنة (٦) ، فشخص الفصول وجعلها تحضر مجلس الأدب ، فقام كل فصل منها يتحدث عن نفسه وفنائه وفوائده دون ذكر عيوب الفصول الأخرى ، لكن هذه المفاخرة ليست ناضجة نضج غيرها ، وكأنها إنما أنشئت بغرض الوصف ، فهي أشبه ما تكون بمقطوعات وصفية جمعت معاً ، والحوار فيها ضعيف على غير ما في الرسائل الأخرى .

ومن المفاخرات بين السيف والقلم ما أنشأه الأديبان : ابن السوردي ، وابن نلبانة ، ويلاحظ في هاتين الرسالتين أن الكاتبين حشدا معارفهما الدينية والتاريخية والأدبية ، وكل ما يمكن توظيفه في المفاخرة ، فجاءت كل منهما غاية في الجمال ، وهما متشابهتان إلى حد كبير .

-
- (١) عمر سلاطين المماليك ٥ : ٢٦٣ .
 - (٢) الأدب في العصر المملوكي : ١٦ .
 - (٣) انظر عمر سلاطين المماليك ٥ : ٢٦٥ .
 - (٤) قصيدته : (السيف أصدق أنباء من الكتب) ، ديوانه بتحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م ، ١ : ٤٠ .
 - (٥) قصيدته (على قدر أهل العزم تأتي العزائم) ، ديوانه ، تحقيق عبدالوهاب عزام ، القاهرة ١٩٤٤م : ٣٧٤ .
 - (٦) نسيم الصبا : ١٦ - ٢٠ .

بدأ ابن الوردي رسالته بذكر دواعي إنشائها بقوله : "لما كان السيف والقلم عُدَّتِي العمل والقول ، وعمُدَّتِي الدول فإن عُدَّتِيهما دولة فلاحول ، وركنِي إسناد الملك المعربين عن المخفوف والمرفوع ، ومقدمتي العز والذل الصادر عنهما المحمول والموضوع ، فكرت أيهما أعظم فخراً ، وأعلى قدراً ، فجلست لهما مجلس الحكم والفتوى ، ومثلتهما في الفكر حاضرين للدعوى ، وسويت بين الخصمين في الإكرام ، واستنظقت لسان حالهما للكلام" (١) .

وبعد المقدمة تقسم الرسالة إلى مراحل أربع تتلوها الخاتمة ، وتشمل المرحلة الأولى منها محاوراً طريفة بدأها القلم بذكر فضله ، واستحضار ما جاء في حقّه من الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة ، وأكد على دوره في بناء الأمم ورؤيتيها ، وذكر أنه وسيلة الحرب قبل أن تحرك السيوف من أغمادها ، ثم تلاه السيف فذكر فضله في نشر الدعوة على يد المسلمين الأوائل ، وأنه تشرف بحمل الرسول الكريم له لا للقلم (٢) .

وفي المرحلة الثانية تشدد حدة المفاخرة ، فبدأ كل يعدد مناقبه ومعائب الآخر ، فكان مما قاله القلم : "أنا مخصص بالري وأنت مخصص بالصدى ، أنا آلة الحياة وأنت آلة الردى ، ما كنت إلا بعد دخول السعير ، وما حُددت إلا عن ذنب كبير ، أنت تنفع في العمر ساعة ، وأنا أفني العمر في الطاعة . أنت للرهب ، وأنا للرغب" . فرد عليه السيف : "طالما جعلت بعض فراخي بمصدقك وهي السكين ، فاصبحت من النفثات في عقدك يا مسكين ، فأخلفت من الحشو جثمانك ، وشققت أنفك وقطعت لسانك ، ويحك ! إن كنت للديوان ، فحاسبه مهموم ، أو للإنشاء ، فخادم لمخدوم ، أو للبليغ ، فساحر" مذموم (٣) .

وفي المرحلة الثالثة تصبح المفاخرة مقتصرة على الذم والقدح ، ويصوّر الكاتب في أثناء ذلك سلبيات السيف والقلم ، ولاريب في أن بعض السلبيات كانت

(١) ديوان ابن الوردي : ٧٨ .

(٢) نفسه : ٧٨ - ٨١ ، وانظر ما يثناظه في رسالة ابن نباتة في خزائن الأدب وغاية الأرباب : ٢٣٠ - ٢٣٤ .

(٣) نفسه : ٨١ ، ٨٢ ، وانظر رسالة ابن نباتة في خزائن الأدب وغاية الأرباب : ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

مستمدة من واقع عصره ، فهو عصره كثر فيه القتل والتعذيب ، وراحت فيه الرشاوى والمصادرات والمظالم ، ويبدو أن في ذلك نقدا خفيا موجها لأرباب الوظائف من أرباب السيوف والاقلام . جاء على لسان القلم في ذم السيف قوله : أنت "ابن النار والدخان ، وبأثر الأعمال وخو" ان الإخوان ، تفصل ما لا يفصل ، وتقطع (ما أمر الله به أن يوصل) (١) ،...، يا غراب البيثن ، ويا عدة الحين ، وما معتل" العيثن (٢) ، ويا ذا الوجهين ، كم أفنيت وأعدمت ، وأرملت وأيئتمت" . فكان رد السيف بأن قال : "كم جريت بعكس ، وتمرفت في مكس ، وزورت وحرقت ، ونكسرت وعرفت ، وسطرت هجواً وشتماً ، وخلصدت عارا" وذما" (٣) .

أما في المرحلة الرابعة فيرتب الكاتب حيلة على السيف من القلم ، بعد تهديد السيف له بسطوته وشدته (٤) ، ثم تبدأ حدة اللهجة في المفارقة تتضاءل بعد هذا اللين من القلم ، وتعتبر هذه الملاحظة بداية النهاية في الرسالة ، أجرى ابن نعباة على لسان القلم قولاً لطيفاً بعد أن كال للسيف من السباب والشتائم ما أغاظه فدفعه إلى التهديد ، ومن قول القلم ملاحظة : "أيها المتهلب في قدحه ، والخارج عما ينسب إليه من صفحة ، ما هذه الزيادة في السباب ، والتطفيف في كيئيل الجواب ، وأين علم الشيوخ عند جهل الشباب ، أما كان الأحسن بك أن تترك هذا الرفث ،...، وتحلم كما زعمت أنك السيد ،...، أما تعلم أنني مئعينك في تشييد الممالك ، ورفيقك فيما تسلكه لنفعها من المسالك" (٥) . وقد يفهم من هذه السطور تفضيل ابن نعباة للسيف ، غير أن الرسالتين انتهتا بغير حكم ، بل ترك الكاتبان الحكم للمطلع بعد أن يأخذ بحجج كل طرف .

ومن المناظرات مناظرة طريفة بين القلب والعين كتبها ابن قيسم الجوزية ، وتظهر قراءتها أنها وعظيمة ، يسوق فيها حديثاً عن أثر الهوى في نفس العشاق ، وما يئصيب العاشق من حسرة وأرق ، وكيف تتواجد الجوارح وتتلاوم ، ويُلقي كل

(١) سورة البقرة : ٢٧ .

(٢) المقصود حرف العلّة في (سيف) .

(٣) ديوان ابن الوردي : ٨٢ - ٨٣ ، وانظر نظيره في خزنة الأدب وغاية الأرباب ١ : ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٤) خزنة الأدب ١ : ٢٣٧ ، وانظر ديوان ابن الوردي : ٨٣ .

(٥) نفسه ١ : ٢٣٨ .

بالبلازمة على الآخر ، ويورد في سياق ذلك آيات كريمة وأحاديث شريفة مما يدعو إلى التعطف وصيانة النفس عن الوقوع تحت رحمة الشهوات .

وقد مهدّ ابن قيّم الجوزية لهذه المناظرة بقوله : "لما كانت العين راثداً ، والقلب باعشاً وطالبا ، وهذه لها لذة الرؤية ، وهذا له لذة النظر ، كانا في الهوى شريكين عنان . ولما وقعا في العناء ، واشتركا في البلاء ، أقبل كل منهما يلوم صاحبه ويُعاتبه " .

ثم أقام القلب يحاور العين ويُعاتبها ، ويلومها على ما سبّبت له من حرقه وحسرة ، ذلك بأنها ترتاد مواضع الحسن ، وتتعلق بأذيال الحسان . قال : "أنتِ التي سقتني إلى موارد المهلكات ، وأوقعتني في الحسرات بمتابعتك اللحظات ، ونزّعت طرفك في تلك الرياض ، وطلبت الشفاء من الحديق المراض " .

وبعد أن ساق بعض الآيات والأحاديث في النّهي عن النظر ، والأمر بغضّ البصر ، سيطرت عليه روح الوعظ والنّصح ، فبدأ حديث ابن قيّم الجوزية حديثاً مباشراً ، ومؤدى ذلك النّصح هو التعطف في النظر والقول . قال : "فمن المعلوم ، سوى من رمى صاحبه بالسهم المسموم ؟ أو ما علمت أنه ليس شيء أضر على الإنسان من العين واللسان ؟ فما عطب أكثر من عطب إلا بهما ، وما هلك أكثر من هلك إلا بسببهما ، لله كم من مورد هلكة أورداه ، ومصدر ردى عنه أصدراه ، فمن أحب أن يحيا سعيداً ، أو يعيش حميداً ، فليغض من عنان طرفه ولسانه ليسلم من الضرر ، فإنه كامن" في فضول الكلام وفضول النظر" (١) .

وما أن أنهى القلب عتابه ، والكاتب وعظه ، حتى وقفت العين تجادل وتنافح ، فردت كيد القلب إلى نحره ، وأعادت دعواه عليه ، فدحضت حججه ، وأبانت عوجه ، وتحريفه في القول ، فنميت الهوى إليه ، وأنه باعشها لتجول باحثة عن الحسن ، فهو الحقيق باللوم . قالت : "ظلمتني أولاً وآخراً ، وبؤت بإثمى باطناً وظاهراً ، وما أنا إلا رسولك الداعي ، ورائدك الدال عليك ،...، فأنت الملك المطاع ، ونحن

(١) روضة المحبّين ونزهة المشتاقين ، ابن قيّم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣ م : ١٠٦ - ١٠٧ .

الجنود والاتباع ، أركبكتني في حاجتك خيل الجريد ، ثم أقبلت علي بالتهديد والوعيد ، فلو أمرتني أن أغلق علي بابي ، وأرخي علي حجابي ، لسمعت وأطعت" (١) .

وسار ابن قيّم الجوزية في حديث العين مسيره في حديث القلب ؛ إذ ذكر بعض الايات والاحاديث التي تعد القلب أساساً في سلوك الإنسان المسلم ، ثم أقبل يعظ ، مركزاً على أن امتلاء القلب بحب الله يملك عليه إحساسه ، ويصرفه عن حب سواه . قال مشيراً إلى آثار حب الله : "وأمل بليّتك أنه خلا منك حب الله وحب ذكره وكلامه وأسمائه وصفاته ، وأقبلت علي غيره وأعرضت عنه ،...، فكيف بمن استبدل بمحبّة خالقه وفطره ، ووليّه ومالك أمره ، الذي لا صلاح له ولا فلاح ، ولا نعيم ولا سرور ، ولا فرحة ولا نجاة ، إلا بأن يوحد في الحب ، ويكون أحب إليه من سواه ،...، فلو أقبلت عليه ، وأعرضت عمّن سواه لرأيت العجائب ، ولأمنت من المتالف والمعاطب ، أو ما علمت أنه خص بالفوز والنعيم ، من أتاه بقلبي سليم" (٢) .

وحكّم الكاتب في هذه المناظرة بين الخصمين الكبد ، فهي الحرّى التي تقطع في العشق ألماً ، فادّعت عليهما بأنهما تعاونا على إيذائها ، ثم حكمت بأنهما شريكان في البليّة ، فالعين تلتذّ بالروية ، والقلب يدفعها بتمنّيه وتشهّيه ، ثم تركت الحكم ، بعد أن حكمت مبدئياً باشتراكها في المعصية ، لله سبحانه (٣) .

- النقد والتهكم

وتكشف هذه الرسائل عن علاقات الأدباء بعضهم ببعض في بعض جوانبها ، وبؤلة الأمر ، وهو جانب ظريف لا ريب ، إذ إن ما عودنا عليه أدباء هذا العصر من التملق والمديح المبالغ فيه كاد يطفئ على إنتاجهم من الرسائل .

وأهم هذه الرسائل رسالة "الحرقة للخرقة" في ذم القاضي الرياحي (٤) ، وهي

(١) روضة المحبين : ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) نفسه : ١٠٩ .

(٣) نفسه : ١١٠ - ١١١ . وانظر مفاخرة بين قوسين في كتاب الفروسية لابن قيم الجوزية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٧م : ١١٧ - ١٢٠ .

(٤) شهاب الدين أحمد بن الرياحي ، أول قاض مالكي استقضى في حلب عام ٧٤٨ (انظر تنمة المختصر ٢ : ٤٩٠) .

من إنشاء ابن الوردى ؛ ذلك لأنها تمثل موقفاً جريئاً من السلطة ، والقاضي يعين من قبل الدولة ، وقد كتبها ابن الوردى عام ٧٤٩ هـ ، إذ يذكر أن القاضي أسقط تسعة من الشهود اتهاماً بالزور ، وذكر ذلك في تاريخه عام ٧٤٩ هـ (١) .

وإذا كان ابن الوردى قد صدر في رسالته هذه عن حس صادق ، ورغبة في رفع ظلم القاضي الرياحي والحد من تجاوزاته ، فإن في رسالته ما يدل على أنه كان يطمح إلى تولي ذلك المنصب . قال مخاطباً الرياحي: "هذا وقد أعلمتك أنني لو رضيت الولاية تنقد متلك" (٢) .

قال يصف رسالته ، ويبين سبب إنشائها : "إن نصيحة أولياء الأمر تلزم ، والتنبيه على ممالح العباد قبل عموم الفساد أحزم" ، وهذه رسالة أخلصت فيها النية ، وقدمت بها النصيحة للرعاة والرعية ، أودعتها من جوهر فكري كل شمين ، وناديت بها على هزيل ظلم أبناء جنسي مناداة اللحم السمين ، لكن جنبتها فحش القول إذ لست من أهله ، وخذلتها في ديوان الدهر شاهدة على المسيء بفعله ، ورجوت بها الثواب ، وتحريت فيها الصدق والصواب ، نصرمة للمظلوم ، وغيرة على حملة العلوم" (٣) .

ويبدو أن السبب الأول في إسقاط القاضي للشهود التسعة أنه أخبرهم عندما جاء إلى حلب قاضياً أن الأمير قرايغا (٤) الدوادار أعطاه مبلغاً من المال ليشتري له به في حلب عقاراً ، فلما مات الأمير أكل القاضي المال وأنكره ، وخاف من أولئك أن يكشفوا الأمر فلاحقهم ، وعمل على تشويه سمعتهم ، والظعن في عدالتهم . قال ابن الوردى يصور ظلمه لهم : "أسقط التسعة قهراً ، ونادى عليهم جهراً ، وشاور على تطويقهم في الأسواق والجوامع ، لولا أن منعه من ذلك مانع ، هذا من غير إحضار لهم ولا إعدار ، ولاتقديم دعوى ولا إنذار ، ولا بظلم متظلم ، ولا بكلمة من متكلم ، إلا سطوة وعلو ، واستكباراً في الأرض وعلو ، وخوفاً

(١) تنمة المختصر ٢ : ٥٠٠ ، وانظر ديوانه : ١٥٥ .

(٢) ديوانه : ١٧٢ .

(٣) ديوانه : ١٥٤ - ١٥٥ .

(٤) كان يعمل دواداراً عند نائب دمشق ، وتقدم عنده حتى كان لا يخالف له أمراً ، مات في الطاعون عام ٧٤٩ هـ (انظر الدرر الكامنة ٣ : ٣٢٩) .

على الدرهم والدينار" (١) .

وقد أفاض ابن الوردي في ذم الرياحي ، وعدد ما استطاع من معاييبه من : جهل ، ووقاحة ، وجرأة على الدين وتشهير بأفاضل الناس ، وكذب ، وإسقاط شهود ، وتقريب لأراذل القوم من الفسقة ، وتحريض للنائب على من يكره . قال يصور ذلك : "قاضي سلب الهجوع ، وسكب الدموع ، وأخاف السرب ، وكدر الشرب ، بجرأته التي طمّت وطمّت ، وعامسيّته التي عمت وعمّت ، وفتنته التي بلغت الفراق ، وأسهرت ألف راقد ، ووقاحتها التي أدهشت الألباب ، وأخافت النطف في الأضلاب ، فكم لطخ من زاهد ، وكم أسقط من شاهد ، وكم أربع برياً ، وكم قرب جرياً ، وكم سعى في تكفير سليم . وكم عاقب بعذاب أليم ، وكم قلب ذائب ، بنائبة توسط بها عند النائب" (٢) .

ولم تقف جرأته عند هذا الحد فقط ، بل تجاوزت ذلك حتى طال انتقاده الحكام بمصر ، وذكرهم بأن أفعال الموظفين محسوبة عليهم ، وهم مسؤولون عنها ، ويشير بلفتة لطيفة إلى أثر المنصب في متوليّه ، ويصور المنصب بئسه البرق الخلاب . قال : "هذا مالكيّ معتصب ، قد أسكره الدهر والمنصب ، فلا يفرق بين الأرض والسما ، ولا يعرف عموم الخاصة من خصوص العمى ، حركاته وسكناته مكتوبة عليكم ، ولاندري : أنشكوكم إلى الدهر ، أم نشكو الدهر إليكم" (٣) .

ويصور ابن الوردي وقوف الناس بحلب ضد الرياحي ، وانفضاضهم عن مجلسه ، واستمغارهم له بسبب أفعاله ، وأثر ذلك في القاضي قائلًا : "لما رأى خلّو" مجلسه ، وقلّة مؤنسه ، وانقطاع الأعيان عن داره ، وإهمال الكافة له لصغر مقداره ، قال له رأيّه الفاسد : إلى متى أنت مهجور كاسد ؟ فازدجره وانتهره ، وقبّح حتى تشتهر ، فتأذى وناوا ، وجرح وما داوى ، فطفر الناس عليه بهذه المظفرة ، وما زادهم إلا نفرة" (٤) .

وتعرض الرسالة صراحةً ما كان يبذله بعض الأفراد من الرشاوى في سبيل الحصول

(١) ديوانه : ١٥٦ .
(٢) نفسه : ١٥٥ ، وانظر : ١٥٧ - ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٥ .
(٣) نفسه : ١٦٢ .
(٤) نفسه : ١٦٦ .

على المناصب ، وأن الرياحي ما وصل إلى منصبه ذاك إلا بدفع الرشوة ، وبعد توليه التفه حوله جماعة سوء من الموظفين أمثاله ، فترفع عن الناس ، وأخذ يجمع المال من الرشاوى ويكنزه ، ونسي ما كانت حاله قبل استقضائه . قال ابن الوردي : "نسي جلوسه في السوق ، وأصبح يثبت الفسوق ، نُثقل من الذراع والمقص ، إلى هذا المنصب الأخير ، والله لقد هزلت ، فسُحقا للدنانير وما فعلت" (١) .

وطالب ابن الوردي ولاية الأمر بمصر أن يسارعوا في عزل الرياحي بنبرة فيها شيء من التهديد والتفريع بقوله : "فإن شئتم يا نطظام الدولة أن يقوم وزن هذه البلاد ، فكونوا في عِروض عزله أسباباً تدفع (٢) لكم الاوتاد" ، وكرر التهديد المبطن بقوله : "فذبّوا عن صهوة الشّهاب ، ولبّوا فيها دعوة الايّبنا ، قبل أن يخطوى الجبل ، ويثغر الجمل" (٣) .

(١) ديوانه : ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) في الأصل (تدعو) .

(٣) ديوانه : ١٧٤ - ١٧٥ ، وانظر صبح الاعشى ١٤ : ٢٧٤ - ٢٨٠ ، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون ، الصفي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٩م : ٤٠٤ - ٤١٢ .

الفصل الثاني

أثر الغزوين الصليبي والمغولي في الرسالة الفنية

يُعد عصر المماليك الأول بحق عصر مقاومة وجهاد ، وهو من هذه الناحية امتداد لما بداه الزنكيون والأيوبيون ، غير أنه يمتاز بكثرة المتكالبين على الأمة الإسلامية ؛ إذ واجه المماليك بقايا الصليبيين الذين كانوا قد شتوا لأنفسهم وجوداً قوياً عزّوه بكثير من القلاع والحصون والموانئ ، ومكنوا لاستعمارهم بأعداد كبيرة من الغزاة . كما واجه المماليك هجمة المغول العاتية التي نكبت الأمة بإسقاط الخلافة ، وهدمت ركناء من أركان الحضارة الإنسانية بما أدت إليه من حرق وإتلاف للكتب والمكتبات .

وتجدر الإشارة إلى أن استمرارية الحروب الصليبية أدت إلى تغيير في نمط الحياة بمصر والشام على مختلف الأصعدة ، كما وحدت اهتمامات الأمة ، فأصبح الشغل الشاغل لها رد الغزاة ، والقضاء عليهم ، ووقف زحفهم ، واسترجاع ما بأيديهم من بلاد المسلمين ، وما أن بدأت غزوة المغول حتى ترسّخت هذه التوجهات ، على الرغم من الدّعر الذي بتّه المغول في النفوس .

وقد تزامنت هذه الأخطار الخارجية مع أخرى داخلية مثل صراع المماليك على السلطة (١) ، وانتشار الأوبئة والمجاعات (٢) ، وفتن بعض الطوائف والجماعات (٣) ، ومؤازرة بعض أهل الذمّة في مصر والشام للاعداء (٤) ، وضعف العلاقة بين الطبقة الحاكمة وبين الرعيّة بسبب الظلم والاضطهاد .

وعلى الرغم من تلك الأخطار ، فقد احتفظ المسلمون بعناصر البقاء ، ومقومات الاستمرار ، كما يبين ذلك جهادهم المستمر لأعدائهم . وسأحاول في هذا الفصل أن أدرس أثر الحروب الصليبية والغزو المغولي في الرسالة الفنية ، ومدى مشاركة الكتاب في التعبير عن تطلّعات الأمة .

-
- (١) انظر الجواهر الثمين ٢ : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٦ .
 - (٢) انظر نفسه ٢ : ٧٢ ، ٧٥ ، ١٩٥ ، ٢٦٠ ، السلوك ٢ : ٧٧٢ ، ٣ : ٥٨ ، ٨١-٨٢ ، ١٩٠ ، والنجوم الزاهرة ١٠ : ١٩٥ ، ٣١١ .
 - (٣) انظر كنز الدرر ٩ : ١٧ ، ٤٠ ، النجوم الزاهرة ٩ : ٣٦ .
 - (٤) انظر كنز الدرر ٨ : ٥٢ ، ٩ : ٤٤ ، الجواهر الثمين ٢ : ٦٠ ، السلوك ١ : ٤٢٥ ، النجوم الزاهرة ٧ : ٨٠ .

الرسائل الجهادية

وهي تلك الرسائل التي أنشئت وكان الجهاد الغرض منها ، إما حثاً عليه ، أو بشارته بالنصر ، وإما وصفاً لما دار من أحداث في المعارك . وتجدر الإشارة إلى أن هذا اللون من الرسائل غلب على الرسائل الديوانية في الفترة الواقعة بين بداية حكم المماليك وبين عام ٧٠٢ هـ ، وهي الفترة التي شهدت كثيراً من المعارك مع الغزاة الصليبيين والمغول . ثم أصبحت الحاجة إليها قليلة .

ولقد عكس المماليك عناية شديدة بتنظيم صفوفه ، وإشارة الحمية في نفوس الجند والرعية ، وحشد الطاقات للوقوف في وجه الغزاة ودحرهم ، كما عكس بعضهم بموضوع الجهاد وفنائه كالأشرف خليل الذي طلب من القاضي ابن جماعة (١) تأليف كتاب في ذلك (٢) ، ونظراً لأهمية هذا الموضوع في ذلك العصر كثرت المؤلفات التي تتحدث عنه ، وعن آلياته ، وعمد المنشئون إلى وصفها في رسائلهم وكتبهم (٣) .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرسائل اضطلعت بدور مهم في مراعاة المسلمين مع الغزاة في عصر المماليك ، إذ كان بعضها يشتمل على أساليب الحرب النفسية من إشارة الهمم ، أو تهديد للعدو ، أو السفيرة منه .

- الحث على الجهاد

وتشتمل هذه المكاتبات على "حمد الله تعالى على جميل صنعه في إعزاز الكلمة ، وإسباغ النعمة بإظهار الملّة ، وما وعد الله به من نصر أوليائه ،

(١) بدر الدين محمد بن إبراهيم ، ولد بحماة عام ٦٣٩ هـ وسمع على علماء عصره في اللغة والعربية ، ولي القضاء بمصر ودمشق بين عامي ٦٩٠ هـ و ٧٠١ هـ عدّة مرات ، وفي عام ٧٠٢ هـ عين قاضي القضاة بمصر ثم عزل وأعيد إلى ذلك المنصب عدّة مرات في عهد الناصر إلى أن توفي عام ٧٣٣ هـ (فوات الوفيات ٢ : ٣٥٣ ، الوافي بالوفيات ٢ : ١٨) .

(٢) مستند الأجناد في آلات الجهاد ومختصر في فعل الجهاد ، ابن جماعة ، تحقيق اسامة النقيبدي ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، ١٩٨٣ م : ٩٩-١٠٠ .

(٣) انظر مقدمة تحقيق كتاب السماح في أخبار الرّماح للسيوطي ، تحقيق د. أنور أبوسويلم ود. ماجد الجعفر ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، ع ٣٧ عام ١٩٨٩م : ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، التعريف بالمصطلح الشريف : ٢٦٤-٢٧٣ .

وخذلان أعدائيه" (١) . وعلى المنشء فيها أن يذكر المسلمين بدينهم ، وبغرض الله الجهاد على عباده المؤمنين ، كما جرت العادة أن يذكر المجاهدون بما يلهون عليهم القتال من : جزيل الخواب لهم إن خرجوا في سبيل الله فانتصروا أو استشهدوا ، والوقوع في المذلّة والمتغار إن هم لعدوا عنه (٢) .

وإذا كتب عن الملك إلى أهل الشفور في أوقات حركة العدو ، فإن الكاتب "يبسط القول في وصف العزائم وقوة الهمم ، وشدة الحميّة للدين ، وكثرة العساكر والجيوش ، وسرعة الحركة" ، ويحثهم على التيقظ ، وعلى أن لا يؤتى الدين من قبلهم ، وعليه أن يبرز "ذلك في أمثن كلام ، وأجلّ ، وأمكنه واقربه من القوة والبسالة ، وأبعده من اللين والرقّة ، ويبالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى ، واستئزال نصره وتأييده ، ... ، دون التمرّيح بمسأل بطلان حركتهم ، ورجاء تأخيرهم وانتظار العرّضيات في تخلفهم ، لما في ذلك من إيهاهم الضعف عن لقائهم ، واستشعار الوهن والخوف منهم" (٣) .

قال ابن حبيب يذكر الجهاد وفضائله ، ويحث عليه : "إن الجهاد سطوة الله تعالى على ذوي الفساد ، ونقمة القائمة على أهل الشرك والعناد ، وهو من الفروض الواجبة ، التي لم تزل معهم أصحابه صائبة ، فواظبوا على فعله ، ولا تذهبوا عن مذهبكم ومبيله ، وأطلبوا أعداء الله براً وبحراً ، وقسموا بينهم الفتكات قتلاً وأسراً ، وهاجثوهم بمكروب الحرب ، وناجوههم برسائل الطعن والضرب ، وخذوا من الكفار باليمين ، وجدوا في تحصيل الربح الثمين" (٤) .

وإشارة الهمم ، شحذ العزائم من أجل ما يعنى به الكاتب ، ولذلك أطلوا في ذكر ما يؤدي إليه في رسائلهم ، قال الشهاب الحطبي في رسالته إلى بعض نواب الشفور : "أصدرناها ومنادي النفير قد أعلن بيا خيل الله أركبي ، وبيا ملائكة الرحمن اصحبى ، وبيا وفود الظفر والحايد القربي ، والعزائم قد ركضت على سوابق

(١) صبح الاعشى ٨ : ٢٤٩ .

(٢) نظم ٨ : ٢٥٠ .

(٣) حسن التوفيل : ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٤) صبح الاعشى ٨ : ٢٥٤ .

الركض إلى العِدا ، والهمم قد نهضت إلى عدو الإسلام ، فلو كان في مطلع الشمس
لاستقربت ما بينها وبينه على المدى ، والسيوف قد أنفت من الغمود فكادت تنفر من
قربها ، والاسنة قد ظمئت إلى موارد القلوب فتشوقت إلى الإرتواء من قلبها ،
والكمة قد زارت كالليوث إذا دنت فرائسها ، والجياد قد مرحت لما عودتها من
الانتعال بجماجم الابطال فوارسها" (١) .

وأضاف الشهاب مصورا الثقة بنصر الله تحقيقا لوعده لعباده المؤمنين :
"والنصر قد أشرقت في الوجود دلائله ، والتأييد قد ظهرت في الوجود مخائله ،
وحسن اليقين بالله في إعزاز دينه قد أنبأت بحسن المآل أوائله ، والاسن
باستنزال نصر الله لهجة ، والأرجاء بأرواج القبول أرجة ، والقلوب بعوائد لطف
الله بهذه الأمة مبتهجة" (٢) .

وسعياء إلى تثبيت الطمأنينة في النفوس ، قد يلجأ الكاتب إلى المقابلة بين
جيش المسلمين وبين أعدائهم ، مصورا أولئك بالاستعداد وحسن الاعتقاد ، والقوة ،
ورباطة الجاش ، وأعداءهم بالضعف والذلة والاعتماد على ما بأيديهم من أسلحة ،
لا على الشجاعة والثقة بوعد الله ، ذلك بأنهم سيواجهون قوماً أنزل الله سكينة
عليهم ، ومن ذلك قول ابن حبيب : " .. واطفئوا جمره الشرذمة الغائظة للإسلام ،
ولا تخشوا من جمعهم الايل إلى التفريق ، وحشدهم الذي هو عما قليل - إن شاء
الله تعالى - غريق ، ولا تعبوا بسفنهم الحربية ، فإن سفنكم الخيول المظوقة من
الرياح ، ولا تنظروا إلى مجاديفهم الخشبية ، فإن مجاديفكم السيوف والرماح" (٣) .

وترى الحق على الجهاد في بعض الرسائل التي أنشئت اعتذاراً عن الهزيمة ، أو
في إقامة العذر لمن هزم ، وحضه على معاودة القتال ، والاتخذ بالشار من
الأعداء ، وهي علاج نفسي ناجع ؛ إذ إن عنف الإحساس بالهزيمة قد يؤدي بمن هزم
إلى التخاذل عن معاودة القتال ، وقد تؤدي مرارتها إن أحسن توجيهها إلى الثبات ،
والرغبة الملحة في التعويض عنها بنصر ، ولا شك في أن الكاتب لمثل هذه الرسائل

(١) حسن التوصل : ٢٣٣ ، وانظر صبح الأعشى ٨ : ٢٥٣ .

(٢) نفسه : ٢٣٤ ، وانظر صبح الأعشى ٨ : ٢٥٣ .

(٣) صبح الأعشى ٨ : ٢٥٤ .

يجب أن يتوخى الحرص والدقة في تعبيره عن ذلك ، فكثرة التذكير بموقف الانهزام تورث الحسرة والالتم والتخاذل (١) .

ومن هذه الرسائل رسالة أنشأها الشهاب الحلبي إلى من هزم هو وجيشه ، تتضمن إقامة عذره ، ووصف اجتهاده في المعركة ، ويحثه على معاودة عدوه وطلب شأره . قال فيها على لسان السلطان بعد أن عرّفه بأنه معذور فيما حدث : " والليث إذا جرح كان أشد لشبّاته ، وأمد لوشبّاته ، والموتور لا يمطلي بناره ، والشائر لا يرهب الإقدام على المنون في طلب شأره ، والدهر ذو دول" (٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن هناك رسائل فريدة في الحث على الجهاد في هذا العصر ، ومن هذه الرسائل رسالة من ابن تيمية إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون التي أرسلها إليه يحثه على جهاد المغول بعد هزيمة الناصر عام ٦٩٩ هـ ، وعدة رسائل أرسلها بنبيرس إلى ملك المغول بركة خان يحثه فيها على الجهاد ضد هولاءكو .

بدأ ابن تيمية رسالته إلى الناصر بحشد من الآيات القرآنية التي تحث على الجهاد ، وتعيد عباد الله بالنصر على أعدائه ، ثم دعا للناصر قائلاً : " إلى سلطان المسلمين ، نصر الله به الدين ، وقمع به الكفار والمنافقين ، وأعز به الجند المؤمنين ، وأدأ لهم به على القوم المفسدين" (٣) .

وعاد ابن تيمية إلى تذكير الناصر بوعد الله بأن ينصر دينه ويتمّ نوره ، ثم حشد مجموعة من الأحاديث الشريفة في فضل الجهاد ، مما يذكر بنصر الله ، ومما وعد به النبي الكريم أمته .

وتجدر الإشارة إلى دقة ابن تيمية في التعبير عن الهزيمة ، حيث جعل منها فتنة كفر الله بها الخطايا ، وسبباً في اجتماع كلمة المسلمين حول ولي أمرهم ، ومحرّكاً لهم ومثيراً لعزيماتهم ، وتطهيراً لما في النفوس من الكبر والجهل

(١) صبح الاعشى ٨ : ٢٩٧ .

(٢) حسن التوسل : ٣٨٥ ، وانظر : ٣٨٦ - ٣٨٧ .

(٣) رسالة ابن تيمية إلى الملك الناصر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، بيروت ١٩٧٦م : ٩ - ١٠ .

والظلم ، وبها : " انكشف لعامة المسلمين شرقاء وغرباء خفيفة حال هؤلاء المفسدين الخارجين عن شريعة الإسلام وإن تكلموا بالشهادتين ، وعلم من لم يكن يعلم ما هم عليه من الجهل والظلم والنفاق والتلبيس والبعد عن شرائع الإسلام" (١) .

ولتحقيق ما يصبو إليه ابن تيمية ، وصَفَ للناس تحريك الشوق في نفوس المسلمين للجهاد ، وإقبالهم على البذل في سبيل الله ، وإعدادهم العدة لمؤازرة الجيوش الإسلامية ، وفرحهم لما رأوا استعدادات السلطان للجهاد ، وأتبع ذلك بالحديث عن واجبات المسلمين من الحكام وغيرهم في جهاد أعدائهم . قال : " فإن الله فرض على المسلمين الجهاد بالأموال والآنفس ، والجهاد واجب على كل مسلم قادر ، ومن لم يقدر أن يجاهد بنفسه ، فعليه أن يجاهد بماله" (٢) .

ويبدو أن سيطرة الفكرة على ذهن ابن تيمية جعلته يكرر المعاني، ويستطرد في الكلام ثم يعود إلى التذكير بفرضية الجهاد ، فقد أورد بعض الأحاديث الشريفة والآيات القرآنية مرة أخرى ، وهي هذه المرة مما يذكر المسلمين بمصيرهم إن هم قعدوا عن الجهاد ، ثم ذكر الناصر بقلوله : " فمن ترك الجهاد عذبه الله عذاباً اليماء بالذل وغيره ، ونزع الأمر منه فأعطاه لغيره ، فإن هذا الدين لمن ذب عنه" (٣) .

ويبدو أن في ذلك تهديداً ضمنياً ، وتخويفاً للناس من عاقبة التخاذل ، ويمكن أن يلغزى سبب تمهيد ابن تيمية لكل ما يريد تذكير الناصر به بالآيات والأحاديث لما تقدم ، فهو لا يريد إشارة السلطان عليه ، بل إشارة عزمته للجهاد ، وهو لا يأتي بالكلام من عنده ، بل يستمد من قول الله ورسوله .

وعرض ابن تيمية لكل ما يمكن أن يولد عزم السلطان على الجهاد ، فذكر أن الجهاد يوحد الأمة فإن تركته تشاغلت ببعضها ، وإن بعض المسلمين من المغول ومن هم تحت سيطرتهم مستعدون للمشاركة في المعركة بالحيلة والخدعة . قال : "ومن نعم

(١) رسالة ابن تيمية إلى الملك الناصر : ١٢

(٢) نفسه : ١٣ .

(٣) نفسه : ١٤ .

الله على الأمة أنها اجتمعت على ذلك في الشرق والغرب ، حتى إن المؤمنين من أهل المشرق قد تحركت قلوبهم انتظارا لجنود الله ، وفيهم من نوى أن يخرج مع العدو إذا جمعوا ، ثم إما أن يقفز عنهم ، وإما أن يسوق بهم ، والقلوب السّاعة محترقة مهتزة لنصر الله ورسوله على القوم المفسدين" (١) .

ثم ذكر للناصر وقوع الخلاف بين ملك المغول واخيه وأمه ، ورغبة بعض أمراءهم وقادتهم في الوقوف إلى جانب المسلمين نتيجة سعي بعض الصالحين لذلك ، وعاد مرة أخرى إلى تذكير الناصر بفرضية الجهاد ، وبضرورة استغلال الخلف بينهم . قال : "هناك يكون انتهاز الفرصة ، ولا يحل للمسلمين أن ينتظروهم حتى يطاؤا بلاد المسلمين كما فعلوا عام أول" ، ففي ذلك مذلة للمسلمين (٢) .

وبعد بعض الآيات والاحاديث والأخبار في الحث على الجهاد ، وصف ابن تيمية للملك الناصر خوف المغول من المسلمين ، وما في قلوبهم من الرعب ، وبأن بعضاً منهم اتخذ زي المسلمين لئلا يؤخذوا ، وأبرز فرضية الجهاد مركزاً على عقوبة لعود المسلمين عنه ، وأنهم ما هزموا ولا ذلوا حين قاموا به ، وأموراً تبشر بالنصر على المغول مثل نبوءة في أحد الكتب القديمة .

واقبل ابن تيمية قبل أن ينهي رسالته يعدد فوائد الحركة في سبيل الله ، وفيها تحقيق الطمانينة لأهل البلاد حتى يعمروا ويزرعوا ، ومنها أن البلاد التي احتلها المغول فيها خيرات من حق المسلمين ، ومنها تثبيت المسلمين في بلاد المغول على إسلامهم ، وإشعارهم بقوة الإسلام وحماية المسلمين ، وإلا ارتد بعضهم ، ومنها استعادة ما في البلاد التي احتلها المغول من أموال السلطان ، ثم قال : "فإذا كانت عامة القلوب هناك وهنا مع هذا العسكر المنصور ، وقد أقامه الله سبحانه وأيده ،...، وقلوب العدو في غاية الرعب منه ... ، فمن نعمه على المسلمين أن يبسر غزاة ينصر الله بها دينه هنا وهناك ، وما ذلك على الله بعزيز" .

(١) رسالة ابن تيمية : ١٤ - ١٥ .

(٢) نفسه : ١٦ .

وانهى رسالته مذكراً بحرمة انتظار العدو حتى يدهم البلاد الإسلامية ،
وبوجوب الخروج إليه (١) .

وفي عام ٦٦٠ هـ أرسل الملك الظاهر إلى ملك مغول القفجاق (٢) بركة خان رسالة
يحثه فيها على قتال هولاكو ، ويقيم الدليل على أنه يجب عليه قتال التتار ،
لأنه تواترت الاخبار بإسلامه ، ويترتب ذلك عليه ولو كانوا أهله ، قال فيه :
"وليس الإسلام قولاً باللسان ، والجهد أحد ما له من الأركان ، وقد تناولت
الاخبار بأن هلاون (٣) لأجل زوجته ، وكونها نصرانية ، أقام دين الصليب ، وقدم
مراعاة دين زوجته على دينك" (٤) .

- البشارات بالنصر

وهي من "أعظم المكاتبات خطراً ، وأجلها قدراً" ، لاشتمالها على إنجاز وعد
الله تعالى ، الذي وعد به أهل الطاعة في إظهار دينهم على كل دين (٥) ، ويبدو
أن السلطان كان إذا بشر أحد موظفي السلطنة بالنصر ، فإنه يطلب منه قراءة تلك
البشارة على الأسماع ، وأن يقوم بكتابة مضمونها إلى النيابات لإشهار الخبر ،
وإشاعة البهجة (٦) .

ولم يقتصر في إرسال هذه البشارات على داخل السلطنة ، بل كانت تسير إلى
ملوك المسلمين ، ومن ذلك رسالة (٧) قطز إلى ملك اليمن بعد انتصاره على المغول
عام ٦٥٨ هـ ، وعدة رسائل (٨) من قلاوون وابنه الأشرف خليل إلى اليمن كذلك .

أنشأ محيي الدين بن عبد الظاهر رسالة قطز إلى ملك اليمن يبشره فيها بالنصر

-
- (١) رسالة ابن تيمية : ١٧ - ٢٠ .
 - (٢) انظر في ذلك السلوك ١ : ٤٦٥ ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك :
٣٥٢ - ٣٥٣ .
 - (٣) من أسماء هولاكو .
 - (٤) الروض الزاهر : ٨٨ - ٨٩ ، وانظر : ١٣٩ ، ١٧٠ - ١٧١ ، ٣٧٢ .
 - (٥) صبح الأعشى ٨ : ٣٧٧ .
 - (٦) نظم ٨ : ٣٧٧ ، وانظر ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٢ ، عصر سلاطين المماليك ٥ :
١٤٣ .
 - (٧) صبح الأعشى ٧ : ٣٨٦ .
 - (٨) نظم ٧ : ٣٩٢ ، نهاية العرب ٥ : ١٥٦ ، النجوم الزاهرة ٧ : ٣٢٣ ،
وانظر عصر سلاطين المماليك ٥ : ١٤٤ .

العظيم على المغول في معركة عين جالوت ، وقد افتتح محيي الدين هذه الرسالة بالدعاء لملك اليمن ، ثم بشره بالنصر وهنتاه به . قال : "أعز الله تعالى أنصار المقرّ الشريف العالي ، المولويّ ، السلطانيّ ، الملكيّ ، المنصوريّ ، وأعلى مناره ، وضاعف اقتداره ، نعلمه أنه لما كان النصف من شهر رجب الفرد ، فتح الله تعالى بنصر المسلمين على أعداء الدين" (١) .

ثم وصف محيي الدين النصر ، ومجّده ، إذ كان أشره في النفوس عظيماً ، ولعظمته صمّ الدهر فلن يسمع بمثله ، وترويه الرواة والسمّار ، وهو يوم أشار فيه المجاهدون بخيولهم غباراً ران على البدر فحجبه . قال : "صدرت هذه التهنئة إليه رواية للمدق عن اليوم المحجل الأغرّ" : (الكامل)

يوم غدا بالنقح فيه يهتدي من ضلّ فيه بأنجم المثرّ ان
ففي اذن الدهر من وقعه صم ، وفي عرنين البدر من نقعه شم ، ترفعه رواة الاسل
عن الاسنة ، ويمنده مجرّ العوالي عن مجرى الاعنة (٢) .

وبعد أن رفع من شأن النصر وصف محيي الدين ما دار في المعركة من أحداث ، وكيف حزّب التتار الأحزاب ، وتجمعوا لقاصدين بلاد المسلمين ، لكنهم مكروا ومكر الله فاذلهم ، وخابت ظنونهم ، فال الأمر بهم إلى الندم . قال : "أما النصر الذي شهد الضرب بصحته ، والطعن بنصيحته ، فهو أن التتار - خذلهم الله تعالى - استطالوا على الأيام ، وخاضوا بلاد الشام ، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام... فاعتاضوا عن الصحة بالمرض ، وعن الجواهر بالعرض ، ولقد أرخت الغفلة زمامهم ، وقاد الشيطان خطامهم ، وعاد كيدهم في نحورهم" (٣) .

ثم وصف محيي الدين جيش المسلمين وثباته ، واستعداده للتضحية في سبيل الله ، فهم واشقون بنصر الله ، مؤمنون إيماناً يثبت في مواقف الصبر والجلاد أقدامهم ، وقال : "هذا وعساكر المسلمين مستوطنة في مواطنها ، جاثية عقبانها في وكور ظلبها ، رابضة آسارها في غيل قناها ، وما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه

(١) صبح الاعشى ٧ : ٣٨٦ .

(٢) نفسه ٧ : ٣٨٦ ، والمران هي الرماح الصلبة .

(٣) نفسه ٧ : ٣٨٦ - ٣٨٧ .

راسخة ، ولا ثبتت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة لها ناسخة" (١) .

كما صور ابن عبد الظاهر تصافى الفريقين قبل المواجهة في المعركة ، وانتقال خبر كل فريق إلى الآخر حتى حل الظلام ، وفي سياق ذلك تحدث عن الرهبة التي كانت تملا نفوس الجنود من غدر التتار ، وظهورهم فجأة ، فناموا وهو أيقاظ ، وظلوا على حالهم حتى ظهور عدوهم . قال : "ولم تنزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار ، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين إلى أن خلط الصباح فضتته بذهب الأصيل ، وصار اليوم كالأمس ، ونسخت آية الليل بسورة الشمس ، واكتحلت الأعين بمرود السبات ، وخاف كل من المسلمين إمدار البيات ... إلى أن تراءت العين بالعين" (٢) .

وبعد ذلك وصف محيي الدين المعركة ، وما حل بالمغول من قتل وأسر ، وشجاعة المسلمين في مواجهتهم ، ففلوا حدهم ، وفرقوا جمعهم ، ولحقوهم فلامكان إلا به منهم قتل ، ودارت الدائرة عليهم حتى كان ما حولهم أصبح سلاحاً تصيبهم جراحه ، فلم يبق منهم أحد . قال : "فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نفضوا ، ويترك في بطن كل من المشركين شلوا ، حتى صارت المفاوز دلاصاً ، ومراتع الظبا للظبا عراصة ، واقتنمت آساد المسلمين المشركين اقتناصاً ، ... ، فلا روضة إلا درع ولا جدول إلا حسام ، ولا غمامة إلا نفع ولا وبل إلا سهام ... ، حتى صار كافور الدين شقيقاً ، وتلوّن الحمباء من الدماء عقيقاً ... ، ولقتل من المشركين كل جبار عنيد" (٣) .

ومن رسائل البشارات البارة ، تلك التي أنشأها شهاب الدين محمود الصلبي بفتح المرقب (٤) عام ٦٨٤ هـ ، وأرسلها إلى الملك الصالح علي بن قلاوون ولي عهد أبيه ، بدأها الشهاب بالدعاء لعلي بدعاء مناسب لمضمون الرسالة . قال : "لا زالت آيات النصر تلتلى على سمعه من صف البشائر ، ونفائس الظفر تجلس على

(١) صبح الأعشى ٧ : ٣٨٧ .

(٢) نظم ٧ : ٣٨٧ .

(٣) نظم ٧ : ٣٨٨ .

(٤) قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام (معجم البلدان ٥ : ١٠٨) ، وكان صلاح الدين الأيوبي قد حاول فتحه بعد حطين فلم يتمكن ، والحصن الآن في سوريا قرب بانياس ، وما زالت آثاره وقلعته قائمة إلى الآن (المعالم الأثرية ٢ : ٢٩٢ - ٢٩٥) .

سرّه في أحسن طالع ، وأيمن طائر ، وفواتح الفتح تملئ لديه بما تزهر به
الأسرة ، وتزهر بنوره المنابر" .

وبعد الدعاء له ذكر الشهاب ما كان من حال النصر على الصليبيين في المرقب ،
وما أدى إليه النصر عليهم من فرح وسرور للمسلمين ، وذلة وانكسار لعدوهم ، وكيف
كان هذا الفتح سبباً في قوة الإسلام وأهليه ، وأنه فتح أعان الله فيه المؤمنين
بملائكة من عنده فهو قرين لنصر المسلمين في بدر عظيمة وأشرا . قال الشهاب :
"ويغني أن سطرها والنصر قد لمعت بوارقه ، ونلصب بعد النصب على مفرق
الفرقد سرادقه ، والظفر قد أسفر عن الفتح المبين صباحه ، ... ، والإسلام وقد
وطئ هام الكفر بقدمه ، والدين وقد عز بفتكات سيفه فانف أن يكون الشرك من
خدمه ، ... ، والاملاك وقد نزلت لتشهد أخت النمرة البدرية في مفوها ومواكبها ،
وحصن المرقب وقد ألقت عليه الملة الإسلامية شعار سعداء" (١) .

وقد لجأ الشهاب لتحقيق الأثر السعيد في النفوس إلى التهويل في أمر هذا
الحصن ، حتى يجعل من أمر فتحه معجزة أنعم الله بها على القائد قلاوون ، فهو
حصن تحامت قمده الملوك لمنعته ، ولم يخطر في بال أحدهم أنه يمكن فتحه ، ومن
حاول خاب ظنه ، ويقع في قمة جبل شامخ تحيط به جبال شاهقة ، وحوله خنادق وأودية
سحيقة من هبطها لا خروج له (٢) .

وبعد إطناب في وصف منعته وعلوه ، انتقل الشهاب إلى وصف ما قام به جيش
المسلمين من أساليب القتال لفتح بعد أن فوجئت الجنود بماله من حصانة ، وكان
أول تلك الأساليب نصب المجانيق ؛ السلاح الناجع في معالجة الأسوار والأبراج ،
ثم تبادل الجيشان التقاذف بالحجارة حتى كسرت مجانيق الأعداء ، وعلى الرغم من
شبات العدو ، ومحاولته استبدال ما كسر من مجانيقه ، فإنها أصبحت غير قادرة على
المضي . قال : "ولم يكسر لهم منجنيق إلا ونصبوا آخر بمكانه ، ولاقطعت لأحد
أصبع إلا وصل الآخر ببنايه ، فظلت تتحارب مثل الكماة ، وتتحامل تحامل الرماة ،

(١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٨ - ٢٤٩ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٢) نفسه ٤ : ٢٤٩ - ٢٥٠ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٦ .

حتى لقيت وفست للرضا مجالا* ، ومالت وميل فيها وكذلك الحرب تكون سجالا* (١) .
كما وصف الشهاب أسلوب النقلابين في معالجة الاسوار لإحداث فتحات فيها ، وما
أحدثه ذلك في قلوب الأعداء من رعب أيقنوا معه بالهلاك ، وأدركوا أنه لا سبيل
إلى المجادلة لكنهم صبروا . قال : "لكنهم أظهروا الجلد ، وأخفوا ضرام نار
الجزع" ، ثم وصف بدء المعركة ، حيث زحفت الجيوش وأحاطت بالصور حصارا* محكما* .
قال : "وتدفقت إليهم الجيوش فملأت الألق ، وأحاطت بهم إحاطة الطوق بالعنق ،
ونهضت إليه مستمدة من عزمات سلطانها ، مستعدة لانتزاع أرواح العدا على يديها
من أوطانها" (٢) .

وبعد مزيد من خجارة المجانيق ونيرانها خارت من الحصن قواه ، وانهارت
أبراجه ، وتصدعت أسواره ، وانتشرت النار فأتت على ما وصلت إليه ، ثم أخذ الجيش
المسلم بمهاجمة من فيه ، ولما رأى الأعداء أنه لا قبل لهم بما أمامهم ، أعلنوا
الخضوع ، وبذلوا الطاعة طلبا* لعفو السلطان . قال الشهاب يصف ذلهم في تلك
اللحظات الرائعة : "وثبت منهم من لم يجد وراءه مجالا* ، فلبأوا إلى الأمان ،
وتمسك دنيء كفرهم بعزة الإيمان ، وتشبثوا بساحل العفو حتى ظنوا أنهم أحيط بهم
وجاءهم الموت من كل مكان ، وسألونا أن يكونوا لنا من جملة الصائغ ، وتضرعوا
في أن نجعل أرواحهم لميوفنا من جملة الودائع ، فنتمصدق عليهم بأرواحهم
كرما* ، ... ، وأطلقتهم اليد التي لا يخيب لديها الأمل ، ... ، وخرجوا بنفوس قد
تجردت حتى من الأجسام ، ومثقل طلقت الكرى خوفا* من الموارم التي تسلكها عليهم
الأحلام" (٣) .

وقد ختم الشهاب هذه الرسالة مبشرا* بما حدث من نصر ، وعمل على زيادة
السرور فصور حال الحصن بعد أن علاه شعار الإسلام ، وتحول ما فيه من كنائس إلى
مساجد ، وكيف أصبح الأذان يصدر من المآذن بعد قرح الأجراس ، فقال : "سطرت
والمدينة قد تلمننم أعلاها ، وشعار الإسلام قد جردها من لباس الكفر وأغراها ،

(١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٥٠ - ٢٥١ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٧ .

(٢) نفسه ٤ : ٢٥١ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٧ - ٣٩٨ .

(٣) نفسه ٤ : ٢٥٢ - ٢٥٣ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٨ .

والاعلام قد سلكت إلى ذلك الحصن أعلى مرقي ، والمعادة قد بدلت بيديعه مساجد ومحاريبه قبيلة وكانت شرقاء ، فأصبح يرغل في حبل الإيمان ، وأدعن بالطاعة فأخرس جرس الجرس به صوته الاذان" (١) .

وتجدر الإشارة إلى أن الرسائل المبشرة بالنصر على المغول تحوي وصف المعركة معهم ، وهي في الغلب الاعم بطريق المواجهة في أرض المعركة (٢) ، أما المعارك مع الصليبيين فقد غلب عليها أن تكون عن طريق الحصار لقلاعهم وحصونهم (٣) .

رسائل التهديد

تبادل المسلمون بقيادة المماليك مع أعدائهم رسائل التهديد والوعيد ، وكان الطرف المرسل يزهو بكثرة جيوشه ، وشجاعتهم ، ويحاول أن يدخل في نفس المرسل إليه الغزع والرغبة ، ويدعوه إلى الدخول في طاعته ، والانقياد لما يطلبه منه .

ولقد دارت بعض هذه الرسائل بين المماليك والصليبيين ، وبخاصة في عهدي بيبرس وقلاوون اللذين بلغ الصراع مع الصليبيين أوجه إبان حكمهما . وقد أثبت المسلمون بقيادة هؤلاء براعة نادرة في التعامل مع الغزاة ، واعتمدوا على المفاجأة ، والحيطة والحذر ، والقدرة على التخطيط ، والسرعة في التنفيذ (٤) .

أرسل الفرنج في عكا عام ٦٦١ هـ رسالة إلى الظاهر بيبرس يتهمونه فيها بنقض الهدنة معهم ، ويهددون المسلمين ويتوعدونهم بالتتار ، وكان بيبرس قد عقد معهم هدنة عام ٦٥٩ هـ من شروطها : أن لا يجددوا بناء داخل عكا وما يتبعها ، غير

-
- (١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٥٣ ، صبح الاعشى ٨ : ٣٩٨ - ٣٩٩ .
 - (٢) انظر في ذلك رسائل في : ذيل مرآة الزمان ٤ : ٩٥ ، تاريخ ابن الطرات ٧ : ٢٢٣ - ٢٢٥ ، نهاية الحرب ٥ : ١٦١ - ١٦٤ .
 - (٣) انظر رسائل من ذلك في صبح الاعشى ٧ : ٣٩٢ ، ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٣٨ - ٣٤٣ ، ٣٧٥ - ٣٨٤ ، ٤٤٥ - ٤٤٩ ، نهاية الحرب ٥ : ١٥٦ - ١٦١ ، ٤ : ٢٤٢ - ٢٥٦ .
 - (٤) العمكرية الإسلامية وقادتها العظام ، بهاء الدين محمد اسعد ، مكتبة المنار ، عمان ١٩٨١م : ١٦٢ - ١٦٥ ، وشائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي : ٥٩ .

أنهم خربوا الهدنة ، وشرعوا في بناء أبراج لتحصين أرسوف (١) ، وادّعوا أن ذلك لحماية من "صعاليك المسلمين والتتار" (٢) ، وأرسل بيبرس إلى الصليبيين رسالة تهديد دعاهم فيها إلى إحسان الجيرة ، وكفّ الاذى ، وأوضح في رسالته أن المسلمين لا يخشون التتار ولا غيرهم ، وأكد أنه قادر على الوصول إلى قلاعهم ، والاستيلاء عليها متوعداً بكثرة عساكره (٣) .

ويستفح من بعض رسائل التهديد التي أرسلها بيبرس إلى الصليبيين فهمته الصحيح لطبيعة أعدائه ، وتنبهه إلى ما يحولونه من مؤامرات للإيقاع بالمسلمين ، ومن ذلك أن ملك قبرص وحاكم عكا احتالا على ملكة بيروت (٤) وجعلها تترك مملكتها ليستوليا عليها ؛ فمبجأ أقدر على محاربة المماليك ، إذ كان بين الملكة وبين بيبرس معاهدات تحفظ بموجبها حدود بلاد المسلمين من جهتها ، فأرسل بيبرس يهدد ملك قبرص قائلاً : "هذه الملكة بيني وبينها هدنة ، وما سافر زوجها حتى أودعها عند جاهي ، وعادتها إذا سافرت تستودعني بلادها ، وفي هذه المرة ما سيترك رسولاً ، ولا بد من حضورها ، وأن تتوجه رجلي وتشاهدها ، وإلا أنا أحق ببلادها" (٥) .

ويبدو أن تلك الرسائل كانت تؤتي ثمارها سريعاً ، ففي عام ٦٦٩ هـ ، أغار بيبرس على طرابلس وناوشها ، فأرسل بيمنند ملكها إليه مستفسراً : "ما مراد السلطان بهذه الأرض ؟" ، فكان جواب بيبرس : "جئت لأرعى زروعكم ، وأخرب بلادكم ، ثم أعود إلى حصاركم في العام الآتي" . وقد أوقعت تلك الرسالة في نفس

(١) مدينة ساحلية بين قيسارية ويافا ، احتلها الصليبيون عام ٤٩٤ هـ (معجم البلدان ١ : ١٥٣) ، وظلت بأيديهم حتى حررها بيبرس عام ٦٦٣ هـ (ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣١٨) ، وقد احتلها الصهاينة عام ١٩٤٨ م ، وطردوا سكانها وهدموها ، ولم يبق منها سوى جامعها الذي حولوه إلى محطة رادار ، وأقاموا على أنقاضها مستوطنة ، وأطلقوا عليها اسم (ريشيف) ، انظر بلدانية فلسطين المحتلة ، أنيس صايغ ، بيروت ١٩٦٨ م : ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ١١٧-١١٨ ، ١٥٣-١٥٨ ، وانظر صبح الأعشى ١٤ : ٥٤ .

(٣) انظر الروض الزاهر : ١٥٣ ، الملوك ١ : ٩٦٥ .

(٤) هي الملكة إيزابيلا ابنة جان دي بلين الثاني ، وقعت معاهدة مع بيبرس عام ٦٦٧ هـ ، وكان ملك قبرص يطمع في مملكتها ، حكمت بين عامي ٦٦٢ هـ و ٦٨٠ هـ (الروض الزاهر : ٣٥٨ ، وانظر صبح الأعشى ١٤ : ٤٣ ، ٤٦) .

(٥) تاريخ الدول والملوك ، ابن الخرات ، تحقيق قسطنطين زريق وآخرين ، طبعة الجامعة الأمريكية ، بيروت ١٩٤٢ م ، ٧ : ٣٥ .

ببمئذ الخوف والفرع، فأرسل إلى بيبرس يستعطفه ويسترضيه ويطلب مهادنته إلى عشر سنين (١).

ومن هذه الرسائل، تلك التي أرسلها قلاوون إلى بيمئذ ملك طرابلس يهدده ويطلب منه هدم برج في حصن مرقية (٢) قائلا: "إن العساكر قد تفرغت، وما بقي لها إلا أنت، وهذا البرج أنت الذي عمرته في الحديقة، ولولا إعانتك لما بقي، فانت المؤاخذ به، فإما أن يهدم، وإلا أخذنا قبالتك ما لا ينفعك في الدفع عنه صاحب مرقية، وتندم حيث لا ينفعك الندم"، فما كان من الفرنجي إلا أن نفذ، وقد اشترك المسلمون في هدمه، فلقد أرسل قلاوون فرقة من النكابين لذلك الغرض (٣).

وأول ما نكف عليه من رسائل التهديد بين المغول والمماليك، رسالة شديدة اللهجة أرسلها هولاكو إلى المظفر قطز، وقد حشد فيها منشئها ما يستطيع من عبارات التهديد والوعيد.

بدأ هولاكو رسالته بتذكير المماليك بكونهم عبيداً هربوا من سيوف المغول، مدعيًا بأنه وجيشه جند الله يسلطهم على من يشاء من عباده الظالمين، كما ذكرهم بما حلّ بالبلاد التي رفض أهلها النزول على ما يريده المغول من قتل وتدمير، زاعمًا أن ذلك تطهير لتلك البلاد من الفساد. قال: "يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم... أننا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه وملكنا على من حلّ به غضبه، فلهم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزيج، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا، ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكا. وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد، وظهرنا الأرض

(١) انظر البداية والنهاية ١٣ : ٣٠١.

(٢) قلعة حصينة في سواحل حمص قديمة، كانت خربت فجدد بناءها معاوية بن أبي سفيان ورتب فيها جنوداً (معجم البلدان ٥ : ١٠٩) وكان صاحب مرقية (برتلما) هرب إلى بلاد التتار بعد فتح حصن الكراد على يد بيبرس، ولمّا مات الظاهر عادّ وبنى هذا البرج بمساعدة الصليبيين المجاورين له (تاريخ الأيام والعصور : ٨٧-٨٨، النجوم الزاهرة ٧ : ٣١٦).

(٣) تاريخ الأيام والعصور : ٨٨-٨٩.

من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب" (١) .

وبعد هذه المقدمة خاطب هولاءكو قسطنطين محاولاً إدخال الرهبة في نفسه مستعرضاً قوّته ، وقدرته بما يملكه جيشه من عدّة للحرب ، وبما له من جيوش تندفع كالسيول ، مذكّراً إياه بأنّ لا جدوى من الهرب أو التحصّن . قال : "فأيّ أرض تؤويكم ، وأي طريق تنجيكم ، وأي بلاد تنجيكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعددا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع" (٢) .

والطريف في هذه الرسالة أن هولاءكو حاول إدخال الوهن إلى نفوس المسلمين عن طريق الدين ، فادّعى أن الممالك لا يمتثلون إلى الإسلام بصفة ، فهم لا يتناهون عن منكر ؛ يحرّمون الحلال ، ويحلّون الحرام ، ويسفكون الدماء ، ولا يوفون بالعهود على حدّ زعمه ، وهو بذلك يحاول أن يخفف من ثقتهم بنصر الله لعباده المؤمنين ، وغير خفيّ أن لذلك ما له من الأثر في المعركة ، وللوصول إلى هذا الأثر حشد الكاتب كثيراً من الآيات القرآنية في سياق رسالته . قال : "دعائكم علينا لا ينفع ، فإنكم أكلتم الحرام ، ولا تعفون عند الكلام ، وخنتم العهود والائمان ، وفشا فيكم العلوق والعصيان ، فابشروا بالمذلّة والهوان ، "فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق" وبما كنتم تفسقون ، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون" (٣) .

ثم عاد هولاءكو إلى التهديد المباشر ، عارضاً على الممالك التسليم له والدخول في طاعته ، حاضماً لهم على ذلك بما يوفّره لهم من منع سفك دماهم والتساوي معهم في الحقوق وحسن المعاملة إن أذعنوا . قال : "فمن طلب حربنا ندم ، ومن قعد أماننا سلم ، فإن أنتم بشرطنا ولامرنا أطعتم ، فلکم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذّر من

(١) السلوك ١ : ٤٢٧ .

(٢) نفسه ١ : ٤٢٨ .

(٣) نفسه ١ : ٤٢٨ .

أنذر" (١) .

وانهى هولاء رسالته إلى قطز بتذكيره أن المواجهة لا تفيد ، والقوة لا تنفع ، مطالباً بسرعة ردّ الجواب ، مهدداً بأنهم إن لم يثدعوا لمطالبه فليس لهم إلاّ الذلّة والهوان ، وجاء في ختامها بيتان من الشعر فيهما ذات اللهجة ، وقال : "فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الإهانة ما لملوككم عندنا سبيل . فلا تظيلوا الخطاب ، وأسرعوا بردّ الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمي نحوكم شرارها ، فلا تجدون منّا جاهاً ولا عزاً ، ولا كافياً ولا حِرْزاً ، وتُدْهون منّا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية ، فقد انصغناكم إذ راسلناكم ، وايقظناكم إذ حذرناكم ، فما بقي لنا مقصد سواكم" (٢) .

وقد سبّبت هذه الرسالة إرباكاً وتوتراً في نفوس المماليك ، إذ اجتمعوا ، وحاولوا الخروج برأي واحد ، لكنّ الآراء تضاربت ، ثم أقرّوا قطز على رأيه في ضرورة الخروج إلى القتال ، ووافق قطز على رأي بيبرس في أمر الرسل فَمَلَبَهُمْ (٣) .

ومن رسائل التهديد التي وجهها المغول إلى المماليك ، رسالة ملكهم أبثغا (٤) إلى بيبرس بعد أن هزمهم الأخير في وقعة الأبلستين (٥) وقتل منهم عدداً كبيراً ، وكانت رسالة أبثغا تشتمل على التعريض بجيش بيبرس وخشيته من المواجهة . قال ساخرأ : "إنكم تنقضون حجة كاللصوص ، وتطاردون فرساننا وطلائعنا ، وتقتلون بعضهم ، فإذا ما بلغتنا الأخبار وتحركنا لصدكم تفرّون كاللصوص ، فإذا كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا ، فادخلوا الميدان كالرجال ،

(١) السلوك ١ : ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(٢) نفسه ١ : ٤٢٧ - ٤٢٩ .

(٣) جامع التواريخ في تاريخ المغول ، رشيد الدين بن فضل الله الهمداني ، تعريب محمد نشأت ، ومحمد هنداوي ، وفؤاد الصياد ، الإدارة العامة للثقافة ، القاهرة ١٩٦١م ج ٢ : ١٣١ - ٣١٣ .

(٤) هو أباقا خان أو أباقا إيلخان ، وهو ابن هولاء من سلالة جنكيز خان ، تولى الملك بعد وفاة هولاء سنة ٦٦٣هـ ، ويُنْقَل : إنّه كان ذا كفاية وعلم ودراية ، توفي مسموماً عام ٦٨٠هـ على يد بعض أهله (انظر البداية والنهاية ١٣ : ٣٤٧ ، النجوم الزاهرة ٧ : ٣٤٨) .

(٥) مدينة كانت ببلاد الروم مشهورة ، قريبة من آيسس التي يزعم أنّها مدينة أصحاب الكهف (معجم البلدان ١ : ٧٥) .

وثبتوا الأقدام" (١) .

وعلى الرغم مما في هذه الرسالة من وعيد شديد للسَّهْجَة ، يفتوّح منه خوف بيبرس ، فإن رده كان أشد وقشعاً ، فأرسل إليه يهدده بأنّه سيظل يقاتلهم حتى يحرر جميع ما استولوا عليه من بلاد المسلمين . قال بيبرس : " لا أزال حتى انتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها ، من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض" (٢) .

ولم تنقطع رسائل التهديد بين الطرفين على الرغم من إعلان المغول دخولهم في الإسلام عام ٦٨٠ هـ في فترة حكم ملكهم أحمد (٣) ، فبعد إسلامه أرسل الملك أحمد رسالة تهديد ووعيد إلى قلاوون ، وعلى الرغم من أن فيها دعوة إلى الصلح ونبد الخلافات (٤) ، فإن نزعة الاستعلاء والغرور تطبع الرسالة بطابع غير طابع الصلح والرغبة في المسالمة .

بدأ الملك أحمد رسالته بإخبار قلاوون باعتناقه الإسلام ، وادّعى أن ما يسعى إليه ، وما سعى إليه آباؤه ، هو نصرة دين الإسلام ورفع كلمة الله ، ثم ذكر ما كان من اجتماع كبار قادة المغول بعد تملكه ، وإجماعهم على ضرورة حشد الجيوش لغزو الممالك ، وهو تهديد مبطّن ، وإن كان أحمد قد أخبر قلاوون بعدم موافقته على رأيهم بقوله : "فاجتمع عندنا ... جميع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ... واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير ، في إنقاذ الجمل الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها ، وامتلات الأرض رعباً لعظيم صولتها ، وشديد بطشاتها ، إلى تلك الجهة ..." (٥) .

وبعد أن ذكر الملك أحمد دواعي عدم موافقته على إرسال الجيوش لحرب

(١) جامع التواريخ ج ٢ ق ٢ : ٦٣ .

(٢) البداية والنهاية ١٣ : ٣٢٤ .

(٣) اسمه في الأصل تكُّدَار ، وقد اتخذ اسم أحمد عندما اعتنق الإسلام في بدء سلطنته ، وهو الذي خلف أباً على مملكة المغول واغتاله ابن أخيه أرغون عام ٦٨٣ هـ (انظر في دخول المغول الإسلام تشريف الأيام والعصور : ١-٤ ، البداية والنهاية ١٣ : ٣٤٧) ، وفي ترجمته انظر تشريف الأيام والعصور : ٦١-٦٥ .

(٤) تشريف الأيام والعصور : ٨ ، ٩ .

(٥) نفسه : ٧ .

المماليك ، من رغبة في انتظام المصلح ، وتسكين الفتن ، وحرص على دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ، عاود التهديد مرة أخرى . قال : "إننا لا نحب المسارعة إلى هزّ النصال للفضال ، إلا بعد إيضاح المحجّة ، ولا نأذن لها إلا بعد تبين الحقّ وتركيب الحجّة" (١) .

وأفاض في رسالته في توضيح صدق نيّته ، وصحّة طويّته ، وأطلع قلاوون على ما قام به مما يثبت ذلك ، من إقامة شعائر الدين ، وإصلاح أحوال المسلمين ، وعدم التطرّق لأموالهم ، ورعاية للصالحين والفقراء ، والاهتمام بإقامة المساجد ، ومنع عساكره من التطرّق لبلاد المسلمين المجاورة ، وأبلغ قلاوون أن عسكره قبض على جاسوس للمماليك فأطلقه لحرمة دم المؤمن ، لكنّه أتبع ذلك كلّهُ بتهديد سافر طلباً فيه من قلاوون بذل الطاعة ، وهدّده بما قد يحدث لو لم ينزل على أمره ، قال : "فإنّ" وفقّ الله سلطان مصر لاختيار ما فيه صلاح العالم ، وانتظام أمور بني آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى ، وسلوك الطريقة المثلى بفتح أبواب الطاعة والاتّحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تنعم تلك الممالك والبلاد ، ... ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذلّ والهون ، وإن غلب سوء الظنّ بما تفضّل به واهب الرحمة ، ... ، فقد شكر الله مساعينا ، وأبلى عذرنا ، (وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولا) (٢) .

وقد ردّ قلاوون على هذه الرسالة برسالةٍ أنشأها محيي الدين ابن عبد الظاهر ، وهي بحقّ دالّةٌ على حنكة سياسية عالية ، حيث ردّ فيها على كل فقرةٍ من فقرات الرسالة المتقدّمة أنطاءً ، ودحض فيها مزاعم الملك أحمد ، وجادله حيث احتاج إلى ذلك ، ولاطفه في موضع الملاطفة ، وهدّده في موطن التهديد ، ووافقه على دعوته إلى مدّ جسور الاتّحاد ونبد الخلافات (٣) .

(١) تشريف الأيام والعصور : ٧ .
(٢) تشريف الأيام والعصور : ٩-١٠ وانظر نصّ الرسالة في السلوك ١ : ٩٧٧-٩٨٤ ، والاية من سورة الإسراء : ١٥ .
(٣) الرسالة في الممدر نفسه : ١٠-١٦ ، صبح الأعشى ٧ : ٢٥٧-٢٦٣ ، النهج السديد والدررّ الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، ابن أبي الفضائل ، طبعة باريس ١٩٣٢م : ٥١٠-٥١٥ .

بدأ ابن عبد الظاهر الرسالة بذكر رسالة الملك أحمد واصفاً ما اشتمل عليه خطابه من إعلان إسلامه بالنبي العظيم ، وأعلمه بما لاقتته رسائله من ترحيب واستقبال ، وما أحدثه خبر اعتناقه للإسلام من فرحة في النفوس ، ووصف انتقال الملك إليه بأنه اصطفاً من الله له لما هو عليه من تقوى ، وبأن ذلك تحقيق لبشرى قال بها أولياء الله المقربون (١) .

وكان ردّ قلاوون على تهديدات الملك أحمد بجيوشه الكثيرة ، وعلى رفضه آراء قومه من ضرورة الإسراع في قتال المماليك ردّاً لبقاً ، حيث فسّر ابن عبد الظاهر ذلك بأنّه خوف وتخاذل ، وبأنّه لم يكن نتيجة خوفه وحرصه على دماء المسلمين ورغبته في الاتحاد ، بل كان رهبة من عواقبه الوخيمة عليه وعلى قومه . قال محيي الدين: "... وأنّه أطفأ تلك النائرة ، وسكن تلك الشائنة ، فهذا فعل الملك المتّقّي ، المشفق من قومه على من بقي ، المفكّر في العواقب ، بالرأي الشاقب ، وإلاّ فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم الغرّة ، لكانت تكون هذه الكرّة هي الكرّة ، لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، ولم يوافق قول من ضلّ ولا فعل من غوى" (٢) .

وفي سياق الرسالة نبّه قلاوون الملك أحمد إلى أسبقيّة المماليك في الإسلام ، وأنّ ذلك يعطيهم ميزة عليه وعلى قومه ، وأشار إلى أن إقامة شعائر الإسلام من واجبات الملك المسلم منبّهاً الملك أحمد بأنه لا يجوز له التفاضل بذلك ، بل طالبه بأكثر مما قام به ، ووافقه على ضرورة فتح أبواب الاتحاد ونبد الخلفات ، ثم ردّ على استشهاده بالآية الكريمة : "وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً" ، بقوله : "وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقوله تعالى ... ، فما على هذا النسق من الوعد يثنّسج ، ولا على هذا السبيل يثنّج ، بل لفضل المتقدّم في الدين ونمّره عهد تشرعى ، ... ، ولو تأمل مورد هذه الآية في غير مكانها لتروى وتامل" (٣) .

-
- (١) تشریف الايام والعمور : ١١ ، صبح الاعشى ٧ : ٢٥٩ ، النهج السديد : ٥١٢ .
 (٢) تشریف الايام والعمور : ١١-١٢ ، صبح الاعشى ٧ : ٢٥٩-٢٦٠ ، النهج السديد : ٥١٢-٥١٣ .
 (٣) تشریف الايام والعمور : ١٥ ، صبح الاعشى ٧ : ٢٦٢ ، النهج السديد : ٥١٣ .

وهدد قلاوون ملك المغول في أنحاء مختلفة من الرسالة ، والملاحظ على تهديداته أنها كانت غير مباشرة ، بل فيها نوع من التلميح والإشارة مثل قوله : "...ورأى الله والناس كيف يكون تصافينا ، وإذلال عدونا وإعزاز مضافينا" ، وقال في موضع آخر : "إذا كفّ كفّ العدوان ، وترك المسلمين وما لهم من ممالك ، سكنت الدهماء ، وحلقت الدماء ، وما أحقّه بالألّ ينهى عن خلقٍ ويأتي مثله" (١) .

وأكثر جوانب ردّ قلاوون على رسالة الملك أحمد لباقّة وحكمة كان ردّه على طلبه تحديد موعد ومكان للقاء الجيوش ، حيث تهرّب قلاوون من ذلك تهرّب القادر ، والرّاءع في تحقيق المصالحة وحلّ دماء المسلمين ، والسّياسيّ الذي يستغلّ الفرصة حين ظهورها وإمكان تحقيقها ، فلم يظهر في ردّه خوفاً ، ولا حنقاً ، بل أظهر رغبته في تحقيق الصلح ، وإرساء أواصر الودّ ، فقال : "ومن المشافهة أنّه إن حصل التّصميم على الألّ تبطل هذه الغارات ، ولا تفتّر هذه الإشارات فيلعين مكاناً يكون فيه اللقاء ، ويعطي الله النصر لمن يشاء . فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي اتّفق فيها ملتقى الجمعين مرةً ومرةً ، قد عاف مواردها من سلم من أولئك القوم ، وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم ، فوقت اللقاء علمه عند الله فلا يقدّر ، وما النصر إلّا من عند الله لمن أقدره لا لمن قدّر" (٢) .

وقد أدّت هذه الرسالة إلى تحسين العلاقة بين قلاوون والملك أحمد ، حيث أرسل الأخير وهذا إلى قلاوون لعقد المّتح عام ٦٨٢هـ (٣) .

واستمرّت لغة التهديد والوعيد بين المماليك والمغول على الرّغم من إعلان هؤلاء للإسلام ، ويبدو أن إعلانهم للإسلام كان خدعة منهم كما ذكر ابن عبيد الظاهر (٤) .

(١) تشريف الايام والعصور : ١٦ ، صبح الاعشى ٧ : ٢٦٣ ، النهج السديد : ٥١٣-٥١٤ .
(٢) نفسه : ١٦ ، صبح الاعشى ٧ : ٢٦٤ ، النهج السديد : ٥١٥ .
(٣) انظر تشريف الايام والعصور : ٧٠ .
(٤) نفسه : ٤ ، وانظر رسائل تهديد أخرى في كنز الدرر ٩ : ٥٣ - ٥٦ ، السلوك ١ : ١٠١٨ - ١٠٢٣ ، النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٣ - ١٤٦ ، صبح الاعشى ٧ : ٢٦٦ - ٢٧٢ ، ٨ : ٦٩ - ٧١ .

ويبدو أن هذه الرسائل كانت تترسل إلى أحلاف العدو لتحبيده ، وإخراجه من دائرة الصراع ، فبعد معركة مرج الصفر عام ٧٠٢ هـ ، وانتصار المماليك فيها على المغول ، أرسل الملك الناصر ، رسالة توبيخ وتهديد إلى ممتلك سيبر (١) الأرمني ، حيث كان يقف إلى جانب المغول في تلك المعركة ، وهي من إنشاء شهاب الدين محمود الحلبي .

بدأ الشهاب الحلبي هذه الرسالة بدعاء ساخر له ، قال فيه : "بصره الله برشه ، وأراه مواقع غيئه في الإصرار على مخالفته ونقض عهده ، وأسله بسلامة نفسه عمّن روّعه السيوف الإسلامية بفقده" (٢) .

ثم انتقل إلى وصف المعركة ، وما حلّ بالعدو المغولي من قتل وأسرى مذكراً الملك الأرمني بخداة المغول ونواياهم السيئة ، وأنهم خدعوه ووعدوه بمعسول الأمان ، وبصره بحال الجيوش الإسلامية في النصر على المغول في كل مواجهة ، محاولاً أن يحيده ويثبته عن الوقوف إلى جانبهم ، وبعد توبيخ عنيف له ، حاول استمالته بتذكيره بحسن معاملة المماليك له ولأبائه ورعيته ، ثم قال مهدداً : "ونحن نتحقق أن ما بقي ينسى ملازمة ربة الحنف خناقه ، ولا يرجع يورده نفسه في موارد الهلاك ، وهل يرجع إلى الموت من ذاقه ؟ فيستدرك باب الإنابة قبل أن يغلق دونه ، ويصون نفسه وأهله قبل أن تبتذل السيوف الإسلامية مصونه ، ويبادر إلى الطاعة قبل أن يبذلها فلا تقبل ، ويتمسك بأذيال العفو قبل أن ترفع دونه فلا تمسبل" (٣) .

وبعد أن ذكره بغدر غازان (٤) ، وحاول استمالته بمزيد من الوعود الحسنة قال مهدداً : "والسيوف الآن مصغية إلى جوابه ؛ لتكفّ إن أبصر سبيل الرشاد ، أو تتعوض برؤوس حلماته وكلماته عن الاغمار إن أصرّ على العناد" (٥) .

(١) كانت عاصمة مملكة الأرمن (أرمينيا الصغرى) ، وهي الآن إحدى مدن تركيا في الجنوب منها . أطلق عليها ياقوت سيبيّة . وقال : "بلد هو اليوم أعظم مدن الشغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس" (معجم البلدان ٣ : ٢٩٧) .

(٢) صبح الأعشى ٨ : ٢٥٩ .

(٣) نفسه ٨ : ٢٦١-٢٦١ .

(٤) ملك المغول ، وهو ابن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، تولى الملك عام ٦٩٤ هـ ، وكان بوذياً ثم أسلم . ظل ملكاً على المغول حتى وفاته كمداء عام ٧٠٣ هـ بعد معركة مرج الصفر (فوات الوفيات ٤ : ٩٧) .

(٥) صبح الأعشى ٨ : ٢٦٢ .

- السخرية من العدو

وهذا اللون من الرسائل يثعد من أكثر أساليب الحرب النفسية تأثيراً ، وأشدّها وقعاً في نفوس الأعداء ، فهي تشمل على وصف هزيمته ، وما أصاب جنوده ورعيته من قتل وأسر وسبي ، وما حل بأمواله وممتلكاته من نهب وسلب وحرق وهدم ، وفي ذلك "إيلام خاطره ، وتقطيع قلبه حشرات على ما ناله" (١) . ومن هذه الرسائل ما يحتوي على استهزاء بالعدو المنتصر ، ويسعى فيها الكاتب إلى التقليل من شأن الهزيمة على قوميّه ، ومن شأن النصر لدى أعدائه .

وعلى رأس هذه الرسائل تلك التي وجهها الظاهر بيبرس إلى ملك طرابلس بيمند الصليبي ، وذلك بعد تحرير الظاهر لأنطاكية واستنقاذها من أيدي الصليبيين عام ٦٦٦هـ ، وهي من إنشاء محيي الدين ابن عبد الظاهر . وقد كان بيمند شديد الاندفاع للمسلمين ، وكان أسر منهم خلقاً عندما استولى المغول على بلاد الشام عام ٦٥٨هـ (٢) .

بهذا الفتح العظيم أرسل بيبرس إلى بيمند رسالةً بليغة ، بدأها ابن عبد الظاهر بالخط من رتبة الملك الصليبي لانه فقد ركناء من أركان مملكته ، وصوّره فاقداً لصوابه ، فدعا له بالرشد والسداد في سخرية شديدة ، واستهزاء مؤثّر . قال : "قد علم القوم الجليل...المنتقلة مخاطبته - بأخذ أنطاكية منه - من البرنسيّة إلى القومسيّة ، ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قمده ، وجعل النصيحة محفوظة عنده..." (٣) .

وكان الظاهر قد أغار على أطراف طرابلس قبل غزو أنطاكية ، ولذلك وصف ابن عبد الظاهر ما كان أحدثه جيش المماليك بطرابلس من قتل وأسر ونهب وحرق ، وسخر فيها من بيمند حيث ذكره بمذلته حين غزاه بيبرس في عقر داره ولم يستطع الدفاع عن نفسه وعن أهل مملكته ، وفي ذلك من التقرّيع ما فيه . قال محيي الدين في رسالته

(١) صبح الأعشى ٨ : ٣٠٤ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٣ : ٢٩٢ .

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣٠٩ ، صبح الأعشى ٨ : ٢٩٩ ، والسلوك ١ : ٩٦٦ .

تلك : "لقد علم القوم... ما كان . من قمدنا طرابلس ، وغزونا له في عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمار ، وهدم الأعمار ، وكيف كُنت تلك الكنائس من على بساط الأرض ، ودارت الدوائر على كل دار" (١) .

ثم شرع يذكره بما حلّ بجيشه ورعيته ، وصور له قتلى الصليبيين وقد تراكت جيوفهم حتى أصبحوا كالجزر ، ثم قُطعت الأشجار ونهبوا الأموال وسبوا النساء وغنموا الدواب ، وما ذلك إلاّ لإشارة الحرة في نفسه ، وتلا محيي الدين ذلك مصورا خوف بيمند في ذلك الحين بقوله : "هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتا ، قلت فرعا : عليّ هذا الصوت" (٢) .

وبعد أن ذكره بما أصاب طرابلس ، شرع في وصف فتح المسلمين لأنطاكية ، وهو يذكر ذلك مؤرخا له باليوم والشهر ، ويصف ما أحدثه عنصر المفاجأة في نفوس أهلها من الفزع ، وكيف حاولوا الدفاع عنها فلم يستطيعوا ، وأن كبارهم حاولوا التوسط بين الرهبان وبين بيبس ليؤمن أهلها ، فكان أن رفض الرهبان النزول عنها . قال : ".. وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر ، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك ، وإن بَعَدْنَا فسنعود على الأثر ، وها نحن نعلمك بما تم ، ونفهمك البلاء الذي عم . كان رحيلنا عن طرابلس يوم الأربعاء رابع وعشرين شعبان ، ونزلنا أنطاكية في مستهل شهر رمضان ، وفي حال النزول خرجت عساكرك للمبارزة ، فكسروا ، وتناصروا فما نصروا ، واسر من بينهم كُنُشد امطبل ، فسأل في مراجعة أصحابك ، فدخل المدينة ، فخرج هو وجماعة من رهبانك ، وأعيان أعيانك ، فتحدّثوا معنا ، فرائناهم على رأيك من إتلاف النفوس بالغرض الفاسد ، وأنهم رأيهم في الخير مختلف ، وقولهم في الشر واحد" (٣) .

وبعد هذا العرض التفصيلي لما دار من أحداث ، وجّه ابن عبد الظاهر جلّ اهتمامه لتفريع بيمند ، فأشار إلى أن أهل أنطاكية رفضوا التسليم ظلّنا منهم

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣٠٩ ، صبح الأعشى ٨ : ٢٩٩ ، الملوك ١ : ٩٦٦ .

(٢) الروض الزاهر : ٣١٠ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٣٠ ، الملوك ١ : ٩٦٧ .

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣١١-٣١٠ .

أن يميند سينجدهم ، فكان أن خذلهم ، وظلّ قابعاً في حصنه ، خائفاً أن تطولس
يدّ المنون ، ثم عرض محيي الدين صورةً مشيرةً لما حلّ بأنطاكية على أيدي
المسلمين ، مستغلاً لتحليل الألم في نفس يميند كل ما يمكن أن يغسهم في ذلك من
صور . قال : "وفتحناها بالسيف ... ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحامة
عنها ، وما كان أحد منهم إلا" وعنده شيء من الدنيا ، فما بقي أحد منّا إلا"
وعنده شيء منهم ومنها ، فلو رأيت خيالك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديسارك
والنّهابة فيها تصول والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار ،
وداماتك فكلّ أربع منهنّ تباع فتشتري من مالك بدينار" (١) .

وأتبع محيي الدين هذه الصورة بصورة أشد وقشعا ، وهي مستمدة من عقيدة
المصليبيّ ، فوصف ما حدث للكنائس والاناجيل والصلبان وقبور الرهبان . قال :
" ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت ، وصحفها من الاناجيل المزورة وقد
نشرت ، وقبور البطارقة وقد بشعرت ، ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان
القدّاس ، والمذبح وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشّماس" (٢) .

وتابع ابن عبد الظاهر في رسالته يذكر يميند بتلك الصور المؤلمة ، وبأنه
لو رأى ذلك لمات حسرة وكمداء ، ولبكى بكاء النساء الشواكل ، ثم عدد له محيي
الدين ما استولى عليه المسلمون من بلاد كانت تحت يده ، وكثرة ما قتلوه من
رجاله حتى اصطبغت مياه نهر العاصي بدمائهم المسفوكة . قال : "ولتعلم أنا قد
أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام ، وهو ديركوش (٣) ، وشقيف
تلميس (٤) ، وشقيف كفر دبّين (٥) ، وجميع ما كان لك في بلاد أنطاكية ، واستنزلنا
أصحابك من الميامي ، وأخذناهم بالنواصي ، وفرقناهم في الداني والقاصي" (٦) .

وأكثر مواضع الرسالة إيلاماً للملك الصليبي ، ذلك الذي بشّر فيه بسلامة

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣١٠ .
(٢) نظمته : ٣١١ ، وانظر صبح الاعشى ٨ : ٣٠١-٣٠٠ ، السلوك ١ : ٩٦٧-٩٦٨ .
(٣) حصن قرب أنطاكية (معجم البلدان ٢ : ٤٥٢) .
(٤) في معجم البلدان : تل منّس : حصن قرب معرة النعمان ببلاد الشام (٢ : ٤٤) .
(٥) قلعة صغيرة قرب أنطاكية ، ودبّين ضيعة كاربض لها (معجم البلدان ٣ : ٣٥٦) .
(٦) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣١٢ ، صبح الاعشى ٨ : ٣٠١ - ٣٠٢ ، السلوك ١ : ٩٦٨ .

نفسه ، ونجاته من الموت أو الأسر أو الجرح ، وسخر فيه محيي الدين من بيمند سخرية لاذعة ، إذ جعل التأخير في أجل بيمند إنظاراً له ليدخل في طاعة بيبرس ، ويعوض ما فاتته من فروض الخدمة . قال : "وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة ، وطول العمر بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة ، وكونك ما كنت بها فتكون إما قتيلاً وإما أسيراً ، وإما جريحاً وإما كسيراً ، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي إذا شاهد الاموات، ولعل الله ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات" (١) .

وأنهى محيي الدين رسالته بتهكم شديد ، أخبره فيه السبب وراء كتابة هذه الرسالة له ، فزعم أن أهل أنطاكية لم يبق منهم أحد يخبر بيمند بما جرى ، وأخبره بأن الرسالة تهدف إلى تبشيره بسلامته ، وطلب منه أن يصدق ما يرسله بيبرس إليه من أخبار بعد هذه المعركة . قال : "ولما لم يعلم أحد يخبرك بما جرى خبرناك ، ولما لم يقدر أحد يباشر بالبرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشئناك ، لتحقق الأمر على ما جرى ، وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً ، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لاتسأل غيرها مخبراً" .

قال محيي الدين : "ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه ، ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب" (٢) .

وفي عام ٦٦٩ هـ استولى بيبرس على حصن الأكراد ، فانهزم الفرنج إلى تلة قريبة منه ، فتبعهم المسلمون ، وأحضروا منهم جماعة ، وأطلقهم صدقة عن ولده الملك السعيد ، وأمن جميع الفرنج على أنهم يتوجهون إلى بلادهم ، ثم تسلم الحصن (٣) . ثم أرسل بيبرس رسالة إلى ملك عكا يسخر فيها منه ، إذ كان إخوته يحكمون في ذلك الحصن ، وقد أنشأ تلك الرسالة محيي الدين بن عبد الظاهر (٤) .

(١) انظر الحاشية (٦) .

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣١٣ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٠٢ ، السلوك ٩٦٩ : ١ .

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣٧٥-٣٧٦ ، البداية والنهاية ١٣ : ٣٠١ .

(٤) انظر الروض الزاهر : ٣٧٦ .

وفي العام ذاته استولى بيبرس على حصن عكار (١) ، وأطلق من فيه ، ومن عليهم ورحلهم إلى طرابلس ، وتسلم القلعة بعد عشرة أيام ، وحوّل كنيستها إلى جامع (٢) ، وعلى أثر هذا الانتصار أرسل بيبرس إلى بيمند الصليبي رسالة فاضت بعبارات الفخر بقوة عساكر المسلمين الذين نقلوا المنجنيقات إلى أعالي جبال شافقة ، صعبة المسالك حتى على الطيور إن أرادت بناء أوكار لها فيها ، ونقلوا أسلحتهم في أودية سحيقة ، ولم يبالوا بحرارة الشمس ، ولا شدة الأمطار وكثرة الأحوال (٣) .

وبعد طول وصف لجيش المسلمين بشر محيي الدين بيمند الصليبي بهزيمته ، وركز على الجانب الديني ، فذكر له أن كنائسه تحولت في حصن عكار لمساجد يثرع فيها اسم الله بدلا من ضرب النواقيس ، ووصف له ما حل بجنوده ، وكيف أطلق السلطان بيبرس من بقي منهم ، قال : "وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الاضطراب نلصق مكان علمك الأحمر ، وأن صوت الناقوس صار عوضه الله أكبر ، ومن بقي من رجالك أطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح ، وسلموا ولكن من ندب السيوف إلى بكاء النواحي" .

وختم ابن عبد الظاهر رسالته بتهديد لبيمند ، بعد أن وصف بتهكم ما حلّ بأهل عكار ، وأن بيبرس أطلق من بقي من أهلها مَنَاءً ، ورغبة منه في أن يخبروا بيمند بما حدث ، قال : "ويفهموكم أنه ما بقي من حياتكم إلا القليل ، وأنهم ما تركونا إلا على رحيل..." ، وأتبع ذلك بقوله : "يعلم القوم هذه الجملة المسرودة ويعمل بها ، وإلا فليجهز مراكبه ومراكب أصحابه ، وإلا فقد جهّزنا قيودهم وقيوده" (٤) .

ومن هذه الرسائل تلك التي أرسلها الناصر محمد بن قلاوون إلى غازان ملك المغول بعد معركة مرج الصفر عام ٧٠٢ هـ ، التي انتصر فيها المماليك ، وهي

-
- (١) في البداية والنهاية (عكا) ، وهو خطأ إذ فتحت عكا بعد ذلك على يد الأشرف خليل .
 (٢) انظر البداية والنهاية ١٣ : ٣٠١ .
 (٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣٨١ ، السلوك ١ : ٩٧٢ .
 (٤) نفسه : ٣٨١ ، السلوك ١ : ٩٧٣ ، وانظر الروض الزاهر : ٣٨٦-٣٨٨ ، البداية والنهاية ١٣ : ٣٠١-٣٠٢ ، السلوك ١ : ٥٩٤ .

متأثرة برسالة محيي الدين بن عبد الظاهر الأولى إلى بيمند ، وبخاصة في وصف ما حلّ بجيش المغول من هزيمة نكراء (١) .

- صورة النمر

يبدو أن البياس كان مسيطرًا على النفوس قبل تحقيق الممالك انتصاراتهم الرائعة على الصليبيين والمغول ، وقد أدت النزاعات التي قامت بين الملوك اللاتينيين بعد صلاح الدين إلى تقوية الشعور بالضعف عند المسلمين ، حيث تنازل خلفاء صلاح الدين عن بيت المقدس مرتين عام ٦٢٦ هـ وعام ٦٤١ هـ (٢) ، وقد أدى الخوف من حركة المغول غربًا باتجاه بغداد إلى انتشار الإحباط والوهن (٣) ، و زادت النزاعات بين الممالك في بداية حكمهم ذلك الإحساس قوة .

ولذلك كانت الانتصارات على الأعداء ذات أثر كبير في النفوس ، إذ كانت تنظم الاحتفالات وتزين البلاد والطرق ، ويحيي الناس ليالي أفرح يشارك فيها الجميع ، ومن ذلك ما حدث بعد النصر على المغول في عين جالوت عام ٦٥٨ هـ (٤) ، وكذلك بعد فتح عكا على يد الأشرف عام ٦٩٠ هـ (٥) ، وقد عبر الكتاب في رسائلهم عن مظاهر الفرح التي خلقتها الانتصارات ، ومن ذلك قول علاء الدين بن عبد الظاهر في رسالته بالنصر على المغول في مرج المشرق عام ٧٠٢ هـ يصف زينة دمشق عندما دخلها الناصر محمد : "قد أخذت زخرفها وأزينت ، وتبرجت محاسنها للناظر وما بانت بل تبيّنت ، وكادت جذرها تسعى للقاءه لتؤدي السنة من خدمته والفرض ،... ، وعادت المآتم بدمشق أفرحاء وأعراساً ، وربوع الهناء قد عوضها أمن مقدمه الوحشة إيناماً ، والقلعة بالآلات حصارها مزيّنة..." (٦) .

ويبدو أن ما عانته الأمة من ويلات الحروب مع الصليبيين والمغول ، كان له دور في تمجيد الانتصارات ، فعلى الرغم من أن بعض المعارك كانت قليلة الأهمية

-
- (١) انظر نص الرسالة في كنز الدرر ٩ : ١١٩ - ١٢٢ .
 - (٢) انظر تفصيل ذلك في بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، د. عبد الجليل عبد المهدي ، دار البشير ، عمان ١٩٨٩م : ١٨٠ - ١٨٥ ، ٢١٦ ، ٢١٩ .
 - (٣) انظر المختصر في أخبار البشر ٣ : ٢٠٥ .
 - (٤) نفسه ٣ : ٢٠٥ .
 - (٥) انظر البداية والنهاية ١٣ : ٣٧٨ .
 - (٦) السلوك ١ : ١٠٣٤ ، وانظر : ١٠٣٥ - ١٠٣٩ .

عسكرياً ، وبعضها الآخر كان إنجازاً عظيماً ، وتحولاً حاسماً في مسار الصراع مع الغزاة ، فإن عناية الكتاب بتمجيد تلك الانتصارات ، مهما تضاعل أثرها ، كانت متساوية تقريباً .

يصور الكتاب النصر بأنه يشبه الخيال فلا تتطرق إليه الظنون ، وبأنه ما كان ليوقع في الحساب حدوثه ، وبأن الملوك المتقدمين حاولوا تحصيله فوقعوا دون مرأه . قال ابن عبد الظاهر في فتح طرابلس الشام : "وكانت طرابلس هي ضالة الإسلام الشريفة ، وإحدى آبقاته من الأعوام العديدة ، وكلما مرت شمخت بأنفها ، وتأنقت في تحسين منارة منازلها ، وتزيين ريحانها وعصفها ، ومرت وهي لا تغازل ملكاً بطرفها ، وكلما تقدم عهدا تكثر بالافواج ، والامواج من بين يديها ومن خلفها ،... ما قصد أحد شطها بنكاية إلا شطاً واشتط" (١) .

كما صوروا محاولات الملوك المتقدمين الفاشلة ، وذلك للإعلاء من شأن السلطان الذي تحقق النصر على يديه ، فما كان تحصيله إلا بجهد صاعد ، وسعي دائب ، وهمة عالية . قال الشهاب محمود في فتح قلعة المرقب على يد قلاوون : "وقد أحاطت العلوم بأن هذا الحصن طالما شحت الأحلام ، أن تخيل فتحه لمن سلف من الأنام ، فما حدثت الملوك أنفسهم بقصدته إلا وشناهها الخجل ، ولاخطبتته ببذل النفائس والنفوس ، إلا وكانت من الحرمان على ثقة ، ومن معاجلة الأجل على وجل" (٢) .

وعلى الرغم مما كان للانتصار في عين جالوت من أثر في تحول مسار الصراع مع المغول ، فإنني لم أجد له صدً فيما اطلعت عليه من رسائل بالمستوى الذي كان للانتصارات على الصليبيين ، فكل ما وجدته بشأنه رسالة بشرى أرسلها قطز إلى ملك اليمن ، وقد تقدم ذكرها في البشارات بالنصر (٣) .

ومن صور تمجيد الانتصارات الربط بينها وبين المعارك الإسلامية العظيمة ذات

(١) صبح الاعشى ٧ : ٣٩٤ .

(٢) صبح الاعشى ٨ : ٣٩٦ ، وانظر ٧ : ٣٩٧ ، ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٣) انظر صبح الاعشى ٧ : ٣٨٦ .

الآثر في التاريخ الإسلامي ، وبخاصة معركة بدر ، كما ربطوا بين السلاطين الفاتحين وبين القادة البارزين في التاريخ الإسلامي مثل خالد بن الوليد (١) .
 قرن ابن عبد الظاهر نصر قلاوون على المغول عام ٦٧٨ هـ بيوم بدر بقوله : " وهي النعمة التي عاد بها عمر الإسلام فتية " ، وكوكب سعدة مضيئة ، ويوم نصره بدرياً " (٢) وما ذلك الربط إلا للدلالة على عظم انتصارات سلاطينهم ، وإعجاباً منهم بمن تقدم من قادة المسلمين .

وينسب الكتاب النصر إلى الله سبحانه ، فهو الذي وعد عباده المخلصين بظهور دينه على كل دين ؛ ولذلك تراهم يتحدثون عن نزول الملائكة لمساعدة الجيش المسلم ، ولاتكاد رسالة بشرى بالنصر لهم تخلو من هذه المعاني ، ويقرنون ذلك بذكر سلاطينهم ، ورعاية الله لهم ، إشادة بهم لقيامهم بأمر الجهاد ضد أعداء الدين ، ومحافظتهم على ديار المسلمين ودمائهم وأموالهم وأعراضهم ، قال ابن الظاهر يصف ذلك في رسالته المتقدمة : " أرسل الله ملائكة النصر ترمي ، وجرد سيوف الظفر تجز الرقاب وتقدمي . وثبت مولانا السلطان ثبوتاً ما سُمع أن سلطاناً شبيهه ، واطلع الله على ما نواه من نصر الدين فتقبله بقبول حسن وأنبته " (٣) .

إن رسائل البشارات بالنصر ، وهي تشير إلى اليأس الذي كان مستوطناً في النفوس ، لترسم صوراً مشرقة للنشوة والطرح الغامر بعد الانتصار ، وما من شك في أن الفرحة هي بانتصار الإسلام ، وهزيمة أعدائه وانكسار شوكتهم ، وزوال الاحتلال البغيض .

وترى مشاعر البهجة لابين أهل الأرض وحسب ، بل جعل الكتاب الفرحة تعم الأرض والسماء ، فتتهلل الملائكة فرحاً ، وترفع دعاءها إلى الله تعالى أن يكلأ السلطان برعايته . قال محيي الدين يصف انتصار قلاوون على المغول عام ٦٧٨ هـ : " وأصبح بها أهل التهائم والنجود في هناء ، وملائكة السماء في شكر لسلطان

(١) انظر تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٤ ، السلوك ١ : ١٠٣٣ ، النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٥ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٣ ، وانظر صبح الأعشى ٨ : ٣٩٦ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٤ ، وانظر صبح الأعشى ٨ : ٣٩٥ - ٣٩٦ ، ذيل مرآة الزمان ٤ : ٩٠ - ٩٦ .

الإسلام ودعاء ، وكادت قبلها قلوب الجبال أن تتصدع ، ودموع السحاب أن تتشرع ، وأكباد البید أن تتقطع" (١) .

ويصور ابن العجمي أثر فتح حصن الشقيف (٢) بأن المنابر طربت لسماع خبره فخشعت ، ونشرت في الافاق ذكره ، وسرت به القلوب بعد وجل ، فكان حياء أعاد إليها الحياة والامل ، وتهللت به وجوه المؤمنين بعد أن علاها رهق الخوف (٣) .

ومما اهتموا به أثر النصر في قوة الاعداء العسكرية والمعنوية ، وما أدى إليه من رهب في بقاياهم يثعين على قراهم . قال محيي الدين في أثر فتح حصن الاكراد في غيره من الحصون : "والبلاد الفرنجية قد غلضت منها الابصار وخشعت القلوب ، واعتقد كل منها في نفسه أنه بعد هذا الحصن المطلوب ، فهذه تود لو اكننتها البحار تحت جناح أمواجها ، وهذه لو أسبلت الرياح العواصف عليها ذيول عجاجها ، وهذه لو اجتشت من فوق الأرض فما لها من قرار ، وهذه لو خفس بها الثرى وعفت منها الاثار ، وذلك لما بلغهم وشاهدوه من ويل حل بأهل هذا الحصن المنيع" (٤) .

وللنصر آثار كثيرة ، منها : الديني ، والعسكري ، والنفسي ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، وقد لا تظهر هذه الاثار في آن معاً ؛ إذ يكون ذهن الكاتب منصرفاً إلى واحد ، أو أكثر ، منها في رسالته .

ويتمثل الاثر الديني للانتصارات في قوة الإسلام وذلة الكفر ، وعودة البلاد والعباد إلى ظل الإسلام وأمنه . كما يتمثل في سعادة المسلمين به ، وإحساسهم بنعمة الله عليهم ، وثقتهم بنصره الذي وعد . قال علاء الدين بن عبد الظاهر في أثر النصر في مرج الصفر عام ٧٠٢هـ بأنه من الوقائع التي : "استقر بها الملك في مهاد السكون بعد القلق ، وتبدلت بها الملة الإسلامية الآمن بعد الفرق ، وأضحى

(١) تاريخ ابن الخرات ٧ : ٢٢٤ ، وانظر الملوك ١ : ١٠٠٤ .
(٢) الملقود هو شقيف أرنون ، وكان قلعة حصينة في قمة جبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل (معجم البلدان ٣ : ٢٥٦) وهو الآن يعرف بقلعة الشقيف ، قرب قرية في قضاء النبطية بجنوب لبنان .
(٣) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٧٧ ، وانظر الملوك ١ : ١٠٣٣ .
(٤) صبح الاعشى ٧ : ٣٨٢ .

بها وجه الإسلام سافراً بعد تقطيعه ، وطلع بها بدر المرور كاملاً بعد مغيبه ، وعمت الأيام إحساناً من الملك وحسنه (١) .

وترى الأعداء النفسية والعسكرية فيما أشرت إليه آنفاً من حلول الفزع في نفوس الأعداء ، وتراه أوضح في تحول القلاع والحصون من مراكز أذى للمسلمين إلى حصون لهم يستخدمونها ضد أعدائهم . قال ابن العجمي بأن فتح قلعة الشقيف كان كسباً عسكرياً ، إذ "كانت المجانيق ترمي عليها ، فصارت ترمي منها ، وتصدر حجارتها إليها ، فصارت تصدر عنها ، وتملكناها معقلاً شيده لنا العدو وبناءه ، وحصناً منيعاً دافع عنه حتى تعب فلما تعب أخلاه وخلاه ، وأصبح ، بحمد الله ، شك فتوحها لنا يقيناً ، وما كان من خنادقها وأسوارها يقي الكفار غدا يقي عساكرنا المنصورة ويقيناً" (٢) .

أما الآثار الاقتصادية والاجتماعية للانتصارات ، فنراها في حديث الكتاب عن الغنائم التي حصلت عليها الجيوش بعد المعارك ، ولم أجد حديثاً عن الغنائم سوى في رسالتين لابن عبد الظاهر ، أولاهما رسالته إلى بيمند بعد تحرير أنطاكية ، والآخرى رسالته في وصف غزوة بيبرس للقيصرية (٣) الروم ، كما لم ألق على ذكر المبایا سوى في أولى الرسالتين المتقدمتين . قال فيها مخاطباً بيمند : "فارقنا بلادك وما بقيت فيها ماشية إلا وهي لدينا ماشية ، ولاجارية إلا وهي في ملكنا جارية ، ولاسارية إلا وهي بين أيدي المعاول سارية ، ولازرع إلا وهو محصود ، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود" ، وقال كذلك : "... وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي ، وكيف استغنى الفقير ، وتاهل العازب ، واستخدم الخديم ، وركب الماشي" (٤) .

كما صور ما غنمه الجيش المسلم من المغول في رسالته الثانية بقوله : "وأما

-
- (١) السلوك ١ : ١٠٢٨ ، وانظر ذيل مرآة الزمان ٤ : ٩٦ ، ٢٤٤ ، ٢٥٦ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٥ ، كنز الدرر ٩ : ١٢١ ، نهاية الأرب ٥ : ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ .
 (٢) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٨٠ .
 (٣) أو قيصرية ، مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم ، كانت كرسي ملك بني سلجوق (معجم البلدان ٤ : ٤٢١) ، وهي الآن مدينة في أواسط تركيا ، وما زالت تحتفظ ببعض آثارها القديمة ، واسمها قيصريّة .
 (٤) الروض الزاهر : ٣٠٩ ، ٣١٠ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٠٥ .

العدو ، فتقاسمت الأيدي ما يمتطونه من المواهل والمواهن ، وما يصولون به من سيوفٍ وقميٍّ وكناثن ، وما يلبسونه من خوذٍ ودروع وجواشن ، وما يتمولونه من جميع أصناف المعادن" (١) .

وقد عد بعض الكتّاب الانتصارات ثأراً من الأعداء لما فعلوه بالمسلمين ، ومن ذلك انتصار قلاوون على المغول عام ٦٧٨ هـ ، إذ وصفه ابن عبد الظاهر بالنشار للأمة منهم ، وكأنه يشير بذلك إلى ما فعلوه نوبة بغداد . قال : "وقد علم الله والمسلمون أن العيان في هذه الواقعة ليس كالخبر ، ولعمر الله إن هذه النصر ذكرى للبشر ، لأنها كفت الأمة الإسلامية عظيماء ، وأخذ الله بها للائمة والأمة ثأراً قديماً" (٢) .

- صورة الهزيمة

وتصور الرسائل هزائم المماليك كما شاركت في تصوير انتصاراتهم ، غير أن التعبير عن الهزيمة كان محدوداً ، حيث كانت الهزائم التي تعرض لها المسلمون أمام الصليبيين أو المغول قليلة ، كما ابتعد الكتاب عن تصوير الآثار النفسية المؤلمة للهزائم غالباً ، وحاولوا أن يبرروا لحدوثها ، ويجعلوا منها سبيلاً للحث على الجهاد .

وقد درجوا على عد الهزيمة قضاءً وقدرًا ، وجعل أسبابها خارجة عن ضعف المسلمين وقوة أعدائهم ، ومن ذلك وصف هزيمة المماليك أمام المغول عام ٦٩٩ هـ في معركة وادي الخزندار ، حيث جاء في رسالة الناصر محمد إلى غازان بعدها : "وما زالت تتفق بين الملوك الوقائع والحروب ، وتجري المواقف التي هي بتقدير الله فلاخر فيها للغالب ، ولاعار على المغلوب ، وكم من ملك استعظم عليه ثم نغمر ، وعاوده التأييد فجثير بعدما كسر" (٣) .

وذكره في رسالة ثانية إليه بهزائم المغول أمام المسلمين ، وبأنه أظهر

(١) صبح الأعشى ١٤ : ١٦٧ .

(٢) تاريخ ابن الخرات ٧ : ٢٢٥ ، وانظر الملوك ١ : ١٠٢٨ .

(٣) صبح الأعشى ٧ : ٢٦٨ ، وانظر : ٢٦٧ .

الخديعة والمكر بادعاء الإسلام ، فكان ذلك سبباً في امتناع الجيش المملوكي عن قتاله ، وادعى الناصر أنه لولا ذلك لذاق غازان وجيشه هزيمة نكراء ، ولكن الله قدر (١) .

وفي رسالته الموجهة إلى الناصر يحثه فيها على الجهاد ، وصف ابن تيمية هزيمة المماليك أمام المغول عام ٦٩٩ هـ بالفتنة التي عادت بالفائدة ، قال : "إن هذه الفتنة التي جرت ، وإن كانت مؤلمة للقلوب ، فما هي إن شاء الله إلا كالدواء الذي يشفي المريض ليحصل له الشفاء والقوة ، وقد كان في النفوس من الكبر والجهل والظلم ما لو حصل معه ما تشتهيه من العز ، لأعقبها ذلك بلاء عظيم ، فرحم الله عباده برحمته " ، وادت الهزيمة ، في رأيه ، إلى اتعاظ المسلمين بها ، وجمع كلمتهم بعد الفرقة والخلاف ، وتحريك عزائمهم في سبيل الله (٢) .

وجعل الشهاب محمود من هزيمة أحد قادة المماليك نصراً ، لأنه لم يهزم بسبب الضعف أو التخاذل ، بل قاتل حتى لم يبق وسماء وكسر هو وفئة من جيشه أجفان السيوف ، وثبت بالعدد القليل أمام جحافل العدو . قال الشهاب : "وهذا هو الموقف الذي قام مقام النصر إذ فاته النصر ، والمقام الذي أصيب فيه من أصحابه اتحاد يدركهم أدنى العدد ، فثقت فيه من أعدائه مع ظهورهم ألوف لا يدركهم الحصر" (٣) .

ويبين الشهاب محمود في رسالة تلقيب إلى من هزم هو وجيشه بعض أسباب الهزيمة ، ويثني باللائمة عليه وعلى أصحابه الذين ما إن رأوا العدو حتى مشقت في أيديهم ، وساورتهم الشكوك في إمكانية الصمود أمام الجحافل ، فولوا الأدبار ، على الرغم من أن العدا جزعوا لمرآهم . قال : "حين وقعت العين على العين ، وأيقن عدوه لما رأى من عدده وعقدده بمعالجة الحين ، أعجل نصول العدا عن وصولها ، وترك غنيمة الظفر لعداه بعد ما أشرف على حصولها" (٤) .

(١) النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٣ ، وانظر حسن التومل : ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٢) رسالة ابن تيمية إلى الملك الناصر : ١٢ .

(٣) حسن التومل : ٣٨٦ .

(٤) نظمه : ٣٨٨ ، وانظر : ٣٨٩-٣٩٠ ، الروض الزاهر : ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، السلوك ١ : ٥٩٤ .

وانشأ ابن أبي حجلة رسالة* وصف فيها هزيمة المسلمين أمام الفرنجة الذين اغاروا على الإسكندرية عام ٧٦٧ هـ ، بدأ فيها بوصف غلبة المسلمين في البلد ، وانمراهم عن الاستعداد لحفظها إلى الملذات ، فاستغل الفرنجة ذلك وهاجموا الثغر بسفنتهم في غياب العسكر المملوكي ، قال : "بينما الناس في غفلاتهم ، وظلم ولاتهم ، لا يبتناهون عن منكر ، ولا يرون مع ارتكاب الكبائر إلا كل آية هي أكبر ، إذ دهمهم بالثغر ما اصطكت به أسنانه ، ونعلت بالبين غربانه..." .

كما وصف في رسالته خروج الناس للقتال ، وانتشارهم على الساحل ، وأنهم كانوا من المتطوعة "الفرج المجاهدين ، وغيبة حمة الدين" ، لكنهم لم يكن لهم بالفرنجة طاقة . قال : "وأقبلت الفرنج من كل فج ، وتأهبوا للنزال ،... ، فحمل البطل ، وضرب السيف بالرقاب المثل ، وبلغ السيل الزبا ، وسالت النفوس على الظبا ، فشهد الناس يوماً مشهوداً* ، (هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً* شديداً* (١) .

ويذكر ابن أبي حجلة أفعال الفرنجة الشنيعة بالإسكندرية وأهلها بعد انتصارهم ، إذ عاشوا بها فساداً ، فقتلوا من قتلوا ، وأسروا من أسروا من الرجال ، وسبوا النساء ، وانتهكوا الحرمات ، ونهبوا ما بأيدي الناس من أموال . قال : "... فبطل الكر* ، وملك الفرنج الجبر ، وطلعوا السور ، وهجموا السدور ، فحازوا النقود النضرة ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ،... ، وعموا الأسواق بالنهب والإحراق ، وأكثروا الجرائر ، وأسروا الحرائر ، وتساوت الموالي بالعبيد" .

ويذكر أنهم فروا بعد أن سمعوا بمقدم طلائع الجيش المملوكي ، وكانت مدة ذلك على ما ذكره ابن حبيب ثلاثة أيام (٢) .

- صورة المجاهدين

كانت العناية بالمجاهدين ، والاهتمام الوافر بالجهاد من أهم الصفات التي

(١) تذكرة النبيه ٣ : ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، والاية في سورة الاحزاب : ١١ .

(٢) نفسه ٣ : ٢٩٠ - ٢٩١ .

أضناها الكتّاب على القادة المماليك ، ويبدو أن ما حققه المماليك من انتصارات رائعة على الأعداء مهد السبيل أمام الكتّاب ليبالغوا في ذلك . قال محيي الدين بن عبد الظاهر يذكر اهتمام قلاوون بالجهاد في رسالة بشرى إلى ملك اليمن : " كانت غزوات مولانا السلطان ملك البسيطة ... قد أصبحت ذكرى للبشر ، ومواقفه للنصر كم جاءت هي والقدر على قدر ، وقد صارت سيّرها وسيّرها : هذه شدو في الأسار ، وهذا جادة تستطيب منه حُسن الحدو السّفار ، فكم قاتلت من يليها من الكفار" (١) .

ويشيد الكتاب بتلك الروح الجهادية ، والعزيمة الصادقة ، والرغبة عن الدنيا في الآخرة عند سلاطينهم ، وبما يسعون إليه من ذبّ عن حياض الإسلام . قال شاهد عيان لمعركة عكا عام ٦٩٠ هـ في رسالة له يصف عزيمة الملك الأشرف خليل واستعداداته : "فيها عزم السلطان على المسير إلى عكا ونزالها ، والجد في قتالها ، متمماً لما عزم عليه والده من أخذها واستئصالها ، فتقدم بتجهيز العساكر ، وكتب إلى النواب بأقطار الممالك بإنفاذ العساكر الشامية إليها ، وحمل المجانيق والآلات لتتركب عليها ، وأمر بالاستكثار من الحشود ، وألا يتأخر أحد من الجنود" ، ثم "اجتمعت جيوش الإسلام ، وجرّد السلطان صارم الاهتمام ، وأرهف حد الاعتزام ، وشمّر تشميراً يعجز عنه كل ملك همام" (٢) .

ومما قاله علاء الدين بن عبد الظاهر في وصف همة الملك الناصر محمد ، وقيامه بجهاد أعداء الدين : "بايع الله على نصره هذه الملة التي لا يحميها عن نصرها ولا يريم ، وعاهده على بذل الهمم التي انتظمت في سبيل الله كالعقد النظيم ، وخضع لله في طلب النصر ... وقال : رب قد بذلت نفسي في سبيلك فتقبلها بقبول حسن ، ونويت المصابرة في نصرة دينك وأرجو أن أتبع النية بعمل يعدو بيان إنسان في وصفه والسن" (٣) .

وقد يعمد الكاتب إلى المبالغة في تصوير عزيمة سلطانه قائد الجيش ، ورغبته

(١) صبح الأعشى ٧ : ٣٩٣ ، وانظر ٨ : ٣٦٥ ، ١٤ : ٣٤٧ .
(٢) السلوك ١ : ١٠٠٢ ، وانظر ١٠٢٩ : ١٠٢٩ ، صبح الأعشى ١٤ : ١٥٩ .
(٣) نفسه ١ : ١٠٣٠ ، وانظر ١٠٢٧ : ١٠٢٧ ، صبح الأعشى ١٤ : ١٦٣ .

في الجهاد ، وقدرته على قهر أعداء الدين ، فيجعل من النصر إنجازاً متواضعاً إذا ما قيس بتلك الهمة ، ويمضه - على عظمه - بأنه كالمقدمة لغيره ، وكالتدريب للعساكر . وصف محيي الدين فتح صفد (١) بقوله على لسان قلاوون : "ملنا على سواحل العدو المخذول فغرقناها ببهار عساكرنا الزاخرة ، وشئنا بها من الغارات ما ألجسها ذلاً وظل به الإسلام في ملابس عزه الفاخرة ، وهي ، وإن كانت غارة عظيمة شنت في يوم واحد على جميع سواحله ، واستولى بها النهب والتخريب على أمواله ومنازله ، واستلبح من حرمه وحرمه مصونات معاقله وعقائله ، إلا أنها كانت بين يدي عزائمنا المنصورة نشيطة نشطنا بها الغازين ، واسترهننا بها هم المجاهدين ، وقدمناها لهم كاللينة قبل الطعام للساغبين" (٢) .

كما صور الكتاب شبات القادة من سلاطين المماليك في المعارك ، وصبرهم وقوتهم ، فتراهم لا يكثرشون بكثرة أعدائهم ، ولا ينكصون من أمامهم . قال علاء الدين يصف شبات الناصر في مرج الصفر : "قابل العدو بمصدره ، وقاتل حتى أفضى حديد بيضه وسلمه ، وخاطر بنظمه والموت أقرب إليه من حبل الوريد ، ونكب عن ذكر العواقب جانباً ولم يستصحب إلا سيفه المبيد" (٣) .

ولإعلاء من شأن القائد الفاتح ، قد يعتمد الكاتب إلى التعريض بمن تقدمه من الملوك الذين ارتضوا الترف والتخاذل بدلاً من الشرف والجهاد ، واستحبوا السلم الذليل ولم يفكروا في عواقبه . قال أحمد بن الأثير في رسالة بفتح صفد بأنها كانت "تدعو الملوك إلى نفسها فيصامموا ، وتخطبهم ومهرها أدنى حرب فيرغبوا في العزلة والمسالمة فيسالموا ، ألهاهم عن فخر فتحها الرغبة في رفاهية عيشة ظنوها راضية ، ووقفت بهم دون السعي فيه همة لنزول الدنيا متغاضية ، وجنح بهم مغراد السلم ، وإرادة السلم كانت عليهم القاضية" (٤) ، ولا شك في أنه أراد رفع

(١) مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام ، وكانت تعد من مدن لبنان (معجم البلدان ٣ : ٤١٢) ، وقد احتل الصهاينة صفد الفلسطينية عام ١٩٤٨م ، وأجلوا سكانها العرب ، وتقع صفد في شرق الجليل الأعلى ، وما زالت تحتفظ ببعض آثارها ، وقد أطلق عليها الصهاينة (تشفاد) . (انظر بلدانية فلسطين المحتلة : ٨٨-٨٩) .

(٢) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٣٩ .

(٣) الملوك ١ : ١٠٣١ ، وانظر : ١٠٣٢ .

(٤) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤٣ .

ترقبهم التزاماً ، والرقاب من سيوفهم اقتساماً ، وكم حمدت التجارب من رأيهم شيخاً ، وحمد الإقدام من شجوتهم غلاماً ، قد دوا البلاد فلا موطن إلا لهم به معركة ، وأرملوا الحلائل ، فلا مشرك إلا ولقد أرمل من مشركة ، وأزعجوا الكفر ، فلا قلب إلا به منهم خوف ، ولا سمع إلا به حركة ، وملأوا الأرض كثرة (١) .

كما وصفوه بالمير على المشقات والاهوال ، وعدم الشكوى ، والسرعة في إنجاز المهات ؛ ذلك لأن الجنود يحملون في قلوبهم بغضاً شديداً للكفر وأهله ، ويتسابقون إلى الفوز بجزيل ثواب الله وفضله . قال محيي الدين في البشارة بفتح طرابلس يصف ذلك : "جنود" لا تستبعد مفازة ، وكم راحت وغدت وفي نفوسها للاستعداد حرازة ، فامشطوا بخيولهم من جبال لبنان تيجاناً لها صاغتها الثلوج ، ومعارج لا تراهق بها غير الرياح الهوج ،... ، ولم يحفل أحد منهم بسرب لاصق ، ولا بجبل شاهق ، فقال : هذا منخفض وهذا عال ، وشرعوا في التحصيل لما يوهي ذلك التحصيل (٢) .

ولابد للمقاتلين من الثبات في صفوفهم ، وأروع آياته تلك التي تثبت فيها الغلة القليلة أمام الجموع الغفيرة ، ولا يكون الثبات إلا ثمرة للعقيدة الصادقة ، والإيمان الراسخ . كتب الشهاب محمود على لسان من هُزم يعتذر عن هزيمته بقوله : "وثبت الخادم في طائفة من ذوي القوة في يقينهم ، وأرباب البصائر في دينهم ، فكسرنا جفون الميوف ، وحطمنا صدور الرماح في صدور الصفوف ، وأرينا تلك الآلاف كيف تفعد الأحاد بالآلاف" (٣) .

كما وصفوا المجاهدين بأنهم يحبون الموت ، ويقبلون على المعارك رغبة في الشهادة ، وتلك أروع تضحية يقدمها المؤمن ، إذ يتهلل وجهه لرؤية مقام الشهادة ، ويرى للموت وجهاً طلقاً لاجهامة فيه . ومن ذلك قول ابن العجمي في فتح صفد ، إنه لما أبدى المليبيون شجاعة في المعركة ، "صبر أولياء الله على ما عاهدوا

(١) صبح الاعشى ٧ : ٣٨٢ ، وانظر النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٥ ، ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤٠ .

(٢) صبح الاعشى ٧ : ٣٩٤ - ٣٩٥ ، وانظر نهاية الحرب ٥ : ١٦٨ .

(٣) حسن التوسل : ٣٩٠ ، صبح الاعشى ٨ : ٣٠٣ .

شان بيبرس من حيث عرض بغيره .

ولإتمام ما يريده الكاتب من مديح لسلطان الفاتح ، يزعم أن الله أخر الفتح ليتم على يديه ، واختصه به لأهليته وقدرته وصلاحه ، ومن ذلك قول محيي الدين بن عبد الظاهر في رسالته بفتح طرابلس على يد قلاوون : "وأختر الله مؤدتها إلى خير الأزمان ، وفتحها على يد سلطاننا الذي حقق الله به آمالاً لا تتخذ منه إلا بسلطان" (١) .

وتصور الرسائل هم الأمراء قادة الجيش ، وإقدامهم ، وإعدادهم العدة للقاء العدو ، فتراهم يضحون من أجل دينهم ، فلا عزة لهم إلا بعزته . ومطعم علاء الدين بن عبد الظاهر بأنهم في معركة مرج الصفر "رأوا الحياة في هذا اليوم مغرماء ، وعدوا الممات فيه مغنماً ، وقالوا : لأحياة إلا بنصر الإسلام ،...، وما أعددنا العزائم إلا لهذا الموقف ، ولا أعددنا الموارم وخبائنها إلا لنبذلها في السفك فنصرف" (٢) .

وقد صور بعض الكتاب حنينهم إلى الجهاد ، ومن أجمل ما كتب في ذلك قول شاهد عيان لمعركة عكا - ويبدو أنه أحد الأمراء - في رسالته يصف فتحها على يد الأشرف : "وكننت حينئذ بالكرك ، فلما بلغني أمر هذه الغزاة ،...، تالقت نفسي إلى الجهاد ، وحننت إليه حنو الأرض الظامئة إلى صوب العهد ، فطالعت السلطان بذلك ، وسألته أن أصرير إلى هناك ، لأساهم في ثواب الغزو وأشارك ، فأذن لي بالحضور ،...، فكنت كمن فاز أمله بنجاحه ، وانجلي ليله بصباحه" (٣) .

وترى في رسائلهم صورا مشرقة لجيش المسلمين ، آخرها الكثرة وأولها الإقدام والحنكة والصبر ، فهو ساهر الطرف لا يطرق عينيه كرى ، متوقد العزيمة ، صلب يفل الحديد ولا يثقل ، وتضجر البيض من الضرب ولا يمل . قال محيي الدين في رسالة إلى ملك اليمن : "كم شكت النقوب من مناكبهم زحاما ، والشرفات من

(١) نهاية الأرب ٥ : ١٦١ .
(٢) السلوك ١ : ١٠٣١ ، وانظر : ١٠٣٣ .
(٣) نفسه ١ : ١٠٠٢ - ١٠٠٣ .

الله عليه ، وقدموا نفوسهم قبل أقدامهم رغبةً إليه ، ورأوا الجنة تحت ظلال السيوف ، فلم يروا دونها مقيلاً ، وتحققوا ما أعدّه الله لأهل الشهادة ، فاستحلوا وجه الموت على جهامته جميلاً" (١) .

ولم أقف على صورة فردية لفارس من المجاهدين ، غير صورة السلطان ، سوى صورة وصف بها ابن الظاهر ، واحداً من الذين أبلوا بلاءاً حسناً في المعركة التي خاضها بيبرس ضد المغول عام ٦٧٥ هـ ، ويبدو أن الكتّاب كانوا يتحاشون ذكر غير سلاطينهم في الرسائل الجهادية ، وإن كان محيي الدين قد عظم ذلك الفارس بقوله : "مولانا صاحب زين الدين حرس الله جلالة" ، مما ينبئ بأنه أحد الأمراء ، فإن هذه الصورة تظل فريدة . وصفه محيي الدين بأنه كان : "أول مسابق ، وأسرع راشق ، وأقرب مطاعن ، وأعظم معاون ، فذكر من شاهده أنه أحسن في معركته ، وأجمل في كرمته ، وأجاد في طعنته ، وزأر زئير الليث ، ومسابق حتى لم يبق حيث ، ووقف دريئة للرماح من عن يمينه وشماله ، وخضب بما تحدر من دم عدوه أكناف سرجه وعنان لجامه ، وكانت عليه من الله باقية واقية في تقدمه وإقدامه ، وشاهدناه وقد خرج من وسط المعركة وهو شاكي السلاح ، وقد أخذ نصيبه ، ونصيب فرسه من سالم الجراح" (٢) .

أما المسلمون من غير المقاتلين ، فإن بعض ما وقفت عليه من رسائل يدل على مشاركتهم معنوياً ومادياً في المعارك ، وبخاصة ضد المغول ؛ ذلك لأن مشاعر الخوف من المغول كانت أشد لما عرف عنهم من وحشية ، وتبرز صورة المسلمين وهم في المساجد يتضرعون إلى الله تعالى أن ينجز وعده ، ويستمطرون رحمته ولطفه ، وهو موقف يوحي بتلاحم الامة جمعاء في وجه الغزاة . قال محيي الدين يصفهم بعد توجه الجيش لحرب المغول عام ٦٧٨ هـ : " وكان المسلمون في سائر البلاد الإسلامية في تلك الساعة قد طرّفوا أبواب السماء ، وجردوا سلاح الأنبياء من الدعاء ، ولا مشهد ولا مسجد في تلك الساعة في القاهرة ومصر ودمشق والأقاليم إلا وصفوف المتجهدين

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤٢ ، وانظر نهاية الأرب ٥ : ١٦٢ .

(٢) صبح الأعشى ١٤ : ١٦٦ ، وانظر حسن التوصل : ٣٨٩ - ٣٩٠ .

في ذلك الوقت قائمة متزاحمة بالمناكب ، فاستجاب الله دعاءهم" (١) .

هذا في الوقت الذي توحى فيه رسالة ابن تيمية إلى الناصر بأن موقف الرعية من الجيش بعد هزيمة ٦٩٩ هـ كان سلبياً ، وقد يكون ذلك بسبب فعائل المغول الشنيعة بعد دخولهم الشام ، لكن الموقف تغير بعد بدء الناصر بإعداد العدة لحرب المغول . قال ابن تيمية : "وحنّت إلى العساكر الإسلامية نفوس كانت معرضة عنهم ، ولانت لهم قلوب كانت قاسية عليهم ، وطابت نفوس أهل الإيمان ببذل النفوس والأموال للجهاد في سبيل الله ، وأعدوا العدة لجهاد عدو الله وعدوهم ، وانتبهوا من سينتهم ، واستيقظوا من رقدتهم" (٢) .

- صورة العدو

برز أثر الصراع العقائدي بين المسلمين والغزاة الصليبيين والمغول في تحديد ملامح صورة الغزاة ، وقد ركز الكتاب في الرسائل الجهادية على فكرة الصراع العقائدي ، وهدفوا من وراء ذلك إلى جمع الصفوف ، وحشد الطاقات ، مما يدل على بليغتهم الفكرية ، ووعيهم بطبيعة الصراع .

وصف الكتاب في رسائلهم الغزاة الصليبيين بالكفر ، والشرك والنجاسة ، ومن ذلك قول ابن العجمي (٣) في فتح الشقيف (٤) ، وفيه قلعتان ، عام ٦٦٦ هـ : "ضعفوا عن أن يحموا من تلك القلعتين جهتين ، أو أن يقتسموا بها فشتين ، أو يجمعوا مع كفرهم ، إلا ما قد سلف ، بين الاختين ، أو أن يغدو نصيب شركهم إلا وهو فيما دون القلعتين" (٥) .

-
- (١) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٤ .
 - (٢) رسالة ابن تيمية إلى الناصر : ١٣ .
 - (٣) أحمد بن عبد العزيز الحنبل ، كان عالماً حسن الخط ، كتب للملك الظاهر بيبرس ، وكان من أعيان الكتاب ، توفي في صور ، ودفن في دمشق عام ٦٧٨ هـ (انظر ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٨٨) .
 - (٤) هناك عدّة أماكن بهذا الاسم منها شقيف أرنون ، وتيرون ، وديركوش ، ودبّين ، والمقصود هو شقيف أرنون لأنه الأقرب إلى يافا ، وفيها أن فتحه كان بعد يافا مباشرة (معجم البلدان ٣ : ٣٥٦) وقد تقدم التعريف به .
 - (٥) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٨٠ ، ٤ : ٢٥٦ .

ووسم الصليبيون بأهل النار (١) ، وأهل الشرك ، وأصحاب الأرواح الخبيثة (٢) ، وأهل النفاق ، وعلوج الكفر (٣) ، وشياطين النفاق ، ومنشأ المفساد (٤) ، وأهل الاتحاد (٥) ، وأصحاب التشليث (٦) ، وأعداء الدين ، والطفة الملحدين (٧) .

ويورد المنشئون في الأسباب التي تدفع إلى فتح الحصون واستردادها من أيدي الصليبيين ، أنهم يحملون أهلها من المسلمين على النصرانية ، ويجعلونها وسيلة لضرب المسلمين في ديارهم ، واستباحة حرماهم . قال ابن العجمي على لسان قلاوون بعد فتح عدة قلاع : "وأعقبنا ذلك بما رأيناه أولى بالتقديم وأحرى ، تبينناه أشد وطأة على الإسلام وأعظم ضرراً" ، وهي صفد التي بآء بإشمتها حاملها على النصرانية ، ومسلطها بالنكاية على البلاد الإسلامية ، حتى جعلها للشرك مأسدة آساده ، ومَرَادَ مِراده ، ومجررَ رماحه ومجرى جياده ، كم استبيح بسببها للإسلام من حمى ، وكم استرق الكفار بواسطتها مسلمة من الأحرار ومسلما ، وكم تسرب منها جيش الفرنج إلى بلاد المسلمين فحازوا مغنماً وقوفاً معلماً" (٨) .

وامتدَّ تأثير الصراع العقائدي إلى ما يرسمه المنشئون من صور في رسائلهم ، فصورة الحصن قبل الفتح تقابلها صورة مختلفة جداً بعده ، وتستمدُّ صورتان من ألفاظ تتصل بعقيدة المسلمين وعقيدة الصليبيين ، وهي لا شك مقابلة بين الإيمان وبين الشرك ، ومن ذلك في رسالة بفتح حصن المرقب عام ٦٨٤ هـ : "سَطَرْنَا هَذِهِ الْبُشْرَى وَأَعْلَامَ النُّصْرَةِ قَدْ خَفَقَتْ بَنُودَهَا ، وَذَلَّتْ لَهَا عُلُوجُ الْكُفْرِ وَكُنُودُهَا ، وَالسِّيفُ مِنْ دِمَائِهِمْ يَقْطُرُ ، وَالصَّلِيبُ خَزِيَانُ يُنْظَرُ ، وَالْأَذَانُ مَكَانُ الْنَاقُوسِ ، وَالْقُرْآنُ مَكَانُ الْقُسُوفِ ، وَالْكَنِيسَةُ قَدْ عَادَتْ مَحْرَاباً ، وَالْجَنَّةُ قَدْ فَتَحَتْ لِلْمُجَاهِدِينَ فَكَانَتْ أَبْوَاباً" (٩) .

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤٢ .

(٢) نهاية الأرب ٥ : ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٣) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٤ .

(٤) نفسه ٤ : ٢٤٥ .

(٥) نفسه ٤ : ٢٥٢ .

(٦) نفسه ٤ : ٢٥٥ .

(٧) السلوك ١ : ١٠٠٤ .

(٨) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٢٣٩ .

(٩) نفسه ٤ : ٢٤٤ ، وانظر صبح الأعشى ٨ : ٣٩٥ .

أما الصراع مع المغول، فكان من المتوقع أن يكون لإسلامهم صدئاً أوسع في الرسالة الفنية، ويبدو أن وحشيتهم، وتعاملهم الدموي مع أهل البلاد التي غزوها لم تترك في النفوس مجالا لقبولهم، وأتت على كل التوقعات لوجود الخير فيهم، ولم تبقر لهم سوى صورة واحدة، أبعادها: الكفر، والغدر، والهمجية.

وسمهم الكتاب في رسائلهم بالمشركين والكفار، والمجرمين، وأهل النار، وبأنهم أهل الشيطان ألقوا إليه أمورهم، وسلّموه قيادهم. قال ابن عبد الظاهر من رسالة قطز إلى اليمن مبشراً بالنصر عليهم في عين جالوت: "فأقلعت بهم طرائق الضلال، وسارت مراكب أمانهم في بحار الآمال،...، وأقلعوا في البحر بمراكبه، والبحر بمواكبه، وساروا وللشيطان فيهم وساوس، تغرهم أمنيّة الظنون الحوادم، فما وسوس الشيطان كفراً إلا وأحرقه الإيمان بكوكب" (١).

وقال فيهم في رسالة قلاوون مبشراً بالنصر عليهم عام ٦٧٨ هـ: "وقتل ملوكهم من أولاد هولاء وغيرهم، فعجل الله بأرواحهم إلى النار، وأبت الأرض أن توارى جساداً لهم فقدفتهم في المهامة والقفار" (٢).

والرسائل بعد إسلام المغول فيها موقفان متقاربان، إذ يكفّر المغول صراحة في قسم منها، وبخاصة في البشارات بالنصر، أما القسم الآخر ففيه تشكيك بنواياهم، وطلب لتأكيد تمسكهم بالإسلام، وهذا الأخير كان في الرسائل المتبادلة بين الطرفين. وأعتقد أن السلطة كانت تحاول أن تغيد من إسلامهم، فتتقي بذلك حروباً أخرى، وعلى الرغم من أن بعض البشارات كانت تشمل وصفهم بالكفار، وأنها رسائل ديوانية تمثل موقف السلطة الحاكمة من المغول، وأن موقف الممالك من إسلام المغول ليس متطابقاً في رسائلهم إليهم مع موقفهم في البشارات بالنصر، فإنه لا تناقض بين الموقفين، فهم يرضون الشعب والجيش بوصف المغول بالكفر، ويحاولون تثبيت الإسلام في نفوس المغول بمطالبتهم بتطبيق ما أعلنوه على أرض الواقع (٣).

(١) صبح الاعشى ٧ : ٣٨٧ ، وانظر : ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، كنز الدرر ٩ : ١٢١ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٤ .

(٣) صبح الاعشى ٨ : ٢٦٣ ، تشریف الايام والعصور : ١٣ .

قال الناصر في رسالته إلى غازان بعد هزيمة المماليك عام ٦٦٩ هـ يعلل هزيمة جيشه بأن غازان لما رأى أنه ليس له "بجيشنا قبيل في المجال ، عاد إلى قول الزور والمحال ،... ، وتظاهر بدين الإسلام" ، ولذلك امتنعت الجيوش عن قتاله ، وقال مشككاً في إسلامه ، طالباً منه تأكيد ذلك : "فأين ، وكيف ، وما الحجة ؟ وحرّم البيت المقدس تشرب فيه الخمر ، وتفتخر فيه البكور ، ويقتل فيه المجاورون ، ويؤمّسّر خطباؤه والمؤذنون ، ثم على رأس خليل الرحمن تعلق الملبان ، وتفهتكم النسوان ، ويدخل فيه الكافر سكران ، فإن كان هذا على علمك ، فواخيبتك في دنياك وأخراك ،... ، وإن كنت لم تتعلم بذلك ، فقد أعلمناك ، فاستدرك ما فات فليس مطلوباً به سواك ، وإن كنت كما زعمت أنك على دين الإسلام ،... ، فاقتل الطوامين (١) الذين فعلوا هذه الفعال ، وأوقع به أعظم النكال ، لنعلم أنك على بيضاء المحجة" (٢) . وقد سبب إسلام المغول بعض التضارب في جواز قتالهم قبل وقعة مرج الصفر عام ٧٠٢ هـ ، وكان العامل الحاسم في اتفاق الآراء على قتالهم ابن تيمية الذي قال بوجوبه (٣) ، وكان رأيه في رسالته إلى الناصر أنه "انكشف لعامة المسلمين ... حقيقة هؤلاء المفسدين الخارجين عن شريعة الإسلام وإن تكلموا بالشهادتين ، وعلم من لم يكن يعلم ما هم عليه من الجهل والظلم ، والنفاق والتلبيس" (٤) .

وبعد هذه المعركة برز الصراع العقائدي مع المغول ثانية بوضوح ، وأصبحت قضية تكفيرهم في الرسائل ثابتة ، فهم أعداء الملة المشركون ، وأحزاب الكفر وأشياعه . قال الشهاب محمود في البشارة بال نصر عام ٧٠٢ هـ : "وبرز فيه الإسلام كله للشرك كله ، ولله الحمد الذي أعز دينه ونصره ، وحصد بسيوف الإسلام عدو دينه بعد أن حصره ، وأباد جيوش الشرك وهم مائة ألف أو يزيدون ، وأغنى أحزاب الكفر ، وكانوا أمثال الرمال لا يعدون" (٥) .

(١) جمع طومان (تومان) ، وهو أمير عشرة آلاف فارس (صبح الأعشى ٤ : ٤٢٣) .

(٢) النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٣ ، وانظر ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٣) فتاوى ابن تيمية ، تقي الدين أحمد ، مطبعة كردستان العلمية ، القاهرة ١٣٢٩ هـ ٤ : ٢٩٨ ، وانظر البداية والنهاية ١٤ : ٢٨ .

(٤) رسالة ابن تيمية إلى الملك الناصر : ١٢ .

(٥) نهاية الأرب ٥ : ١٦٢ .

وتشير المصادر التاريخية إلى بعض مظاهر التحالف بين المغول والصليبيين والأرمن والروم بعد احتلال المغول بلادهم عام ١٢٤١م (١) ، كما تشير إلى عقد اجتماعات على مستويات رفيعة بين الأطراف المعادية للإسلام (٢) ، كما دارت بعض الرسائل بين المغول والصليبيين للإخبار بتحركات جيش المماليك (٣) ، ويبدو التحالف في معاملة المغول للنصارى بعد عين جالوت (٤) ، وأشار ابن عبد الظاهر إلى تحالف المغول مع الروم والكرج (٥) في رسالته التي وصف فيها غزوة قيسارية الروم قائلا : "فلما أقبل الناس من علو الجبل ، شاهدوا المغل قد ترتبوا أحد عشر طلباء ، كل طلب يزيده على ألف فارس حقيقة" ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلباء واحدا بمفرده" (٦) .

كما ورد ذكر التحالفات في الرسائل التي دارت بين المماليك وبين المغول وأحلافهم ، ومن ذلك ما جاء في رد الناصر على غازان بعد هزيمة الأول عام ١٢٩٩م ، حيث قال : "ونحن تحققنا أن الملك بقي عامين يجمع الجموع ، وينتصر بالتابع والمتبوع ، وحشد وجمع من كل بلد ، واعتضد بالنصارى والكرج والأرمن ، واستنجد بكل من ركب فرسا من فصيح والكن" (٧) .

ومن آثار تلك التحالفات في الرسائل ما نكف عليه من تقريع لمن ساعد الأعداء ، وسخرية منه ، وتذكير بما قد يصيبه جراء ذلك . قال الشهاب مسمود في رسالة إلى ملك الأرمن بعد هزيمة التتار عام ١٢٧٠م ، وكان قد ساند المغول : "ولقد عرض نفسه وأصحابه لسيوفنا التي كان من سطوتها في أمان ، ووشق بما ضمن له التتار من نصر ، وقد رأى ما آل إليه أمر ذلك الضمان ، وجر لنفسه بموالة

-
- (١) المختصر في أخبار البشر ٣ : ١٧١ ، السلوك ١ : ٣١٣ .
 - (٢) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ، دار المسيرة ، بيروت ط١ : ٢٥٦ .
 - (٣) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٩٣ ، السلوك ١ : ٣١٣ .
 - (٤) ذيل مرآة الزمان ١ : ٣٦٢ - ٣٦٤ ، كنز الدرر ٨ : ٥٢ ، الجواهر الشمين ٢ : ٦٠ ، السلوك ١ : ٤٢٥ ، النجوم الزاهرة ٧ : ٨١-٨٠ .
 - (٥) جيل من النصارى كانوا يسكنون جبال القبق ، ثم قويت شوكتهم فملكوا مدينة تفليس (معجم البلدان ٤ : ٤٤٦) ، وقال فيهم ابن فضل الله العمري : "صليبة دين الصليب ،... وهم للعساكر الهولاكوية عتاد وذخر" (التعريف بالمصطلح الشريف : ٧٨) .
 - (٦) صبح الأعشى ١٤ : ١٦٤ ، وانظر ٧ : ٣٩٣ ، نهاية الأرب ٥ : ١٥٧ .
 - (٧) النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٣ .

الستار عناء^١ كان عنه في غنى ، وأوقع روحه بمظافرة المئمل في حومة السيوف التي تخطفت أوليائه من هنا ومن هنا ، واقتحم بنفسه موارد هلاك سلبت رداء الأمن عن منكبيه ، واغتر هو وقومه بما زين لهم الشيطان من غوره^(١) .

وتدل هذه الإشارات ، على الرغم من قلبيها ، على وعي الكتاب لما كانت تواجهه الأمة الإسلامية في صراعها مع الغزاة ، وعلى تنبيه القادة إلى طبيعة الصراع ، وإطلاعهم على أبعاده المختلفة ، ويمكن أن نفهم رفض المظفر قطز طلب الصليبيين في عكا السماح لهم بالمشاركة في معركة عين جالوت ضد المغول بهدي مما تقدم ، وقد صدق حدسه ، حيث كاتبوا المغول ليعلموهم بوصول جيش المماليك إلى غزة في طريقه لحربهم^(٢) .

وترى في الرسائل الجهادية وصفاً لقوة العدو ، وحشود جيوشه ، واعتناؤه باختيار الفرسان والمقاتلين ، ويكون هذا الوصف قبل المعركة وفي أثنائها .

والحديث عن قوة الأعداء ليس من ابتداع الكتاب في عصر المماليك ، بل قال فيه الكتاب والشعراء قبل ذلك^(٣) ، وهو ، فيما أرى ، ذو اتصال بهدف قصدوا إليه ، إذ اتخذوا منه مدخلاً لإبراز قوة الجيش المسلم ، وعلو هممه ، وتعظيم قيمة النصر وإشره ، كما جعلوه أساساً للمبالغة فيما لحق بالعدو من خسائر بعد المعركة .

قال محيي الدين يصور منعة أنطاكية بين أسوارها ، وكثرة من فيها من المقاتلين ، واستعدادهم للمقاومة بما يملكون من عتاد وسلاح : " رأينا مدينة يجتمع في داخل سورها الإنس والوحش والطائر ، للاستيطان والبادي والحاضر ، تحف بها أسوار لا يقطعها الطائف في يوم سيرا ، ولا يدرك الناظر من أولها لها أخيراً ، وبها رجال غدوا إليها من كل حدب ينسلون ، ومن كل هضبة ينزلون ، وفي ظلال كل مطهم يتقيسون^(٤) " .

(١) صبح الأعشى ٨ : ٢٦١ .
(٢) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٩٣ ، الملوك ١ : ٤٣ .
(٣) انظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ١٤٠ .
(٤) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٨٣ .

ووصف الشهاب الحلبى جيوش المغول فى مرج الصفر بأنها كالرمال عدداً ،
وكالجبـال صلابـة وقوة ، وبأنهم كانوا فى "مائة ألف ينصبون انصباب السيل ،
ويعلون الجبال على ظهور أشد منها من الخيل" (١) .

وأشار ابن عبد الظاهر إلى عناية المغول بانتقاء جنودهم فى المعارك ،
وشعورهم بالقوة ، وتراض صفوفهم قبل البدء بالززال . قال فيهم قبل بدء المعركة
فى غزو قيسارية الروم : "فشمروا عن السواعد ، ووقفوا وقفة رجل واحد ، وهؤلاء
المغل كان طاغية التتار أبغوا - أهلكه الله - قد اختارهم من كل ألف مائة ، ومن
كل مائة عشرة ، ومن كل عشرة واحد لأجل هذا اليوم ، وعرفهم بسىما الشجاعة وعرضهم
لهذا السوء" (٢) .

وفى رسالته مبشراً ملك اليمن بالنصر على المغول عام ٦٧٨ هـ ، وصف شجاعتهم
وفروسيتهم ، وصور اهتمام قادتهم بحضور المعارك ، واختيار المقاتلين ، فذكر
أنهم فى ذلك اليوم : "جمعوا كل من اعتقدوا فى ظنهم أنه يهزم الجمع بمفرده ،
وانتخبوا كل شجاع لا يألـف غير ظهور الجياد من يوم مولده ، واحتفلوا احتفالاً
استصحبوا فيه ما ادخروا وما صانوا ، وسمحوا بأعزة أكابرهم ، ومقدمي
العثمات (٣) الذين ما سُمع قط أنهم فى معركة هابوا ولا هانوا" (٤) .

وتظهر قوة الاعداء فى الرسائل فى أثناء المعارك ، ويصفهم الكتّاب بالبسالة
والاستماتة ، والإباء والإقدام ، والثبات فى مواطن الشدة ، والبراعة فى
القتال . وصف محيى الدين المغول فى غزوة قيسارية بأنهم كانوا "يقاتلون قياماً
وقعوداً وعلى جنوبهم ، فكم من شجاع ألصق ظهره إلى ظهر صاحبه وحامى ، وناضل
ورامى ، وكم فيهم من شهـم ما سلّم قوسه حتى لم يبق فى كنانته سهم ، وذى سنان
طارح به فما طرحه حتى تشلم ، وذى سيف حادته بالمقال فما جلس محادشة حتى
تكلم ، وأبانوا عن نفوس فى الوغى أبىة ، وقلوب كافرة ونخوة عربية" (٥) .

(١) نهاية الأرب ٥ : ١٦٢ ، وانظر تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٤ .

(٢) صبح الأعشى ١٤ : ١٦٤ ، وانظر السلوك ١ : ١٠٣١ .

(٣) جمع تومان (أو طومان) وقد عرفت به فيما تقدم .

(٤) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٣٢٤ .

(٥) صبح الأعشى ١٤ : ١٦٥ .

وترى في رسائلهم مبالغة في وصف ثبات الغزاة الصليبيين ، واستبسالهم على الرغم من أن المسلمين أشخوهم بالجراح ، وحصونهم آلت إلى سقوط ، تلك التي ظنوا أنها مانعتهم من الله وجنده ، فكلما اشتد القتال ، وظهرت بوادر النصر عليهم ، "قاتلوا قتال مستقتل لا يرى من الموت بقاء ، وشبوا متحابين يقدون ببيضهم البيض والابدان قداء" (١) . كما وصفهم ابن العجمي في فتح صفد .

ومما وصف به الغزاة الجلد والصبر ، وتفضيل الموت على الهزيمة والفرار والاسر ، وهي صفات المقاتل الملب ؛ لأن إظهار الجزع يخزي به ، وركوب الساقين فراراً . باب للقتل أو الاسر ، أو الهزيمة المؤلمة لمن ينجو برأسه . فالصليبيون يوم فتح حصن المرقب "لم يكسر لهم منجنيق إلا ونصبوا آخر بمكانه" ، وعندما حمى الوطيس "أظهروا الجلد ، وأخفوا ضرام نار الجزع" (٢) كما وصفهم الشهاب الحلبي .

ويبدو أن الصليبيين كانوا يتمسكون بحصونهم حتى آخر رمق ، ويحرصون على ألا يفيد منها أعداؤهم المسلمون بعد تسليمها إليهم ، ولذلك كان بعضهم يعمد إلى تدمير الحصن وحرق ما فيه بعد اليأس من الدفاع عنه . قال ابن العجمي في رسالته بفتح الشقيف : "فلما رأوا بأسنا شديداً ، وشاهدوا حزمنا عنيداً ، وعزمنا مبيداً ، والاسوار يتسورها الرجال ، والمجانيق تحف بهم عن اليمين وعن الشمال ، ... ، حرقوا ما بالقلعة من مضمون ، وأضرموا بها نيراناً أعجب شيء كونها لم تنطف بما أجروه من الجفون" (٣) .

ووصف الكتّاب العدو المغولي بأنه غادر مخادع ، يتحين الفرص لنقض العهود ، وينقض على البلاد الإسلامية في لحظة غفلة ، ويعد العدة للقتال في الأوقات التي يظهر فيها المواجهة والمسالمة ، ولم أقف على وصف الصليبيين بهذه الموصفات ، وعلّة ذلك ، فيما أرى إعلان المغول إسلامهم ، حيث أصبح تعامل الممالك معهم مختلفاً نوعاً ما ؛ إذ كثيراً ما ترددت الرسل بين الجانبين بعد عام ٦٨٠ هـ كما تقدم ، أما الصليبيون ، فقد كان الموقف منهم محسوماً لم يتغير .

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤١ ، وانظر السلوك ١ : ١٠٠٣ ، صبح الاعشى ٧ : ٣٨١ .

(٢) صبح الاعشى ٨ : ٣٩٧ ، والسلوك ١ : ١٠٠٣ .

(٣) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٨٠ ، وانظر تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٤ ، نهاية الأرب ٥ : ١٦٣ .

وقد علل الناصر هزيمته أمام المغول عام ٦٩٩ هـ بخداع المغول ، لجيشه وتظاهروهم بالإسلام ، فلبسوا عباءة الدين في وقت ضعفهم . قال : "ولما وصلت جيوشنا إلى القاهرة المحروسة ، وتحققوا أنكم تظاهروهم بكلمة الإخلاص ، وخذعتم باليمين والإيمان ، وانتمرتهم على قتالهم بعبدة الشيطان ، اجتمعوا وتآهبوا..." (١) .

ويبدو أن غازان استعمل الحيلة قبل تلك المعركة ، فأرسل إلى الناصر في طلب الصلح ، وطلب منه أن يوفد إليه رسلاً ليسمعوا ما يريده ، لكنه كان يجهز جيوشه لغزو الشام بمجرد وصول الرسل . قال الناصر : "فما كان إلا عند وصول رسلنا جهزت عساكر وأظهرت الغدر لنا" (٢) .

ويصورهم الشهاب محمود في رسالته إلى ملك الأتراك بعد نصر ٧٠٢ هـ بأنهم ماكرون ، تقودهم أطماعهم ، ويحدوهم الأمل في الاستيلاء على البسلاد ، وإذلال العباد ، ولا يقيمون على حال إلا ريثما يتحولون ، وبأنهم يحزبون الأحزاب ، وأنهم "أقاموا مدة يشترتون المخادعة بالموادعة ، ويسرون المصارمة في المسالمة ، ويظهرون في الظاهر أمراء ، ويدبسون في الباطن أمراء" (٣) .

وتشتمل الرسائل الجهادية على وصف الغزاة بالجهل وسوء التقدير ، وعجبهم الشديد بقوتهم وكشرتهم ، وخفة العقول التي تورث الهلاك ، وتؤدي إلى سوء المنقلب ، وربما كان ذلك وسيلة اتخذها الكتاب لتبرير نتيجة المعركة بنصر المسلمين ، على الرغم مما يوردونه من صفات البسالة والإقدام في أعدائهم .

وصف أحمد بن الأثير ما أدى إليه عجب الصليبيين في حصن المرقب من سوء العاقبة قائلاً : "وأصحابها الذين بدأوا بالسنان ، وقعقوا لنا بالشنان ، وامتدت لهم الأيدي والألسنة ، وجعلوا السيئة مكان الحسنة ، طمعوا بالبسلاد وارتجاعها ، وارتادوا موارد الحرب على بعد أشجاعها ، واستلأنوا من عسكر حصن الأكراد جانباً ظنوا به الغلب ، وفعلوا أمراً عادوا منه بسوء منقلب ، وصاروا

(١) النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) كنز الدرر ٩ : ١٢٠ .

(٣) صبح الأعشى ٨ : ٢٦٠ .

يتكلمون من رؤوس ملائ من الجهل" (١) .

وتظهر هذه الصورة للمغول في الرسائل جلية واضحة ، فالمغول كانوا أشد اعتداداً بأنفسهم ، ذلك بما زرعوه من رعب في قلوب الناس بعد الممارك التي انتصروا فيها . قال محيي الدين في البشارة بالنصر عليهم عام ٦٧٨ هـ بأنهم "ملأوا الاقطار رعباً ، والبلاد سلباً ، وأتوا المنازل كما تأتي الزلازل ، وظلعوا على بلاد الإسلام طلوع القضاء النازل ، وأمتدوا معتقدين أنهم مستحقون للمالك والامصار ، مستخفين بالملوك والانصار ، واشقيين بأنهم لا ينجو منهم سكان البراري ولا القفار ، ولا المحتجبون بأسوار البحار" (٢) .

ويسخر الناصر من أوهم غازان وأطماعه باحتلال الشام ومهاجمة مصر ، والقضاء على حكم المماليك ، فما كان من تلك الاحلام إلا الحسرة والكمند . قال يخاطبه مستهزئاً : "وكان خيبت لك نفسك أن جيوشك تعبر الديار المصرية ، صدقت ، ولكن على غير حالة مَرَّة ضيئة" (٣) .

وامتداداً للصورة المتقدمة المتمثلة في جهل الغزاة وعجبهم ، تظهر الرسائل لحظات الضعف التي كانت تعترى قواهم في أثناء المعركة ، وهي اللحظات التي يبدأ فيها الموقف بالتحول ، إذ يدب الرعب في قلوبهم ، ويجد الوهن إلى نفوسهم سبيلاً ، فتتقاعس همهم ، وبخاصة عندما يرون تنظيم الجيش الإسلامي ، واكتمال تجهيزاته وتراص صفوفه .

وصف ابن عبد الظاهر التتار عندما رأوا الجيش الإسلامي قبل فتح قيسارية الروم بأنهم "رجعوا إلى ما كانوا عقدوا من العزائم فحلوا ، وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) (٤) ، وعلى الصوت يتراسلون" (٥) .

(١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٨ .

* في الأصل بالرفع والمعنى به لا يستقيم .

(٢) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٣٢٤ ، وانظر السلوك ١ : ١٠٣١ ، صبح الاعشى ١٤ : ١٦٨ .

(٣) كنز الدرر ٩ : ١٢٢ .

(٤) سورة المصافات : ٢٧ .

(٥) صبح الاعشى ١٤ : ١٦٤ .

ويصف ابن تيمية خوفهم في رسالته إلى الناصر بأنه وصل حداً جزعوا فيه من أحد الأمراء خرج إلى الميد ، "حتى صاروا يريدون أن يظهرُوا زي المسلمين لئلا يؤخذوا" (١) .

ويصف الشهاب محمود رعب المليبيين في أثناء فتح المرقب بأنهم أصبحوا لا يشعرون بما حولهم ، ولا حتى بأجسادهم لشدة الفزع ، وأصبح الموت كابوساً يطرقهم في نومهم ، فطلعت عيونهم الكرى خشية الاحلام المفزعة (٢) .

ولم يكن الرعب مقتصراً بالجنود ، بل كان نصيب القادة منه عظيماً ، فهم أشد تأثراً بما يحل بجيوشهم ، ويصيب ما يحتلونه من بلاد ، ومن ذلك وصف ابن عبد الظاهر ملك طرابلس بعد فتح أنطاكية التابعة له ، إذ قال بعد وصفه لما حدث لجيشه ولأهل طرابلس (٣) : "هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتاً ، قلت فزعراً : علي هذا الصوت" (٤) .

وتجدد الإشارة إلى أن ما حققه المماليك من انتصارات متوالية على أعدائهم أكسبهم ثقة عالية بالنفس ، وأورث أعداءهم خوفاً مستمراً ، فالمغول الذين اشتهروا بسفك الدماء ، وإشارة الرعب في قلوب الناس ، أصبحوا بعد انتصارات قطز وبيرس وقلاوون عليهم وقد "قمرت بهم همهم حتى صاروا يخافون المصح إذا هجم ، والظن إذا رجم ، وصارت رؤية الدماء تفرعهم ، فلو احتاج أحدهم لتنقيس دم المريض ، لا حجم من خوفه وما احتجم" (٥) . كما وصفهم ابن عبد الظاهر في رسالة بشرى إلى اليمن .

وكذلك الحال بالنسبة لأحلافهم الأرمين ، فبعد مرج المصفر عام ٧٠٢ هـ "حل بالنسب منكم الويل ، وما شمر أحد من الجنود الإسلامية عن ساعدٍ ، إلا وشمر هو من الذل الذليل" (٦) .

(١) رسالة ابن تيمية إلى الناصر : ١٧ .

(٢) صبح الاعشى ٧ : ٣٩٨ .

(٣) ناوش الظاهر ببيرس طرابلس أو "لا قبل فتح أنطاكية ، انظر

الروض الزاهر : ٣٠٨-٣٠٩ .

(٤) الروض الزاهر : ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٥) نفسه : ٣١٠-٣٠٩ .

(٦) صبح الاعشى ٧ : ٣٩٣ .

والرعب في مواقف النزال أوّل طريق الهلاك والنّدم ، وبخاصة بعد أن يرى المقاتلون ما حلّ بهم ، وأن الدائرة عليهم ، فيقرعون للنّدم سنّاً ، ويتحسرون على ما أصابهم ، وعلى ما فاتهم من السلامة ولات حين مندم ، كما وصف ابن عبد الظاهر المغول بعد عين جالوت (١) .

كما تصوّر الرسائل لجوء الأعداء إلى الفرار عندما يشتدّ القتال ، وإدبارهم بعد إقبالهم ، وهروبهم إلى الأوعار ظنّاً منهم أنها من الجيش المسلم عاصمتهم ، وليس الفرار هم الجنود وحسب ، بل وقادتهم كذلك . والمسلمون في أثناء ذلك الاضطراب في صفوف أعدائهم يلاحقونهم ، فيقتلون من يقتلون ، ويأسرون من يأسرون . قال الشهاب محمود في بشارته بالنصر في مرج المفسّر عام ٧٠٢ هـ إن المغول بعد أن حمي الوطيس بدأوا "يطلبون الفرار ، ويتوقعون القتل إن تعذّر الإسار ، ... ، وتقاذفت بمن نجا منهم الفلوات ، وغرقتهم أمواج السراب قبل أمواج الفرات ، فأخذوا قنصاً باليد من بطون الأودية ورؤوس الشعاب ، ولم يحمل أحدٌ منهم على الغنيمة بالإياب ، وقتل أكثر مقدّمي التمانسات ، وفرّ كبيرهم وأنسى له الفرار؟" (٢) .

وأكثر ملامح ضعف الأعداء بروزاً ما يذكره الكتاب عن تضرعهم وتذللهم إلى السلطان طلباً لسلام ، وإعلاناً للاستسلام ، وإذعاناً بعد العجرفة والاعتداد بالنفس ، وهي ، لا شك ، أدلّ الصور على الضعف والهوان ، ويغتمّ الكاتب تلك الصورة بعفو السلطان عنهم ، ونصبهم الرايات الإسلامية على حصونهم بدلاً من راياتهم . وصف ابن العجمي تذلل الصليبيين في صفد ، بعد إدراكهم أن لا مفرّ ، بقوله : "صار رجاء السلامة برؤوسهم أقصى تمنّيهم ، فعدلوا عن القتال إلى السؤال ، وجنحوا إلى السلم وطلب النزول بعد النزال ، وتداعوا بالامتنان صارخين ، وجأؤوا بدعاء التضرّع لاجئين ، فأغمد المصح عنهم بسيف المصفاح ، وقتلوا من التوسّل بأحد سلاح ، واستدعوا راياتنا المنصورة فشرّفوا بها

(١) صبح الاعشى ٧ : ٣٨٦ ، وانظر النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٤ ، كنز الدرر ٩ : ١٢١ ، ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤١ .

(٢) نهاية الأرب ٥ : ١٦٣ ، وانظر ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤١ ، صبح الاعشى ١٤ : ١٦٩ .

الشرفات ، ونزلوا على حكمنا فأقالت القدرة لهم العثرات" (١) .

وترى في الرسائل الجهادية وصفًا لما حل بالعدو ، ويصور الكتاب ما أوقعه المسلمون بأعدائهم من قتل وأسر لملوكهم وقادتهم وجنودهم ، والدمار الذي أتى على قلاعهم ، والغنائم التي استولى عليها الجيش المسلم بعد المعركة .

جاء في رسالة بفتح أرسوفة عنوة^٢ على يد بيبرس عام ٦٦٣ هـ قول كاتبها : "واستوليننا على جميع أهلها ، فأضى كل منهم من القيد في وشاق ، وأضرمنا بها النيران ، فعجل الله لهم بها في الدنيا قبل الآخرة الإحراق ، وجر عناهم غصص الموت ، فتجرعوها مرّة المذاق ، ... ، فلم يفلت منهم أحد ، وعاجلناهم في هذه المدة القريبة فلم يبلغنهم ما فعلوه في تحصين البلد ، ولم يئتمس أحد منهم في ليلة الجمعة وقد نجا من القتل إلا وهو أسير ، واحتطنا بهم فما نجا منهم ، بحمد الله ، صغير ولا كبير" (٢) .

وقد كانت صورهم مثيرة للحسرة والالتم في نفوس الأعداء ، وللفرح والبهجة في نفوس أهل الإسلام ، وبخاصة في تلك الرسائل التي بشّروا فيها بالانصر على أعدائهم ، وتلك التي سفروا فيها من أعدائهم بعد التغلب عليهم . قال محيي الدين بن عبد الظاهر في رسالته إلى بيمند ساخرًا مستشيرًا له بعد فتح أنطاكية : "قلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهبابة فيها تصول والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار ، ودمايتك وكلّ أربع منهنّ تباع فتشتري من مالك بدينار ،... ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخرق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تخرق ، وقصورك وأحوالها قد حالت" (٣) .

ويذكر محيي الدين في رسالته المطوّلة بفتح قيساريّة الروم ، أن الجيش عرج على مكان المعركة مع المغول بعد العودة من قيسارية فأرّوا جثث القتلى وهي متناثرة في أرض المعركة ، وقد تناوشتها الكواسر فمزقتها ، وتعفّنت لتركها في

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤١ ، وانظر ٢ : ٤٤٨-٤٤٩ ، صبح الأعشى ٧ : ٣٩٨ ، كنز الدرر ٩ : ١٢١ ، السلوك ١ : ١٠٠٤ .

(٢) نفسه ٢ : ٣١٩-٣٢٠ ، السلوك ١ : ١٠٣٣ .

(٣) الروض الزاهر ٣١١ : ٣١١ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٠٦ ، ١٤ : ١٦٧ ، والسلوك ١ : ١٠٠٤ .

العراء ، وأقامت الحشرات على ما تبقى منها ، ولعبت الرياح بما تبعثر من أشلائها ، وأقامت اليوم تذبذبهم (١) .

كما يصور في رسالته المبشرة بالنصر عليهم عام ٦٧٨ هـ مصير ملوكهم وقادتهم ، فمنهم من قُتل ، ومنهم من سيق أسيراً مكبلاً بالسلاسل ، وقد ذهبوا لهُول ما رأوه في المعركة ، وتقطعت أعاؤهم حسرة على ما آل إليه أمرهم . قال : "وقُتلت ملوكهم من أولاد هولاكو وغيرهم ، فعجل الله بأرواحهم إلى النصار ، وثنى مولانا السلطان العنان وملوك المغل الأسرى يساقون بين يديه سكارى وما هم بسكارى ، وقد أثمرت رؤوس الرماح بكل بطل كم كان يحسن رأساً" (٢) .

- وصف الحصون

تقدمت الإشارة إلى أن رسائل البشارات بالنصر على الصليبيين لا تكاد تخلو من وصف القلاع والحصون التي حررها المسلمون ، وإلى أن ذاك الوصف كان يقتصد به زيادة السرور بالفتح ، وإبراز قوة الجيش المسلم وهمّة قائده .

ويغلب على هذا الوصف المبالغة في الحديث عن ارتفاع الحصون الشاهق ، ومنعتها لموقعها في قمم الجبال الشامخة ، فهي تسامي السماء وتكتنفها السحب ، وتخالط أبراجها البروج والكواكب ، وما أجمل وصف الشهاب الحلبي لحصن المرقب ، إذ جعل منه عروساً تلبس من النجوم أقرطاً ، وتتحلى بالكواكب زينة ! قال : "قد تفرط بالنجوم ، وتفرط بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ورسا أصله في التخوم ، تخال الشمس إذا علت أنها تتنقل في أبراجه ، ويظن من سها إلى السها أنه ذبالة" في سراج ، لا يعلوه من متبرجات بروج غير عين الشمس والمقل التي تطرف في أنجمه ، وحوله من الجبال كل شامخ يتهيب عقاب الجو قطع عقابه ، وتقف الرياح حسرى إذا توقفت في هضابه ، تخاف العيون إذا ما رمقته سلوك ما دونه من السماجر ، وتتخيّل الفكر صورة الترقى إليه ثم لا تبلغها حتى تبلغ القلوب

(١) صبح الأعشى ١٤ : ١٨٤ ، ١٨٥ ، وانظر كنز الدرر ٩ : ١٢١ .
(٢) تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٥ ، وانظر صبح الأعشى ١٤ : ١٦٨ ، السلوك ١ : ١٠٣٣-١٠٣٤ ، ١٠٣٨ .

الحناجر" (١) .

وممّن وصف حصن المرقب محيي الدين بن عبد الظاهر . قال في قلعه متاشراً
ببعض الايات الكريمة : "وهذه القلعة لها بالنجم مناط ، وبالسحب ارتباط ، ولها
على الدهر اشتراط ، ولبروجها ببروج السماء اختلاء واختلاط ، كم يسهو إليها
السّها ، ولولا المغالة - واستغفر الله - لقلت شكاد تستظل بسدره المنتهى ،
كانما الرياح لجيدها مَخْنُقة ، والغيوم لخميرها مَنُطَقة ، ... ، مصونة السّرح ،
كانّها ما تمنّاه فرعون على هامان من صّرح" (٢) .

وقد يمزج الكاتب في وصفه للحصن بين منعة موقعه ، وبين الاذى الذي يسبّبه
لبلاد المسلمين من حوله ، مما يعطي فتحه قيمة أكبر ، ويزيد البهجة بحصوله .
وصف محيي الدين حصن الاكراد بأنّيه كالشوكة في الحلق ، وبأنّيه مصدر قوة
الصليبيين التي تنشر الفزع والرعب في قلوب المسلمين بقوله : "... كان في حلق
البلاد الشاميّة غصّة لم تسغ بمياه السيوف المجردة ، وشجاء في صدورهم لم
تقاومته أدوية العزائم المفردة ، طالما أكسب البلاد رعباً ورهباً ، ... ، وكم صان
كفراً في بلاد الإسلام وحماه ، وكم ابتنى منها بكر أساء صحبتها فما خشي معرّة
ولا خاف حماة ، قد سما إلى السماء فلا أمل إليه يمتد ، وعلا في الهواء فلا بصر
يلمحه إلاّ وينقلب خاسئاً عنه ويرتد" (٣) .

ولربّما جمع الكاتب إلى ما تقدم من عناصر الوصف فشل محاولات فتح الحصن
المتقدمة ، وقد أبدع محيي الدين في تصوير منعة طرابلس وإبائها الخضوع لكل من
حاول تحريرها ، بدلال المرأة الجميلة ، وتمنّعها على عاشقيها ، كما أبدع في
وصف علوّها ومكانها من البحر ، فجعلها امرأة تتجلبب بالبحر وتختمر بالسحاب .
قال : " البحر لها جلباب والسحاب لها خمار ، وليس لها من البحر إلاّ بمقدار
ساحة الباب من الدار . كانّها في سيف ذلك البحر جبل قد انحطّ ، أو ميّمل

(١) حسن التوسّل : ٣٤٩ ، ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٩ ، صبح الاعشى ٨ : ٣٩٦ .
(٢) تشریف الايام والعصور : ٨٥ ، وانظر صورا أخرى في وصفه : ذيل مرآة الزمان
٤ : ٢٤٣-٢٤٤ ، ٢٥٤-٢٥٥ ، مطلع الفوائد : ٤٩١ .
(٣) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٤٤٥ ، وانظر : ٣٧٥ ، ٣٨٣ ، صبح الاعشى ٧ : ٣٨٠ .

استواءٍ قد خرج عن الخط ، ما قصد أحد شطّها بنكاية إلا شط واشتط" (١) .

- وصف الأسلحة وأساليب القتال

اهتم الكتاب في رسائل الحرب بوصف الأسلحة كالمنجنيقات والسيوف والرماسح والقيسيّ والسّهام ، كما اهتموا بوصف الأساليب القتالية والحيل العسكرية في ساحة المعركة ، مثل نقب الأسوار ، وحصار القلاع ، ووصف السفن الحربية .

والمنجنيق أهم الأسلحة المستخدمة في فتح الحصون ، ولا تكاد رسالة بشارة بفتح حصن تخلو من وصفه ، وبيان أثره في الأسوار ، فلا تلبث الحجارة وكرات النفط المشتعلة تتوالى على الحصن حتى تنصدع الأسوار ، وتتداعى الأبراج ، وقد استعاروا لوصف المنجنيقات صوراً جميلة معبرة ، ومن ذلك قول ابن العجمي في فتح صفد : " .. ثم وكلنا به من المجانيق كل عالي الضواري ، عاري المناكب ، عبل الشوى ، سامي الذرى ، له وثبات تحمل إلى الحصون البواقي ، وثبات تزول دونه - ولا يزول - الشواقي ، ترفع لمرورها الستائر فتدخل حجارته بغير استئذان ، وترضخ لنزوله رؤوس الحصون فتخر خاضعة للاندقان ، فلم يزل يصدع بثبات أركانه حتى هدمها ، ويقبل شياكات شغره حتى أبدى شرمها" (٢) .

ومن الصور الجميلة للمنجنيقات وأثرها في الحصون قول تاج الدين أحمد بن الأثير في رسالته بفتح حصن المرقب : "والمنجنيقات تفوق إليهم سهامها قسيها ، وتخيل لهم أنها تسعى إليهم حبالها وعصيها ، وهي والحصون من الدّ الخصوم ، وإذا أمّت معصماً لهم علمتهم أنه ليس بإمام معصوم ، ومتى افتري خلق في آلات الفتوح التي لم يكن فيها أحد من الممترين ، وإذا نزلت بساحة قوم فساء صباح المنذرين ، تدعى إلى الوغى فتكلم ، وما أقيمت صلاة حرب عند حصن ، إلا كان ذلك الحصن من يسجد لها ويسلم" (٣) .

(١) صبح الأعشى ٧ : ٣٩٤ .

(٢) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤١ .

(٣) نفسه ٤ : ٢٤٨ ، وانظر ٢ : ٣٤١ ، ٣٧٩ ، ٤٤٧ ، نهاية الأرب ٥ : ١٥٩ .

ويبدو من هذه الرسائل أن المسلمين كانوا ينقلون المجانيق إلى مكانها الذي تضربه منه مفككة أجزاؤها ، حتى يسهل حملها من مكان لآخر ، ثم يقومون بتجميع هذه الأجزاء . قال ابن العجمي في رسالته بفتح الشقيف بأن انتظار الجيش لأمر بيبرس بالهجوم طويلاً جعل الجنود يضجرون حتى "صارت السهام في كنانئها تقلق ، وأخشاب المجانيق لتفترق أجزائها تفرق" ، وبعد أن صدر الأمر "اجتمعت أعضاء المجانيق المنفصلة ، وتخطت في الهواء كفئاتها المنمتعة ، واعتزلت كل فرقة من أوليائها بمنجنيق ثقيمه ، وأعجب شيء أنها الظاهرية وأصبحت المعتزلة ، وعن قريب أهوت إلى الأعداء مطلقاً صفور الصخور ، وتتابع حجارتهما إليهم عندما خصلت من المجانيق ما في الصدور ، فبعثت من أجسادهم المرسومة في القلعة ما في القبور" (١) .

كما يبدو من بعض الرسائل أن المجانيق كانت تمنع أحياناً في ساحة المعركة بدلاً من نقلها مسافات طويلة ، إذ تقوم فرقة من الجيش مختصة بانتقاء أخشاب من الأشجار وتنقل إلى المكان المحدد للمنجنيق فيمنع ، قال محيي الدين في رسالته بفتح طرابلس : " فما لبثوا إلا بمقدار ما قيل لهم دونكم والاحتطاب ، ونقل المجانيق على الخيل وعلى الرقاب ، حتى جروها بأسرع من جر النخس ، وأجروها على الأرض سفائن وكم قالوا : السفينة لا تجري على بيبس ، وفي الحال نقلت إليهم فرأوا من متوقلها من يمشي بها على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع" (٢) .

ومن الكتاب من استعار لها من غزل الأحياب ونظراتهم صورة ، فإذا تدللت الحصون راسلتها المجانيق بحجارتها ، وأصابت حشاياها سهامها ، فما يلبث الحصن أن تلين عريكته . قال الشهاب الطبي في رسالته بفتح المرقب : "وقد كان نضب عليه من المجانيق ما سهامه أنفذ من سهام الجفون ، وخطراته أسرع من لحظات العيون ، لا يخاطب إلا بوساطة رؤسائه بضمير الطلاب ، ولا يرى لسان سهمه إلا كما ترى خطفات البرق إذا تألق في علو السحاب" (٣) .

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٧٨ ، وانظر صبح الأعشى ٧ : ٣٨١ .

(٢) صبح الأعشى ٧ : ٣٩٥ ، السلوك ١ : ٩٧٢-٩٧٣ .

(٣) صبح الأعشى ٨ : ٣٩٦ ، وانظر : ٣٩٨ ، التعريف بالمصطلح الشريف : ٢٧٠ .

وترى في الرسائل وصفاً للسيوف والرماح والقيسي^١ والسهام والسناجق^(١) ،
وتجدد الإشارة إلى أن عناية الكتاب بوصف هذه الأسلحة أقل من عنايتهم بوصف
المجانيق وأساليب القتال ، ومن الصور الجميلة لهذه الأسلحة مجتمعة قول ابن
العجمي^٢ في رسالته بفتح الشقيف : "وأقامت السمهرية ترمقهم بزرق عيونها ،
والمشرفية تتنازع لاستناباتهم بتغميض جفونها ، وبقيت السنة السناجق في أفواه
غلفها صامته لسماع الزحافات مصغية ، وكواسر الأساد في آجامها من الرماح
السمهرية مقطوعة ، وصارت السهام في كنانها تقلق"^(٢) .

ووصفوا السكاكين والسهام والكنائن والقيسي^٣ ، فجعلوا من القوس أمّاً ومن
السهم أبناءها ، فإذا خرج منها السهم أنثت كائنها شكل ترن^٤ وتعل ، وكائنها
استمدوا وصف الشنفرى لها في لاميته . قال الشهاب الحلي^٥ : "ومن خصائص القوس
أنها عقيم ذات بنين ، صامته وهي ظاهرة اللين ، لها كبد وهي غير مجوفة ، ويد^٦
لا تملك شيئاً وهي في الأرواح مصرّفة ، ورجل^٧ ما نقلت قدما ، وقبضة^٨ ما عرفت
إثراء ولا عدما ، فهي نون^٩ ما ألف الماء ، وهلال ما سكن السماء ، وقائلة^{١٠} ما
باشرت الدماء"^(٣) .

وقد كانت المعارك البحرية التي خاضها المماليك ضد أعدائهم قليلة ، فلم أقف
على رسائل في وصف معركة بحرية ، سوى إشارات إلى غرق بعض المراكب التي أرسلها
بيبرس عام ٦٦٩ هـ لفتح قبرص في أثناء غياب ملكها عنها ، ولم تتعد تلك الإشارات
وصف السفن بالحديد والخشب تهوينا للهزيمة على النفس ، ولننصر في نظر
العدو^(٤) ، ووصف ابن أبي حجلة لسفن الصليبيين الذين غزوا الإسكندرية عام
٧٦٧ هـ ، ووصف ابن فضل الله العمري لها في كتابه التعريف .

قال ابن أبي حجلة يصف قدوم العدو بسفنه بينما كان أهل الإسكندرية في غفلة
من أمرهم : "دهمهم بالشعر ما اصطكت به أسنانه ، ونعقت بالسبين غربانه ، من كل

(١) واحد لها سنجق : وهو الرمح براية أو بغيرها (صبح الاعشى ٤ : ٨ ، ٥ : ٤٥٨) .

(٢) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٧٨ ، وانظر : ٣٨٤ ، صبح الاعشى ٤ : ٢٤٥ ، السلوك ١ : ١٠٣٠ .

(٣) حسن التوسل : ٣٥٢ ، وانظر التعريف : ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٤) انظر الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر : ٣٨٦-٣٨٨ ، السلوك ١ : ٥٩٤ .

غراب (١) أسرع من عقاب ، وقرقورة (٢) أشام من غراب ، وطريدة (٣) تحمل الخيول ،
يقُدمها أصطول (٤) أيّ أصطول ، قطع متجاورات ، وغربان بأجنحة القلوع طائرات ،
فأسود البحر الأزرق من بني الأصفر" (٥) .

ووصفها ابن فضل الله مستعيراً لها صفات الخيول والطيور بقوله: "وأطار من
السفن كلّ خفيفة الجناح ، خفيفة الجماع ، تمدّ من القلوع أجنحة ، وتعدّ من
المجاذيف أسلحة ، تجلّ أن تقاس بدهم الخيل ، أو تشبّه نجيبه قلوعها المنتشرة
بنهار أو ليل ، قد اتخذت سماء البحر ميداناً ، وحطّت على موجة البحر غرباناً ،
وشالت أنفها تتنسّم الأرواح ، ومدّت كفّها وكتب على الماء ما خطّت في الألواح ،
فكأن كل واحدة منها على البحر ثوب فيه قيصر ، وكان الماء عين محدقة" وهو فيها
سواد البصر" (٦) .

وقد استوحى الكتاب في وصف الحصار ، بوصفه أسلوباً قتالياً ، كلّ ما يمكن
أن يشعر بإحكامه ، مثل إحاطة السّوار بالمعصم ، والجفون بالعيون ، والخاتم
بالإصبع ، والشفاه بالشفر ، والنّشاط بالخسر ، والطوق بالعنق ، والعمامة
بالرأس . ومن ذلك قول ابن العجمي في رسالته بفتح الشقيف : "قد سيّرنا إليها
العساكر الشاميّة تمسك منها بالخنق ، وتأخذ منها بمجامع الاطواق ، فحطّت بها
كما حطّت الخواصم بالخنصر ، أو كما حطّت العيون بالاهداب ، ودارت حولها سوراء
ما له من باب ، وأحدقت بثغرها إحداق الشفاه بالشفور ، وأطافت بها قبل إطاقتنا
كما يطوف البند قبل المنطقة بالخصور" (٧) .

وبالغوا في وصف إحكام الحصار ودقته ، فجعلوا سيطرة جيش المسلمين تمتد
لتطول الهواء فتتمنعه من الوصول إلى المحاصرين ، والشمس فحجبوا ظلّها عنهم .

-
- (١) نوع من السفن الحربية شديدة السّياس ، انظر السفن الإسلامية على حروف
المعجم ، درويش النخيلي ، دار المعارف بمصر ١٩٧٩م : ١٠٤ .
 - (٢) سفن حربية مخصصة لنقل المؤن والإمدادات (السفن الإسلامية : ١٢٠) .
 - (٣) سفن مخصصة لنقل الخيول (السفن الإسلامية : ٢) .
 - (٤) تطلق على سفينة القيادة ، وعلى مجموعة السفن (السفن الإسلامية : ٨٩) .
 - (٥) تذكرة التنبيه ٣ : ٢٨٩ .
 - (٦) التعريف بالمصطلح الشريف : ٣٢٥ .
 - (٧) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٧٨ ، وانظر : ٣٧٥ ، ٤ : ٢٥٢ ، ٢٥٦ .

قال ابن العجّميّ "يصف حصار صفد : "زحفنا إليه من كل جانب حتى صرنا كالنّطاق بخصره ، ودرنا به حتى عدنا كاللشام بشفره ، وأمطرنا عليه من المهام وبلاء سكت ذيول سحبه المتراكمة ، وأجريننا حوله من الحديد بحرا غرقه أمواجه المتلاطمة ، وضايقناه حتى لو وفد النسيم وصولاً إليه لما تخلّص ، أو رام ظلّ الشمس أن يعود عليه فيثاء لعجز ؛ لاخذنا عليه أن يتقلّص" (١) .

كما اهتموا بوصف نقب الاسوار ، وهو أحد الاساليب القتالية المستخدمة في علاج الحصون في أثناء حصارها ، ويلجأ الجيش المحاصر له لمحاولة الدخول إلى داخل الحصن لفتح أبوابه ، ولمساعدة المجانيق في هدم الاسوار ، وعادة ما ينقب النقبون حفرة ثم يحشونها بالحطب ويوقدونه . وقد شبه الكتاب هذه النقبوب بالمرض الذي يعتري سقامه الاسوار ، فهي تسري فيها سريان السقام من عضو لآخر ، حتى يخرّ السور مثل العليل انهارت قواه ، ومثل سريان الخمر في مفاصل شاربها فلا يقوى على الثبات ، وما يشعله النقبون من نيران في الاسوار شبهوه بالحمى التي تأتي على قوى المريض ، ولهبب العشق الخفي . قال الشهاب محمود يصف أثر النقبوب في أسوار حصن المرقب : "والنقبوب قد دبّت في باطنه دبيب السقام ، وتمشت في مفاصله كما تتمشى في مفاصل شاربها المدام ، وحشت أضالعه ناراً تشبه نار الهوى ، تحرق الاحشاء ولا يبدو لها ضرام" (٢) .

ويشبهه محيي الدين بن عبد الظاهر النقبابين وأدواتهم بالجراحين ومباضعهم ، ويشبه الحصن بالمريض أعياه داؤه فلم يبق له سوى استئصال أعضائه الثالفة . قال في بشارته بفتح حصن الاكراد : "وما برج النقبون حتى سروا في ضمايرها سريان الدم في مفاصل الإنسان ، وفصدوا بمباضع قطّاعاتهم عروق تلك الابدان" حتى أصبحت النقبوب "داءً معضلاً لا يجد العدو" إليه من فتكاته دواء مؤصلاً ، تنمو بتنقيص المواد أخلاطه ، ولا يئرجى ببجاري من الاططار المرسله انحطاطه ، حتى تحللت من الحصن المذكور قواه ، واحترقت حماة من النيران الموقدة بأحشاء حِمَاه" (٣) .

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤١ ، وانظر السلوك ١ : ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ .

(٢) صبح الاعشى ٨ : ٣٩٧ ، وانظر ٣٨١ .

(٣) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٤٤٦-٤٤٧ .

أما ابن العطار ، فقد شبه عمل النقّابين في الأسوار بعمل الخلد في الأرض حتى انهارت . قال في رسالته بفتح المرقب : "والنقّابة تعمل من خوارجها في داخل بنيانها عمل الخلد في الأرض حتى أخذها الله إلى الأرض ، ونقضت النقوب نظام أساساتها فانحطت ، وألقيت النار في أحشائها فألقت ما فيها وتخلّطت" (١) .

(١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٥٥ ، وانظر ٢ : ٣٤١ .

بناء الرسالة

يستعري النظر في رسائل هذا العصر اهتمام الكتاب فيها ببنائها على أغراض ومقاصد تنبع من الموضوعات التي عبروا عنها ، الأمر الذي يدل على أن كثيراً منها كان يحتاج عناءً في تدبيجه ، وحرصاً على اختلاف أقسامه ، كما يدل على وحدة الموضوع في الرسالة .

ومن شروط الرسالة الجيدة براعة الاستهلال ، واتساقها مع المقصد الذي تبني عليه الرسالة ، فعلى الناظم أو الناثر "أن يأتي في ابتداء كلامه ببيئة أو قرينة تدل على مراده في القصيدة ، أو الرسالة ، أو الخطبة ، أو معظم مراده ، والكتاب أشد ضرورة إلى ذلك من غيره ؛ ليبني كلامه على نمق واحد دل عليه من أول وهلة ، عُلِمَ بها مقصده ، إما في خطبة تقليد ، أو دعاء كتاب" (١) .

وكان من محاسن الافتتاحات في الرسائل أن يفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم ، أو بخبر من الأخبار النبوية ، أو ببית من الشعر ، ثم يبني عليه الكتاب ، واشتروطوا في هذه الافتتاحات أن تكون دالة على المعاني المقصودة ، "إن كان فتحاً ففتح ، وإن كان هناءً فهناء ، أو كان عزاءً فعزاء" (٢) .

وذكر القلقشندي أن عادة الكتّاب جرت على أن تشتمل الرسالة على مقدمة يفتتح بها الكلام ، وتكون "مشتملة على ما بعدها من المقاصد والأغراض" (٣) .

ويقف المطالع لرسائلهم على ما يحقق ما تقدم من آراء حول افتتاحات الرسائل بشكل عام ، وبخاصة في رسائل التولية والتعيين ، و الرسائل الإخوانية ، وبعض الرسائل الأدبية ، إذ تفتح رسائل التولية والتعيين بخطبة بحمد الله (٣) ، وعلى ذلك جرت العادة في المبايعات والعهود (٤) ، ومنه في تقليد بنيابة السلطنة

-
- (١) حسن التوسل : ٢٥٠ - ٢٥١ ، وانظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٣٤ .
(٢) المثل السائر ٣ : ٩٦ ، ١١٨ ، جوهر الكنز : ٢١٨ ، نمرة الشاعر : ٨٧ ، ٣٥٥ .
(٣) صبح الأعشى ٦ : ٢٧٩ ، وانظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٣٦ - ٣٣٧ .
(٤) التعريف بالمصطلح الشريف : ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، صبح الأعشى ٩ : ٢٨٧-٢٨٥ ، ١١ : ٧٥ ، ١١٢-١١٣ ، ١٣ : ٢٥ ، ٥١ ، ٥٢ ، ١٧٥ .
(٤) التعريف : ١١٩ - ١٢٠ ، صبح الأعشى ١٠ : ٤٤ - ٤٥ .

بالكرك: "الحمد لله الذي جعل بنا الممالك محصنة الحصون ، محميّة بكل سيف يقطر من حده المنون ، ممتنّة لاتتخطى إليه الظنون..." (١) .

ومن عهد بيبرس لابنه الملك السعيد الذي أنشأه محيي الدين . قال في افتتاحه : "الحمد لله منمّي الغروس ، ومبهبّ النفوس ..."(٢) .

أما عهود السلاطين عن الخلفاء فتفتتح بقول الكاتب "هذا عهد..." ، ومن ذلك العهد الذي أنشأه علاء الدين بن عبد الظاهر عن الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان للملك المظفر بيبرس عام ٧٠٨ هـ . قال في افتتاحه : "هذا عهد" شريف انتظمت به عقود مصالح المملك والممالك ، وابتسمت الثغور ببيعته التي شهدت بصحتها الكرام الملايك..."(٣) ، وتجدر الإشارة إلى أن التحميد في هذه الرسائل يتكرر غير مرة (٤) ، فكثرت تدل على عظم النعمة (٥) ، وتسير على هذا النمط من الافتتاحات بعض رسائل البشارات (٦) .

أما الرسائل الإخوانية ، فقد تفتتح بأبيات من الشعر في معنى الرسالة ، ومنه قول الشهاب محمود مهنثاً أحد أصدقائه بالعيد (٧) : (الطويل)
تهنّ فأيام السرور أو اهل وكل مخوفٍ عن جنابك راحل .

وقد تفتتح الإخوانيات بالدعاء للمكاتب (٨) ، وذلك غالباً عليها ، وعلى رسائل البشارات بالفتوح ووفاء النيل ، ومن ذلك قول ابن نباتة من رسالة تشوّق : "لا زال الدهر يقضي خدمه ، ويمضي رأيه وسيطه وللمه..." (٩) ، وقول الشهاب محمود في جواب عتاب : "زاد الله جنبه حناناً ، وأسبغ عليه إنعاماً وإحساناً..." (١٠) .

-
- (١) صبح الاعشى ١٢ : ٢١٩ ، وانظر : ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ .
(٢) صبح الاعشى ١٠ : ١٦٧ ، وانظر : ١٧٠ ، ١٧٧ .
(٣) نفسه ١٠ : ٦٩ ، وانظر : ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٩ .
(٤) انظر الرسائل المتقدمة في التوثيق (٥) .
(٥) صبح الاعشى ١٠ : ٤٥ .
(٦) انظر ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ .
(٧) صبح الاعشى ٩ : ٤٧ .
(٨) الصناعتين : ٢٢٤ ، نصره الشاعر : ٥٣ ، صبح الاعشى ٦ : ٢٢٤ .
(٩) صبح الاعشى ٩ : ١٤٦ ، وانظر : ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١١٠ - ١٢٣ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٦٤ ، ١٨٠ ، ١٨٢ .
(١٠) نفسه ٩ : ١٩٩ ، وانظر : ١٨ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٧٠ ، ٨٤ .

وافتح ابن عبد الظاهر رسالته مبشراً بفتح أرسوف عام ٦٦٣ هـ ، بالدعاء لابن
خلكان قاتلاً : " جدد الله البشائر الواردة على المجلس السامي القضائي ،
وأسرّه بما أسمع... " (١) ، وافتح رسالته إلى ملك اليمن مبشراً بفتح صافيتا
بقوله : " أعز الله نصره المقام العالي المولوي السلطاني المظفري الشمسي ،
وأشركه في كل بشرى " (٢) .

وقد تفتتح الرسائل الإخوانية بتقبيل الأرض أو اليد (٣) ، ومنه قول ابن
نعباتة من رسالة تعزية : " يقبل الأرض حتى بشعر الدمع ، ويسأل الله أن يحسن عن
ذلك الفرد عز الجمع " (٤) .

وقد يقرن الكاتب في افتتاح الرسالة بين تقبيل اليد والدعاء ، مثل قول
الشهاب في افتتاح رسالة تهنئة لصديق : " المملوك يقبل الباسطة العالية - بسط
الله ظلها ، وشكر على الأولياء فضلها " (٥) .

وقد تفتتح رسالة البشرية ، و رسائل عهود الخلفاء للسلطين بآية من القرآن
الكريم تناسب الغرض ، وكذلك بعض الرسائل الإخوانية . ومن ذلك قول ابن العطار في
افتتاح بشرى بفتح المرقب عام ٦٨٤ هـ : " نصر من الله وفتح قريب ، يسره الله
بعزائم الجناب العالي لازالت عزائمه تسهل من النصر مراداً " (٦) ، ومنه في عهد
المظفر بيبرس عن الخليفة أبي الربيع سليمان في المرة الثانية عام ٧٠٨ هـ . جاء
في افتتاحه : " إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم " (٧) ، وقول ابن مكائس
في افتتاح رسالته الاعتذارية إلى ابن العجمي : " ليس على الأعمى حرج " . قال ابن
حجة في هذا الافتتاح : " إنه يستغنى بهذه البراعة عن الرسالة " (٨) .

-
- (١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣١٩ ، وانظر : ٣٣٨ ، ٣٨٢ ، ٤ : ٢٢٤ .
(٢) صبح الاعشى ٧ : ٣٧٩ ، وانظر : ٣٨٦ ، ٣٩٢ ، تاريخ ابن الخرات ٧ : ٢٢٣ ،
نهاية الأرب : ١٥٦ ، ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٤ .
(٣) المناعتين : ٢٢٥ ، نصره الشاعر : ٥٤ ، صبح الاعشى ٦ : ٢٧٦ .
(٤) مطلع الفوائد : ٤٨٠ ، وانظر : ٤٨٦ ، صبح الاعشى ٩ : ١٠٨ ، ١٣٨ ، ١٩٥ ، ديوان
ابن الوردی : ٧٧ .
(٥) صبح الاعشى ٩ : ٧١ ، وانظر : ١٨ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٨٧ .
(٦) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٥٤ ، وانظر : ٩٥ وخزانة الأدب ١ : ٤١-٤٠ .
(٧) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٦٣ .
(٨) خزانة الأدب ١ : ٤٥ .

أما الرسائل الأدبية ، فإن افتتاحاتها تعتمد على كونها يكتاب بها أو لا يكتاب ، وهي قريبة من افتتاحات الرسائل الديوانية والإخوانية . افتتح علاء الدين بن عبد الظاهر رسالة الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر بخطبة بدأها بحمد الله قائلًا : "الحمد لله الذي أيد الدين المحمدي بنصره ، وحمى حماه بمن مضى هو وسلفه باداء فرض الجهاد..." (١) .

بينما افتتح محيي الدين بن عبد الظاهر رسالته في وصف غزوة الظاهر لقيسارية الروم بقوله : "يقبل الأرض بمساحات الأبواب الشريفة السيّدية ... لازالت ركائب السير تحت إلى أرجائها الميعة" (٢) ، وهي تشبه افتتاحات الرسائل الإخوانية . ويكون حسن التلخيص في الرسالة بذكر الفاظ تشعر بالانتقال من الافتتاح إلى الموضوع ، مثل أما بعد ، أو وبعد ، أو ولما كان فلان - وهي خاصة برسائل التولية والتعيين ، والمبايعات والعهود - أو كتبت ، أو وكتابنا ، أو هذه المكاتبة (٣) .

ومن ذلك قول الشهاب محمود بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله في تقليد بنيابة السلطنة : "أما بعد ، فإن أولى من فوضت إليه زعامة الجيوش بأسنى الممالك ... " ، ثم قال : "ولما كان الجناح العالي هو المسيف الذي على عاتق الدولة نجاده..." (٤) .

ومنه قول محيي الدين بن عبد الظاهر في رسالة البشرى بفتح أرسوف إلى ابن خلكان "جدد الله البشائر... هذه المكاتبة تُبشر بنصر من الله وفتح قريب ، وهناء يأخذ له المجلس منه أوفر نصيب" (٥) .

ومنه قول ابن العطار من رسالة بشرى بفتح المرقب بعد الدعاء : "قد أحاط

(١) السلوك ١ : ١٠٢٧ ، وانظر صبح الاعشى ١٤ : ١٨٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ .

(٢) صبح الاعشى ١٤ : ١٥٨ .

(٣) إحكام صنعة الكلام ، الكلاعي ، تحقيق محمد رضوان الداية ، بيروت ١٩٦٦م : ٧٨ .

(٤) صبح الاعشى ١٢ : ٢٠٣ ، وانظر : ٢٠٥-٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٠-٢٢١ ، ٢٢٢-٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ١٠ : ٥٤-٥٣ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٧٠ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٨-١٧٩ .

(٥) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣١٩ ، وانظر : ٣٣٨ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ - ٣٨٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤ : ٢٤٢ ، ٢٥٠ ، صبح الاعشى ٧ : ٣٧٩ ، ٣٨٣ ، نهاية الحرب ، ٥ : ١٥٧ ، السلوك ١ : ٩٧٢ ، ٥٩٤ .

العلم الكريم بالحركة المباركة والنزول على المرقب... ، وكتابنا هذا وقد علت على قلعتها أعلام الإيمان..."(١) .

وقد يكون حسن التخلص في الرسائل الإخوانية على هذا النمط ، فيذكر الكاتب بعد الدعاء أو "يقبل الأرض" بدء الخطاب ، مثل "صدرت هذه المكاتبة"(٢) ، ومنه قول الشهاب محمود في التعزية بولد بعد الدعاء : "صدرت هذه المفاوضة تهدي إليه سلاماً يعز عليه أن يثتبع بالتعزية..."(٣) .

وقد يكون التخلص بالبعدية ، ومن ذلك قول الشهاب محمود من شفاعة لمسجون بعد الدعاء : "وبعد ، فإن كافة الائمة قد تحققت رحمة قلب المولى"(٤) . أما رسائل الردود فكان التخلص فيها برد الجواب نحو "ورد كتابك"(٥) .

وأكثر ما يكون تخلص الكاتب وانتقاله من الافتتاح إلى العرض في الرسائل الإخوانية بعبارة (وينهي) ، أو (والمملوك ينهي) ، ومنه قول الشهاب الحلبي من رسالة تعزية : "المملوك ينهي علمه بهذه النازلة التي فتتت القلوب والاكباد ، وكادت أن تفرق بين الأرواح والأجساد"(٦) ، وقوله من رسالة شفاعة في معزول بعد تقبيل اليد : "وينهي ملازمته على شكر مواهبه ، ونشر فضائله الجسيمة ومناقبه"(٧) .

والحال في الرسائل الأدبية شبيهة بما تقدم ، فقد انتقل محيي الدين إلى عرض الموضوع بقوله : "ولما كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد ،... رأى أن يتحف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بلمح وآثار" ، وانتقل من ذلك قائلًا : "قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزمات الشريفة السلطانية..."(٨) ، في رسالته بفتح قيسارية الروم .

(١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ١٥٧ ، وانظر : ٥٦ .

(٢) إحكام صنعة الكلام : ٧٩ .

(٣) صبح الاعشى ٩ : ٨٣-٨٤ ، وانظر : ٨٦ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ .

(٤) صبح الاعشى ٩ : ١٣٩ ، وانظر : ٨٦ .

(٥) انظر نفسه ٩ : ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٤-١٢٣ .

(٦) نفسه ٩ : ٨٤ ، وانظر : ٨٦ ، ٨٧ .

(٧) نفسه ٩ : ١٣٨ ، وانظر : ١٠ ، ١٢ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ .

(٨) صبح الاعشى ١٤ : ١٥٨ - ١٥٩ .

وتختص علاء الدين من الخطبة إلى الموضوع بالبعدية قائلًا: "وبعد فإن الوقائع التي عظمت آثارها في الألفاق..." ، وانتقل إلى الموضوع قائلًا: "ولما كانت هذه الغزاة المبرورة ، والحسنات..." (١) ، في رسالته الروض الزاهر .

وتختتم رسائل المبايعات والعهود بالدعاء (٢) ، أما رسائل التولية والتعيين فتختتم بالامر والدعاء (٣) ، وتجري على هذا النسق في الاختتام بالدعاء رسائل البشارات (٤) ، وكذلك الحال في معظم الرسائل الإخوانية (٥) ، بل قد تكون الرسالة كلها دعاء (٦) ، وقد جرت بعض الرسائل الأدبية على ذلك (٧) .

وفي بعض الأحيان كانت الرسالة تختتم بأبيات من الشعر المناسبة ، ومن ذلك رسالة ابن الوردي في التعزية بالقاضي ابن البارزي حيث ختمها بقصيدة طويلة في رثائه (٨) ، وقدمه البندق التي أنشأها ابن الصائغ حيث ختمها بقصيدة في مدح المكاتب والدعاء له (٩) ، ورسالة محيي الدين بن عبدالظاهر في غزوة بيبرس لقيسارية الروم (١٠) .

وتجدر الإشارة إلى أن الرسائل التي دارت بين المماليك والصليبيين والمغول لم يكن لها نمط واحد محدد ، بل كان بناء الرسالة معتمداً على الغرض منها ، وعلى كونها ابتداء أو رداً ، وقد كانت معظم رسائل الردود تلبنس على الرسائل الواردة إلى السلطنة في افتتاحاتها ومادتها وخواتيمها ، ومن ذلك رسالة قلاوون إلى أحمد بن هولاكو رداً على رسالة الأخير ، إذ جاء افتتاحها على نسق افتتاح رسالة الملك المغولي ، ورد فيها قلاوون على الرسالة فقرة فقرة (١١) . وقد تفتتح

-
- (١) السلوك ١ : ١٠٢٨ .
 - (٢) انظر صبح الاعشى ١٠ : ١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٨١ .
 - (٣) انظر نفسه ١٢ : ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢١١-٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٨-٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ .
 - (٤) انظر نفسه ٧ : ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، تشريف الأيام والعصور : ١٦ ، النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٦ ، تاريخ ابن الفرات ٧ : ١١٩ ، ٢٢٥ ، نهاية الأرب ٥ : ١٦٠ ، ذيل صراحة الزمان ٢ : ٣٤٣ ، ٣٧٥ ، ٣٨١ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ .
 - (٥) انظر صبح الاعشى ٩ : ١٠٨-١١١ ، ١١٣ ، ١١٦-١٢٣ ، ١٤٧-١٥١ .
 - (٦) انظر نفسه ٩ : ٤٧ - ٤٨ .
 - (٧) انظر السلوك ١ : ١٠٣٩ ، صبح الاعشى ١٤ : ١٩٥ ، ٣٢٧ .
 - (٨) ديوانه ١٠٤ - ١٠٧ ، وانظر : ٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٨ ، صبح الاعشى : ٦١ ، ١٤٠ .
 - (٩) صبح الاعشى ١٤ : ٣٢٧ .
 - (١٠) نفسه ١٤ : ١٨٧ - ١٨٨ .
 - (١١) تشريف الأيام والعصور : ١٠-١٦ ، وانظر السلوك ١ : ٩٧٧ ، صبح الاعشى ٧ : ٢٦٥ .

الرسالة بعد البسملة بالموضوع دون مقدمات مثل رسالة بيبرس إلى بيمند وملك
قبرص (١) ، ورسالة الناصر محمد إلى غازان بعد مرج الصفرة عام ٧٠٢ هـ (٢) .

(١) الروض الزاهر : ٣٠٩ ، الملوك ١ : ٥٩٤ ، ٩٦٦ ، ٩٧٢ .
(٢) النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٢ .

الأسلوب

تضافرت عوامل عديدة في التوجيه إلى أسلوب محدد في كتابة الرسائل في عصر المماليك ، وهو أسلوب قوامه البديع ، والاقتباس والتضمين من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر والأمثال والخطب والرسائل ، وأهم هذه العوامل ، فيما أرى ، هي : ديوان الإنشاء ، وثقافة الكاتب ، ومؤلفات تعليم صناعة الإنشاء ، وآراء النقاد في عصر المماليك وقبله بقليل .

يتمثل أهم أثر لديوان الإنشاء في فن الرسائل ، والكتابة الفنية بشكل عام ، في أنه كان مؤسسة تعليمية للكتّاب المتطلعين للعمل فيه كما رأى الدكتور أحمد بدوي (١) ، ويبدو أنه اضطلع بهذه المهمة في عصور أخرى متقدمة ، كالعصر الأموي (٢) ، العصريين الفاطمي ، والأيوبي (٣) . وعلى ذلك ، يكون هؤلاء "الخريجون" قد اكتسبوا أساليبهم وثقافتهم الأساسية في أثناء تدريبهم في الديوان ، ولا بد لما اكتسبوه أن يظل مؤثراً في كتاباتهم فيما بعد .

كما يتضح أثر الديوان من خلال ما كان لصاحبه من دور في تحديد ألقاب المكاتبين ، وافتتاحات الرسائل إليهم ، ومقادير الادعية لهم ، وفي بناء كل رسالة حسب الوظيفة ، وحسب المكاتب (٤) ، ويذكر في هذا السياق أنه كان في الديوان سجل يحتفظ فيه بكل ذلك ، ويستعمله الكتّاب لتحقيق الدقة والضبط فيما ينشئون (٥) ، وقد بلغ الأمر بهذه الاصطلاحات حداً لا يمكن تجاوزه في أواخر عصر المماليك (٦) ، وكان بعض الأنواع من الرسائل الديوانية أصبحت مثل الطلبات أو النماذج الجاهزة التي نستعملها الآن في بعض المعاملات الرسمية .

وقد كان لرغبة الكتّاب في ترقّي المناصب داخل الديوان أثر في أساليبهم ؛ إذ

-
- (١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : ٣٣٤ ، ٣٤١ .
 - (٢) الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى العصر الأموي : ٢١١ - ٢١٢ .
 - (٣) (كتاب) الروضتين في أخبار الدولتين ، أبوشامة المقدسي ، دار الجيل ، بيروت (ب - ت) ١ : ١٩٢ ، الوشي المرقوم : ٥٥ ، وانظر تاريخ النقد الأدبي : ٥٨١ ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٢٩٥ .
 - (٤) صبح الأعشى ١ : ١٤٧ .
 - (٥) نفسه ١ : ١٦٩ .
 - (٦) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك ، خليل بن شاهين الظاهري ، اعتنى بتصحيحه بولس راويس ، باريس ١٨٩٤م : ١٠١ .

كان لزاماً عليهم أن يحدوا حذو رثيهم صاحب الديوان ، فقلدوه هيمما يغنثنى لينالوا إعجابه ، وكذلك الحال في أولئك الذين كسانوا يتطلعون إلى العمل في الديوان ، ولا يخرج من هؤلاء مجموعة الكتّاب المنتشرين في النيابات ممراً وشاماً ، فميلهم للعمل في الديوان المركزي بالقاهرة يقتضي إعجاب صاحب الديوان بكتاباتهم ، فاقتدوا به ، ونسجوا على منواله (١) . ويبدو أن ذلك كان سبباً لتنافس الكتّاب ، ومجالاً فسيحاً لتطور الكتابة لو تترك أمر الاحتذاء جانباً .

ومن العوامل المهمة التي شاركت في رسم ملامح الأسلوب مؤلفات تعليم الإنشاء ، ويتفق هذا الأسلوب مع الظرف الذي تكتب فيه الرسالة . وأسوق رأياً لابن الصيرفي في الأسلوب الواجب اتباعه في مكاتبة غير العرب قال فيه : "وليس يحتاج في مكاتبات أهل اللغات المخالفة لغير المعاني السديدة ، البريئة من الاستعارات ، والكتابات المائبة لمواضع الحجج ، التي تبقي جزالتها ونضارة معانيها وبهجتها مع النقل والترجمة" ، وقال بأن الكاتب إلى من لا يعرف العربية "لا ينبغي له أن يلزم باللفاظ المسجوعة ، ولا ضرب الأمثال والتشبيهات والاستعارات ، فإن ذلك إنما يستحسن ما دام مفهوماً في تلك اللغة ، وغير منقول إلى غيرها" (٢) . وقد أشر رأي ابن الصيرفي فيمن جاء بعده من الكتّاب ، ومصدق ذلك أن نصوص المعاهدات التي عقدت بين المسلمين والغزاة الصليبيين والمغول ، خلت من البديع والزخرفة اللفظية ، إذ كان القصد منها وضوح المعاني من أقرب سبيل (٣) ، كما رأى الدكتور أحمد أحمد بدوي .

وتلعد ثقافة الكتّاب في عصر المماليك من أهم العوامل المحددة لأساليبهم ، والحديث عن أثر الثقافة في الرسائل أسلوبياً وموضوعياً لا يلغي أثر البيئة فيها ، لكن المطالع الباحث يجد أن أثر الثقافة قد تجاوز أثر البيئة ، وبخاصة من حيث الأسلوب .

وقد أشار محمود رزق سليم إلى وجود عوامل أعاقتم تمصير الأدب في هذا العصر ،

(١) انظر عمر سلاطين المماليك ٥ : ١٥٩ .

(٢) قانون ديوان الرسائل ، ابن الصيرفي ، مطبعة الواعظ بمصر ، ١٩٠٥م : ١٢٩ .

(٣) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : ٣٣٠ .

وأضعفت الإلليمية عن الظهور فيه ، وردها إلى اللغة المشتركة والدين المشترك ، كما نبهته إلى تشابه أساليب الكتاب في عصر المماليك ممن تقدم أو تأخر (١) ، وأميل إلى رأيه هذا ، وأضيف إلى تلك العوامل العامل الثقافي ، الذي فرضته طبيعة المرحلة التي واجهت فيها الأمة أعداء لهم عقائدهم وثقافتهم ، فعادت إلى الأصول العربية الإسلامية (٢) ، فكان أن نشأ عن ذلك ثقافة موسوعية (٣) تستند إلى أصول دينية ولغوية وأدبية .

وللثقافة أثر مهم في ناحية أخرى من أساليب الكتاب وموضوعاتهم ، وتلك هي مسألة الاتباع والتقليد ، وقد بينت في حديثي عن ثقافة الكاتب إلى أن إبداعه مرتبط بسمعة ثقافته ، ولا بد له لتحقيق ذلك من الاطلاع على ما أبدعه من تقدمه من الأدباء والكتاب (٤) ، بل إن ابن خلدون اشترط على المترشح للكتابة حفظ الأسجاع والتراسل ليصبح كاتباً مجيداً (٥) .

فالاتباع ، إذن ، كان شيئاً طبيعياً بحكم تلك الثقافة ، لاشيئاً عارضاً بحكم نصب عقولهم من القدرة على الإبداع ، أو افتقارهم إلى المعاني ، أو عدم إحساسهم بواقع حياتهم كما قال بعض الباحثين (٦) ، بل إنهم رفضوا التقليد الأعمى (٧) ، ولذلك رفضوا أن يحفظ الكاتب رسائل من تقدمه من الكتاب حتى لا يقع في المارقة بغير قصد منه إلى ذلك (٨) .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه العوامل تضافرت مع عامل آخر لا يقل عنها أهمية ، وهو الحركة النقدية في هذا العصر .

-
- (١) عمر سلاطين المماليك ٥ : ٦٣ ، ٦٤ ، ٦ : ٢٧٤ ، ٢٧٥ .
 - (٢) البحث الأدبي : ٥٤ .
 - (٣) عمر سلاطين المماليك ٥ : ١٠٨ ، ١١٠ .
 - (٤) الصناعتين : ٢٢٩ ، المثل السائر ٢ : ٦٣ ، صبح الأعشى ٢ : ٣٢١ ، ٣٢٣ ، وانظر ابن حجة الحموي : شاعراً وناقداً ، د. محمود الربداوي ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨٢م : ٢١٧ .
 - (٥) انظر مقدمة ابن خلدون ٤ : ١٢٩٦ ، ١٣٠٤ .
 - (٦) انظر الفن ومذاهبه : ٣٨٥ - ٣٨٦ ، الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢٣ ، الأدب من الانحدر إلى الازدهار : ١٤٣ ، تطور الأساليب النثرية : ٢١٦ .
 - (٧) صبح الأعشى ٢ : ٣٢٥ .
 - (٨) انظر الوشي المرقوم : ٥٠ ، ٥١ ، حسن التوسل : ٩٣ ، ٩٤ ، صبح الأعشى ١ : ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

رشيق القيرواني (-٤٥٦ هـ) أصبح "مدرسياً" ، والتبس بالبلاغة ، وأنه أسلم إلى مسلمات أشبه شيء بقواعد البلاغة ، ونبّه إلى أثر ذلك بقوله : "في هذا السياق بلغنا الدور الذي أصبح فيه الناقد القادر على الابتكار غير موجود ، أو أصبح شخصية ثانوية لا قيمة لها في النشاط الأدبي ، أو في الركود الأدبي" (١) .

وأشار الدكتور محمد زغلول سلام إلى ظهور اتجاه بديعي في الأدب والنقد ، ومثل له بالحامي ، والعسكري ، وابن سنان الخفاجي ، وأسامة بن منقذ ، وضياء الدين بن الأثير ، والصفدي ، وابن حجة الحموي ، ومن جرى على شاكلتهم ، وهؤلاء وجهوا الأدباء إلى الأخذ "بجمال العبارة وإشراقها" ، وأولوا "اللفاظ وأصواتها وتركيبها وموسيقيتها والأشكال المختلفة للصياغة" اهتماماً جماءً (٢) ، وبذلك يكون تيار الاهتمام بالبديع قد نشأ قبل هذا العصر .

ونبّه الدكتور أنيس المقدسي إلى أن الترسل العربي أخذ منذ العصر العباسي "تضعف روحه لتحكم الصناعة فيه ،... ، وانصرف الكتّاب ... إلى ابتكار المعاني البنيانية ، والتنافس في نسخ الحلل اللفظية" ، وذكر أن "صناعة السجع وصلت في العصر العباسي إلى حد عظيم من التأنق ، وأصبحت في ذلك العصر ، وفي العصور التي تلتها الزي ، الإنشائي العام ، فسيطرت الأناقة البديعية على دواوين الإنشاء في الدول المختلفة ، وأصبحت المقياس الأعلى في حلقات الأدب" (٣) .

ومن الأسباب المهمة في شيوع البديع في الكتابة أن النقاد في هذا العصر كانوا كبار الكتّاب فيه (٤) ، مما أدى إلى ترسيخ الاتجاه التقريري في النقد (٥) ، إذ كانت آراؤهم النقدية في مجملها مستمدة من كتاباتهم ، وغير خاف أن في ذلك من الخطر على النقد والأدب ما فيه ، إذ يفتقد الناقد هنا أهم خصائصه وهي الموضوعية ، وقد أشار ابن خلدون إلى أن الجمع بين ملكتين ، والابداع فيهما

(١) تاريخ النقد الأدبي : ٢٤ .

(٢) تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجريين ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر (بت) : ٣٩ ، الأدب في العصر المملوكي ٢ : ١٣ .

(٣) تطور الأساليب النثرية : ٢١٣ ، ٢١٦ .

(٤) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٢٩٥ .

(٥) ابن حجة الحموي : شاعراً وناقداً : ٢٢٩ .

جميعاً ، أمر بعيد الحصول ، إذ تظل الملكة المكتسبة أولاً غالبية على غيرها قوة وتأثيراً* (١) .

- الصنعة الفنية

برزت ظاهرة التناقض والصنعة في رسائل هذا العصر (٢) ، بيد أن هذه الظاهرة كانت بارزة في رسائل الكتاب من قبل (٣) ، ومن وجه الإنصاف أن ننظر في دواضع سيادة هذا الذوق القائم على اعتبار الصنعة ، والبديع خاصة ، أساساً يقوم به نتاج الكاتب .

رد محمود رزق سليم ذلك إلى عناية الأدباء والنقاد "حينذاك بدراسة أساليب القرآن ، وطريقة نظمه" ، فاندفعوا بدافع الإعجاب بنظمه الفريد إلى اصطناع البديع (٤) ، وفي ذلك شيء من الصواب ، على الرغم من أن الدراسات لأسلوب القرآن الكريم ونظمه متقدمة على عصر المماليك ، كما رده إلى تآثر الكتاب بطريقة القاضي الفاضل (٥) ، وعلى ذلك أكثر الباحثين المحدثين (٦) .

وربط الدكتور عمر باشا سيادة الذوق البديعي بنضج العلوم البلاغية في عصر الأيوبيين والمماليك ، وأعاد بروز الصنعة في الرسائل إلى عاطفة الكاتب . قال : "ويلاحظ من طرف آخر أن العاطفة كانت تحاول أن تبرز من خلال هذه الرسائل ، إلا أن التصنع والتكلف كانا يحجبانها عنا قليلاً ، فيحاول الكاتب من خلال هذا الجهد الفني الذي كان يبذله أن يصعداًها" (٧) ، وغير خاف أن فيما ذهب

-
- (١) انظر مقدمة ابن خلدون ٤ : ١٢٨٨ .
 - (٢) انظر عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، الأدب في العصر المملوكي ٢ : ١٣ ، ٤١ ، الأدب في بلاد الشام : ٧٨٩ ، الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢٢ ، الفن ومذاهبه : ٣٧٣ .
 - (٣) تطور الأساليب النثرية : ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٣٤٢ ، الأدب في العصر الأيوبي د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ١٩٨٣م : ١٦٨ ، ١٧٩ ، تاريخ النقد العربي : ٣٠ ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٨٣ .
 - (٤) عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٥٨ ، وانظر الفن ومذاهبه : ٣٧٩ - ٣٨٠ .
 - (٥) نفسه ٦ : ٣٦٠ .
 - (٦) الفن ومذاهبه : ٣٧٩ ، ٣٨٥ ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : ٣٢٤-٣٢٥ ، الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢٥ ، تطور الأساليب النثرية : ٣٤٢ ، الأدب من الانحدار إلى الازدهار : ١٤٤ ، ١٤٥ .
 - (٧) الأدب في بلاد الشام : ٧٥١ ، ٧٨٩ .

إليه لونا من التناقض ، إذ كيف يكون التمتع سائرا للعاطفة ، ثم يكون دافعا لبروزها ، وسببا فيه ؟ .

وعلى الدكتور محمد الفقي شغل الكتاب بالصفة بأن "المقصد الذي كان يقصده الأدباء من أدبهم هو الملوك والأمراء . وهؤلاء إنما تتقدم لهم في الماديات الطرّف الجميلة الصنع ، المزخرفة والمزركشة باللؤلؤ ، فكان لزاما أن يكون الأدب على هذا النحو" (١) ، وهو تعليل تنقصه الدقة ، حيث كان المماليك ممن لا يعرفون الفصحى غالبا ، بل توجه الرسائل إلى دواوينهم ويقوم الكتاب بنقل مضمونها إليهم (٢) . كما رد الصنعة إلى ضعف ملكات الكتاب ، وتخاذل سلاشهم ، وذهب إلى أن ثقافتهم كانت ضئيلة محدودة . قال : "على أن حظ هؤلاء من المعاني قليل ، ومن الأفكار محدود ضئيل ، وما اطلعوا عليه من التراث السابق كان هيئا ... فهم لذلك مضطرون أن يلقوا بستار من الصناعة على هذا الفراغ العميق" (٣) ، وهو أمر يرد ما تقدم من حديث عن ثقافة الكاتب .

ورأى الدكتور محمد زغلول سلا أن البديع والتنميق عندهم كان القصد منه "ليس الإفهام ، بقدر ما يقصد به الإمتاع ، وبث اللذة من خلال الكلمة صوتا ودلالة" (٤) ، وهو حكم لا يخلو من التعميم ، غير أن ما قاله فيه شيء من المواب .

وعزا الدكتور جودت الركابي عنايتهم بتنميق رسائلهم ، واهتمامهم بالكتابة أكثر من الشعر إلى عجمة المماليك ، وضعف تذوقهم للشعر ، وميلهم إلى "النثر لسهولته" (٥) ، وهو أمر يرد كونه الكتابة بلغت درجة تفوق الشعر من حيث الجهد الفني المبذول فيه (٦) ، كما يرى الدكتور عبداللطيف حمزة .

إن مجمل الآراء التي أشرت بالصفة ، وبالكتاب الذين اتخذوها نهجا في عصر

-
- (١) الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢٣ .
 - (٢) انظر معيد النعم : ٣٠ ، صبح الأعشى ١ : ١٤ .
 - (٣) الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢٢ ، ١٢٣ .
 - (٤) الأدب في العصر المملوكي ٢ : ١٣ .
 - (٥) الأدب من الانحدار إلى الازدهار : ١٤٤ .
 - (٦) أدب الحروب الصليبية ، د. عبداللطيف حمزة ، دار الفكر ، القاهرة ، ط ٢ : ١٧٥ ، وانظر الأدب في العصر الأيوبي : ١٧٩ .

المماليك ، قد استقفاها الدارسون من هجوم ابن خلدون على الكتاب المشاركة (١) ،
 إذ نعتهم باستيلاء العجمة على السنتهم ، والقصور عن إعطاء الكلام حقه ،
 والعجز عن الكلام المرسل لبلاغته ، واتهمهم بأنهم استخدموا المصنعات البديعية
 لإخفاء عيوبهم ، وتزيين كلامهم الفارغ من المضمون (٢) ، ويبدو أن ابن خلدون
 هاجم الصنعة في الكتابة ، وعد دخولها فيها مفسدة بسبب إيمانه العميق
 بالفكرة (٣) ، وقد نبهت في الحديث عن أثر الحركة النقدية في فن الرسائل إلى أن
 في تهجم ابن خلدون على أساليب الكتاب البديعية شيئاً من المبالغة ، إذ وجه من
 يترشح للكتابة إلى حفظ الأسجاع والتراصيل (٤) ، فكيف يرفض أشراً ينجم عما يوجه
 إليه ؟

وقد أدت عوامل كثيرة إلى سيادة الذوق البديعي ، والصنعة الفنية في رسائل
 هذا العصر ، وقد تقدم الحديث عن بعض العوامل المؤثرة في فن الرسائل بعامة ،
 ومن الإنصاف لهذا العصر وكتابه وأدبه أن نستقصي العوامل التي ساعدت على طبع
 أدبه بهذا الطابع .

أشار الدكتور زكي مبارك إلى أن العناية بالبديع ارتبطت بالأدب العربي في
 مراحل تطوره ، وأنها قبل بروزها في العصر العباسي مرت بمراحل تنامت فيها منذ
 العصر الجاهلي ، على أنها كانت قبل عصر العباسيين تلقائية في الغلب الأعم ،
 ثم تزايد الاهتمام بالصنعة على يد بعض شعراء القرن الثاني من أمثال بشار بن
 برد ومسلم بن الوليد وأبي تمام (٥) ، واستمر الأمر على ذلك في القرن الثالث ،
 حتى أصبح البديع نهجاً للكتاب في القرن الرابع ، وبرزت الصنعة في نثره (٦) .
 ووافقه في ذلك أحمد موسى في بحثه حول فن البديع في اللغة العربية (٧) ، وهو رأي
 مقبول إلى حد كبير .

-
- (١) عصر سلاطين المماليك ٦ : ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
 - (٢) مقدمة ابن خلدون ٤ : ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ .
 - (٣) تاريخ النقد الأدبي : ٦١٧ .
 - (٤) انظر مقدمة ابن خلدون ٤ : ١٣٠٤ .
 - (٥) انظر النثر الفني في القرن الرابع ، د. زكي مبارك ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٤م ١ : ٤٨ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٨١ ، ٨٣ .
 - (٦) انظر المرجع نفسه ١ : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٣ .
 - (٧) انظر الصبغ البديعي في اللغة العربية ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٩م ٢٢ : ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٨ .

وما إشارة القدماء إلى أن شعراء القرن الثاني أنفي الذكر لم يسبقوا إلى البديع ، وإنما كثر في شعرهم (١) إلا دليل على أن البديع طابع أصيل في اللغة العربية (٢) كما يرى الدكتور زكي مبارك ، وما استشهداهم على بعض فنونه بما في آيات القرآن الكريم ونصوص الحديث الشريف إلا دليل آخر على ذلك .

وقد استمرت العناية بالبديع في الأدب العربي إلى أن أصبح السجع وما يصاحبه من فنون البديع زياءً إنشائياً للكتابة وجسمه النقاد إليه ، وبلغ في القرن السادس درجة عظيمة من الاهتمام على يد القاضي الفاضل الذي قيل في طريقتة : إنها شريعة جديدة نسخت الشرائع القديمة في الكتابة حتى قيل : الطريقة الفاضلية (٣) ، وتأثر الكتاب بعد القاضي الفاضل بطريقتة إلى أن "أصبحت شائعة في المشرق الإسلامي ، وفي مغربه" (٤) .

وفي هذا السياق يمكن القول بأن تحكم المنعة الفنية في أدب الرسائل في عصر المماليك يمثل الذروة التي بلغها تيار البديع في الأدب العربي ، واذكر في السياق ذاته قولاً للقاضي الفاضل وصف فيه الكتابة في العصر الفاطمي بأن فنّها كان غصاً طرياً (٥) ، ووصفها ابن شيث في مطلع القرن السابع بأنها " سقطت تاؤها وطمست أنباؤها" (٦) ، مما يدل على أن اكتمال نهج القاضي الفاضل كان على يد كتاب العصر المملوكي الأول الذين احتذوا حذوه .

ومن العوامل المهمة في سيادة الذوق الفني القائم على البديع في عصر المماليك ، جمهور فن الرسائل ، أو جمهور الكاتب الذي يوجه إليه رسائله ، حيث

(١) انظر البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٤٨م ، ١ : ٥٩ ، البديع ، ابن المعتز ، طبعة كراتشوفسكي ، لندن ١٩٣٥م : ١ ، ٣ ، الموازنة بين الطائيين ، اللمدي ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر (ب - ت) : ٦ ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، القاضي الجرجاني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي البجاوي ط ٣ ، : ٢٥ ، ٣٨ ، وانظر الصبغ البديعي : ٥٦ - ٦١ .

(٢) النثر الفني : ٤٧ .

(٣) شمراة الأوراق : ٢٢٣ ، وانظر : الصبغ البديعي : ٣٥٢ ، عصر سلاطين المماليك : ٦ : ٣٦ ، الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢٢ ، ١٢٥ ، الفن ومذاهبه في النثر العربي : ٣٨٥ ، تطور الأساليب النثرية : ٢٩٢ ، ٣٤٢ ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : ٣٢٤-٣٢٥ ، الأدب من الانحدار إلى الازدهار : ١٤٤ .

(٤) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٨٤ .

(٥) انظر الروضتين : ١ : ١٩٢ ، الوشي المرقوم : ٥٤ .

(٦) معالم الكتابة : ٢٣ .

يجد المطالع للرسائل أنها وجهت في الغالب الأعم إلى كتّاب أو قضاة ، أو علماء ، وليس الأمر مقصوراً على الرسائل الإخوانية التي كانوا يتبادلونها ، بل إن كثيراً من الرسائل الديوانية كانت توجه إلى أمثال أولئك (١) ، ومثلها كثير من الرسائل الأدبية (٢) ، ولما كان الكاتب والمكاتب يؤمنان بأن الأسلوب البديعي هو الأتمثل ، فقد زاد ذلك من عنايتهم بالتأنق ، بل وتسابقوا إلى بلوغ أقصى غاياته .

ومن الجدير بالذكر أن بعض فنون البديع كانت مما يستدعيه المعنى ، بل يفرضه ، وينبع من القصد الذي تثبني عليه الرسالة ، وأن منها ما فرضته حالة الصراع مع الغزاة ، وأشير هنا إلى فنّي الطباق والمقابلة ، وبخاصة في رسائل المفاخرات والمناظرات ، والرسائل الجهادية ، وهما من الرسائل التي لا يمكن أن تخلو من هذين الفنّين ؛ إذ هما مرتبطتان بمضمون الرسالة والقصد منها في الحالين .

وإذن ، فإن لذوق العصر المملوكي مسوغات كثيرة ، وليس لنا أن نحاكم عصره فننزهه لسراة على مقاييس عصر آخر ، وإذا أجزنا ذلك لأنفسنا ، فليس لنا أن نحاكم العصر كله بمقياس واحد ، أو نأخذ كاتباً بجريرة آخر . ذكر القلقشندي أنه دخل في عداد كتاب الديوان من ليس أهلاً لذلك ، وبخاصة في أواخر هذا العصر ، وأصبح هؤلاء لا يابتهون سوى بالإغارة على ما أنشأه غيرهم ، أو تقليده تقليداً أعمى (٣) ، فكيف نتعامل على كتّاب العصر كلهم بسبب أمثال هؤلاء (٤)؟ وهل يصح أن ننعت أمثال محيي الدين بن عبد الظاهر ، والشهاب الحلبي، وابن فضل الله العمري ، وابن نباتة المصري ، وصلاح الدين المصفي بالأعاجم والغفل (٥) كما تساءل محمود رزق سليم ؟ إنه وصف يفتقر إلى الدقة والموضوعية .

(١) انظر رسائل من ذلك في ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣١٩ ، ٣٣٨ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ .

(٢) انظر رسائل من ذلك في صبح الأعشى ١٤ : ١٥٨ ، ٢٧٤ ، ٣٠٣ ، ٣٢١ .

(٣) انظر صبح الأعشى ١ : ١٧٢ - ١٧٣ .

(٤) الترسل وابن عبد الظاهر : ٢٧ - ٢٨ .

(٥) عمر سلاطين المماليك ٦ : ٢٢٠ - ٢٢١ ، ٢٣٠ - ٢٣٢ ، وانظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٠٨ .

وهو "تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد" (١) ، ومن السمات الاستوبية التي لم تخل بها سوى رسائل المطالعات بالآخبار إلى السلطان (٢) ، والمعاهدات بين المماليك والغزاة (٣) .

وللنفاد وعلماء البلاغة مواقف مختلفة من استعمال المسجع في الكتابة ، فمنهم الذي عارضه ، ودم استعماله بكثرة (٤) ، ومنهم من حث عليه ، ورأى فيه جمالا وإن كان متكلفا (٥) ، ومنهم من اشترط لحسنه أن يكون المعنى هو الذي استدعاه بغير تكلف (٦) ، وشرط ابن الاثير أن تضيف الفقرة الثانية معنى إلى الأولى ، فلا يكون الكلام مكرورا (٧) ، وعد ابن شيث انصراف الكاتب المتمكن من البلاغة عن المسجع "تنزلا" ، وطلبيا للاختصار" ، وذكر أنه لا يفرق في المسجع بين رسالة الاعلى إلى الأدنى أو العكس ، وخص من الرسائل بالمسجع المناشير التي يصدرها السلطان (٨) . وعلق على ذلك القلقشندي بقوله : "... لكن قد ذكر بعض المتأخرين أن الكتابة بالمسجع نقص في حق المكتوب إليه ، وقضيته أنه لا يكتب به إلا من الاعلى للأدنى" ، كما ذكر أن "الكتب التي تبني على سجة واحدة تأتي مرتبتها متأخرة بين المكاتبات" (٩) . وأعتقد أن رأيه هذا ليس مستمدا من رتبة الرسالة فنيا ، وإنما اعتمد فيه على مراتب الوظائف ، والرتب السياسية ، وعلى قوله المتقدم من أن المكاتبة بالمسجع نقص في حق المكتوب إليه .

وتجدر الإشارة إلى أن في عصر المماليك من انتقد المسجع ، وأزرى به ، ومن أولئك

-
- (١) المثل السائر ١ : ١٩٣ ، تحرير التحبير ، ابن أبي الإصبع ، تحقيق د. حنفي محمد شرف ، القاهرة ١٣٨٣ هـ : ٣٠٠ .
 - (٢) انظر صبح الاعشى ٨ : ٥٦ - ٦٢ .
 - (٣) انظر نفسه ١٤ : ١٨ - ٨٢ .
 - (٤) انظر البرهان في وجوه البيان ، إسحاق بن وهب الكاتب ، تحقيق د. أحمد مطلوب و د. خديجة الحديشي ، بغداد ١٩٧٤م : ٢٠٦ ، وانظر المثل السائر ١ : ١٩٣ .
 - (٥) انظر إحكام صنعة الكلام : ٢٣٦ .
 - (٦) انظر أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق ه. ريتز ، استانبول ١٩٥٤م : ١٠ ، سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، تحقيق عبد المتعال الصعيدي ، مطبعة محمد صبيح ، القاهرة ١٩٥٣م : ٢٠١ ، صبح الاعشى ٢ : ٣١٣ ، ٣٥٣ .
 - (٧) المثل السائر ١ : ٢٣٨ ، خزنة الادب ٢ : ٤١٢ ، صبح الاعشى ٢ : ٣١٣ .
 - (٨) معالم الكتابة : ٧٣ ، ٩٧ .
 - (٩) صبح الاعشى ٦ : ٣٠٧ ، ٨ : ١٨٥ .

تاج الدين السبكي الذي انتقده بطرفة رواها (١) ، وذكر القلقشندي أن بعض الكتاب في العصر المملوكي كانوا يرون في التزام السجع في خطب رسائل التولية تكلفاً وعسر تلفيق و"تمنعاً سمجاً" (٢) .

وأشدهم انتقاداً للسجع ابن خلدون . قال في الكتاب الذين يلتزمون به في مكاتباتهم : "ولموا بهذا المسجّع يُلَفِّقُونَ به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالسجع والانتساب البديعية" (٣) .

وعلى الرغم من انتقاد بعض النقاد والادباء لاستعمال السجع ، فإن الأسلوب المسجّع أصبح في هذا العصر مقياساً لجودة الكتابة ، وتمسك به كثير من الكتاب ، ودافعوا عنه ، واتهموا من لم يأت به بالعجز والقصور (٤) .

وقد أشار القلقشندي إلى ضرورة التزام السجع في خطب رسائل التولية والتعيين (٥) ، وتحقيقاً لقوله كان الغالب في هذه الخطب أن تُبنى على سجة واحدة ، ومن ذلك في تقليد بالوزارة أنشاء محيي الدين بن عبد الظاهر : "الحمد لله الذي وهب لهذه الدولة القاهرة من لدنه ولياً ، وجعل مكان سرها وشد أزرها عليّاً ، ورضي لها من لم يزل عند ربه مرضياً . نحمده على لطفه الذي أمسى بنا حفيّاً ، ونشكره على أن جعل دولتنا جنة أورث تدبيرها من عباده من كان تقياً ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نسبّح بها بكرة وعشيا ، ونصلي على سيدنا محمد الذي آتاه الكتاب وجعله نبياً ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً نتبّع بها صراطاً سوياً" (٦) .

ومن خطب رسائل التولية ما كان على رويّتين أو ثلاثة ، ومن ذلك قول الشهاب الحلبي في تقليد بالوزارة : "الحمد لله مكمل شرف الوزارة بطلعة تاجها ، ومشرف

(١) انظر معيد النعم : ١٠١ .

(٢) صبح الاعشى ٩ : ٢٨٦ .

(٣) المقدمة ٤ : ١٢٨٧ ، وانظر : ١٢٨٦ ، الادب العربي في العصر المملوكي : ١٢٣ .

(٤) عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٨١ ، الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية : ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، الادب في العصر المملوكي ٢ : ٤٢ .

(٥) صبح الاعشى ٩ : ٢٨٦ .

(٦) نفسه ١١ : ٢٦٥ ، وانظر ١٠ : ١٧٧ ، ١٢ : ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٣١ ، ١٣ : ١٤ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ .

قدرها بمن تشرق عليها أشعة سعدة إشراق الكواكب على أبراجها ، ورافع لواء مجدها .
 بمن تلقته بعد الجفاء في حلل سرورها وطي ابتهاجها ، وتحملت بعد العطل من
 جواهر مفاخره بما تتزين عقود السعد بازديادها ، وترفل من انتسابها إلى أبهة
 بهائه بما يود ذهب الاصيل لو امتزج بسلوك انتساجها ، الذي شيد قواعد هذه
 المرتبة السنية في أيامنا وجددها ، وبعث لها على فترة من الانكفاء من حسم
 الادواء فكان مسيحها ، وشرع المعدلة فكان محمدها ، وردّها بمحكم الاستحقاق إلى
 من لا يختلف في أنه صاحبها ، ورجعها إلى من خطبته لنفسها بعد أن أحجم لشرف
 قدرها خاطبها" (١) .

ولم أجد من الرسائل التي بنيت على سجة واحدة سوى منشور واحد (٢) ، وقد
 تقدم قول ابن شيث من أن السجع فيها يستحسن ، وقد خولف في بعضها عن روي السجع
 إلى غيره (٣) .

وأكثر ألوان السجع دورانا في رسائلهم ما تكون من فقرتين متفقتين في روي
 واحد ، يتلوها فقرتان تتفقان في غيره ، دون مراعات لعدد اللفاظ في الفقرتين
 أو أوزانها (٤) ، ومنه في رسالة عتاب : "مولانا لدى المملوك عوارف لايهتدي إلى
 معرفتها فيوفئها كننه المراد ، وأياد لا يبلغ ما تستحقه من الإحماد ،
 أجلسها في نفسه خطرا ، وأحسنها عليه أشرا ، ما يفرضه له من بره وإكرامه ،
 وتعهده واهتمامه ، وقد غير مولانا عادته ، ونقض شيمته ، وبذل المملوك من
 الانعطاف بالإعراض ، ومن الانبساط بالانقباض ، وحمله من ذلك ما أوهى قوى
 صبره ، وأظلم بمائر فكره ، فإن يكن ذلك لخطأ واقع المملوك ساهيا ، وجرم
 اجترمه لاهيا ، فمثل مولانا لا يطالب إلا بالقصد ، ولا يعاقب إلا على
 العمد" (٥) .

(١) صبح الاعشى ١١ : ٢٦٩-٢٧٠ ، وانظر ١٠ : ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٢ : ٩٥ ، ١٣ : ١٧٧ .

(٢) انظر نفسه ١٣ : ١٧٨ - ١٧٩ .

(٣) انظر نفسه ١٣ : ١٧٢ - ١٧٧ ، ١٧٩ - ١٨٠ ، ١٨٢ - ١٨٣ .

(٤) ويسمى بالسجع الحالي ، ومنه الترمييع والمطرف والمتوازي . قال القلقشندي :
 وعليه عمل أكثر الكتاب من زمن القاضي الفاضل وهلم جرا إلى زماننا (صبح
 الاعشى ٢ : ٣٠٤) .

(٥) صبح الاعشى ٩ : ١٧٩ ، وانظر ٩ : ١٨٣ ، ١٩٥ - ١٩٩ ، ١٢ : ٢٠٣ - ٢٠٧ ، الروض
 الزاهر : ٣١٠ - ٣١٢ ، نهاية الأرب ٥ : ١٦٢-١٦٤ .

وتلقف في بعض الرسائل على لون آخر من السجع أشار إليه القلقشندي في حديثه عن مواضع حسن السجع وقبحه في الكلام ، فذكر أن من مواضع حسنه "أن يقع في خلال السجعة الطويلة قرائن قصار فتكون سجعا" في سجع" (١) ، وهو ليس كثيرا إذا ما قيس بما تقدم من ألوان السجع .

ومن ذلك ما جاء في منشور أنشاه محيي الدين بن عبد الظاهر . قال فيه : " إن الهواتف أبين ما تشدو ، إذا حطت الرياض بها من كل جانب ، والسماء أحسن ما تبدو ، إذا تزينت بالكواكب السيارة والشهب الثواقب ، والسعادة أحمد ما تحددو ، إذا ختمت بمن إليه ، وإلا ما تلشد الركائب ، وعليه ، وإلا ما تشنسي الحقائق والحقايب" (٢) .

ومن السجع الترصيع ، وهو اتفاق ألفاظ الفقرتين من السجع في العدد والوزن والروي ، وقد عده ابن الأثير من محاسن النثر ومثالب الشعر (٣) ، وخصه بعض البلاغيين بالشعر (٤) . وقد يلجئ إلى الترصيع الجناس فيكون أرفع وأجمل (٥) . قال فيه القلقشندي : " وهو أحسن أنواع السجع وأعلاها" (٦) .

وإذا كان الترصيع مما يزيد الكتابة حسنا ورونقا ، فإنه ينم عن عناية زائدة بالألفاظ ، وتكلف لا يخفى ، ومن أمثله في رسائلهم ما جاء في مقدمة بندق أنشاه ابن الصائغ الحنفي ، إذ وصف الصيد بأنه من أفضل الرياضات ، "وأفخرها قيمة ، وأغزرها ديمة ،...، يحمل عند متعاطيه نشاطها ، ويزيده انبساطها ، ويشرح خاطره ، ويسرح ناظره ، ويملا عينيه قرة ، وقلبه مسرة ، يشجع الجبان ، ويثبّت الجبان ، ويقوي الشهوة ، ويسوي الخطوة ، ويسوق الظفر ، ويشوق النظر ، ويروق فيه الورد والصدر ، ويفوق فيه الخبر على الخبر" (٧) .

-
- (١) صبح الاعشى ٢ : ٣١٤ .
 - (٢) نفسه ١٣ : ١٧٢ - ١٧٣ ، وانظر ١٢ : ٢٢٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ١٣ : ٢٩ ، ١٧٩ ، الروض الزاهر : ٣٠٩ .
 - (٣) المثل السائر ١ : ٢٦٤ ، وانظر سر الفصاحة : ٢٢٣ ، جواهر الكنز : ٢٥٤ ، حسن التومل : ٢٠٧ ، خزانة الادب ٢ : ٤٠٩ .
 - (٤) انظر كتاب الصناعتين : ٣٧٥ ، تحرير التعبير : ٣٠٢ .
 - (٥) حقائق السحر في دقائق الشعر ، رشيد الدين محمد العمري المعروف بالوطواط ، تحقيق د. إبراهيم الشواربي ، القاهرة ١٩٤٥ م : ٩٢ .
 - (٦) صبح الاعشى ١٣ : ١٧٦ .
 - (٧) نفسه ١٤ : ٣٢٢ ، وانظر ١٢ : ١١٩ ، ١٤ : ٣٢٩ .

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المقاييس الشكلية المتعلقة بترتيب الرسائل كانت ذات أثر سلبي في الكتابة ؛ ومن ذلك حصر طول السجعة التي في افتتاحات رسائل التولية بحيث لا يتعدى آخرها السطر الثاني في الكتابة "ليقع العلم بها بمجرد وقوع النظر على أول المكتوب" . قال القلقشندي : " وعلى هذا فيختلف القصر فيها باختلاف ضيق الورق وسعته في العرض" (١) . وما من شك في أن ربط ما يفكتب بقياس الورق فيه تضيق على الكاتب ، بحيث يتوجب عليه ترتيب معانيه ، ثم يختار لها من اللفاظ لأعلى قدرها ، بل بحسب ما هو مخصص لها من مساحة في الرسالة .

- الجنس

اعتمد الكتاب بمصر والشام في عصر المماليك على فن الجنس لتزيين رسائلهم وتبدو عنايتهم به واضحة ؛ حيث لم تجد رسالة تخلو منه ، ويمكن القول بأنه "أضحى إحدى دعائم الأسلوب في عصر المماليك" (٢) ، كما يقول محمود رزق سليم .

وقد أزرى عدد من النقاد وعلماء البلاغة بهذا الفن ، فعده ابن رشيق "من أنواع الفراغ ، وقلة الفائدة ، ومما لا شك في تكلفه" ، وأخذ على من أكثر منه بقوله : "وقد كثّر منه هؤلاء الساقّة المتعلّقون له في نظمهم ونشرهم حتى برد ورك" (٣) ، ومفهوم كلامه أنه إن جاء بغير تكلف كان مستحسنًا (٤) . وقال ابن حجة : "أما الجنس ، فإنه غير مذهبي ، ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب ، وكذلك كثرة اشتقاق اللفاظ ، فإن كلا منها يؤدي إلى العقادة والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة في مضمّار المعاني المبتكرة" ، وأضاف : "ولم يحتج إليه بكثرة استعماله إلا من قسّرت همّته عن اختراع المعاني" . وساق شاهداً على قوله انتقاد ابن نباتة للصفدي عندما ألف الأخير كتاب جنان الجنس (٥) .

ومن صور الجنس التي استعملوها الجنس التام ، وهو ما تم الاتفاق فيه بين

(١) صبح الأعشى ٢ : ٣١٠ .

(٢) عمر سلاطين المماليك ٦ : ٣٩٧ .

(٣) العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ١ : ٢٥٣ .

(٤) وهو رأي الشهاب الحلبي ، انظر حسن التوسل : ١٨٣ .

(٥) خزنة الأدب ١ : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ .

اللفظين مبني واختلفا معني (١) ، ومنه قول ابن عبد الظاهر في رسالة بيبرس إلى بيمند : "ولو رأيت مغانيك وقد ألفت من مغانيك ، ومراكبك وقد أخذت في السويديّة بمراكبك ، فصارت شوانيك من شوانيك" (٢) .

ومنه قول ابن نباتة في توقيع بشد الدواوين بغزة : "... والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير من سلّمت عليه اللّسنة وسلّمت ، وسلّمت به سيوف النصر وسلّمت" (٣) ، وغير خاف أن ابن نباتة الذي نقل عنه ابن حجر سخريته بالجناس ، كما تقدم ، قد سيطرت عليه حروف الصغير هنا مع مجانسته بين سلّمت من الصلاة وسلّمت من الصليل .

كما استعملوا من صور الجناس المركب ، وفيه تكون إحدى لفظتي الجناس ، أو كلاهما ، مركبة من لفظتين (٤) ، وقد يكون في تركيبين ، والجناس المركب دالٌّ على التكلف ، ومنه في مرسوم بالنهي عن التشيع في وصف الشيعة : "وافترؤا على الله كذبا فذمّهم وأباح دمهم ، وقال لسان حال أمرهم : أرى قدّمهم أراق دمهم ، وهان دمهم فها ندمهم" (٥) .

ومنه قول ابن نباتة في توقيع بشدّ الجوالي (٦) : "رسم ... أن يترتب فلان في شدّ الجوالي ... لما ظهر من نجائبه ،...، وعزائمه التي تجلو صدأ الهم بالجوالي ، وإذا قليل لحاسده : له ولأبيه إمرة الخيل ، قال : والجوى لي" (٧) .

وأكثر صور الجناس التي يقف عليها المطالع لرسائلهم الجناس الناقص ، ويكون باختلاف حرف في الكلمتين ، أو زيادة حرف في إحداهما عن الأخرى (٨) ، وهو

(١) جواهر الكنز : ٩١ ، ٩٢ ، حقائق السحر : ٩٤ ، حسن التوسل : ١٨٣ ، وسمّاه قدامة : المطابق (نقد الشعر : ١٨٥ - ١٨٦) ، وسمّاه ابن الأثير : الحقيقي (المثل السائر ١ : ٢٤٦) .

(٢) الروض الزاهر : ٣١٢ ، وانظر صبح الأعشى ١٢ : ٢١٥ .

(٣) صبح الأعشى ١٢ : ٣٢٠ ، وانظر ١٢ : ٨٦ ، ٨٧ ، ٣٠٦ ، ١٣ : ١٨٢ ، ١٤ : ٣٢٢ .

(٤) انظر سر الفصاحة : ٢٣٢ ، البديع في نقد الشعر : ٣٣ ، تحرير التعبير : ١٠٩ ، جواهر الكنز : ٩٧ ، حسن التوسل : ١٨٨ .

(٥) صبح الأعشى ١٣ : ١٨ .

(٦) وظيفة من يقوم بتحصيل الجزية من أهل الذمة (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى : ٩٤) .

(٧) انظر صبح الأعشى ١٢ : ٣٠٦ ، وانظر ١٣ : ١٧٢ ، ١٧٨ .

(٨) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، فخر الدين الرازي ، القاهرة ١٣١٧ هـ : ٢٨ ، تحرير التعبير : ١٠٧ - ١٠٨ ، جواهر الكنز : ٩٥ .

أقل مدعاة للتكلف من التمام .

قال ابن عبد الظاهر من تقليد بالوزارة في فضل المقلد : "...وكم أشار في البلاد والعباد أشرت وأشرت ، وكم واهت ووفت ، وكم كفت وكفت ، وكم أعفت وعفت وعفت" ، وفي منزلته : "فمنزلته لاثناسامى ولا تسام ، ومكانته لاثرامى ولا ترام" (١) . وفي قوله هذا كثير من المجانسات .

ومنه قول الشهاب محمود من تقليد بنيابة غزة : "الحمد لله رافع علم الدين ... وقامع أعدائه الكافرين ، بتفويض مقدمة الجيوش بأوامرنا إلى كل ولي يهتني النصر ويهتني من أفنان عزماته ووجاهة زعامته" (٢) .

وقد استعملوا في رسائلهم الجنس المعكوس ، ومنه ما يكون باختلاف ترتيب اللفاظ في التركيب (٣) ، ومنه قول الشهاب في توقيع : "اقتضى حسن الرأي الشريف ... أن نجيب وسائل من وقف في هذا القصد وقفة سائل ، لينال بذلك كل إحسان ، وإحسان كل نائل" ، وقوله في المولى : "ابتسمت أسرة الحمد بشكر أوصافه ووصف شكره ، واختالت مواد الشناء بحسن خلاله ، واختارت كواكب السناء إقبال طوابع بطوابع إقباله" (٤) .

ومنه في رسالة ابن الوردي في ذم القاضي الرياحي قوله : "لاشرف له ذكر" ولاذكر له شرف ، يوقع العظيمة ويعظم الوقيلة ، ويشارع الخليفة ويخالف الشريعة ، يدع الإيثار ويؤثر الدعة ، ويختار المربع المذهبة على المذاهب الأربعة" (٥) .

وأقل ألوان الجنس في رسائل كتاب عصر المماليك ، جناس التصحيف ، أو

-
- (١) صبح الاعشى ١١ : ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، وانظر ١٢ : ٢٠٥ ، ١٤ : ٣٢٢ ، ٣٢٨ .
 (٢) صبح الاعشى نفسه ١٢ : ٢٠٩ ، وانظر ٩ : ١٨٣ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ١٢ : ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ١٣ : ١٥ ، ١٨ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ديوان ابن الوردي : ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٥١ ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، السيوطي ، مكتبة مصطفى فهمي الكتبي ، القاهرة ١٩٠٣ م ، ٢ : ١٨٩ .
 (٣) البديع في نقد الشعر : ٣٠ ، المثل السائر ١ : ٢٦١ ، جواهر الكنز : ٩٦ ، حسن التوسل : ١٩٧ .
 (٤) صبح الاعشى ١٢ : ٢٧٠ ، ٢٧١ ، وانظر ١٢ : ٢١٢ .
 (٥) ديوان ابن الوردي : ١٧٤ .

الخطي ، وهو الذي تتفق فيه اللفظتان خطأ لالفاظاً (١) ، ولمضي الدين الحلي رسالة أنشأها على هذا النهج ، سماها التوأمية ، ومنها قوله يخاطب ممدوحه : "قبّل قبّل يراك ثراك ، عبدٌ عند رخاك رجاك ، أبيٌ أبي سؤال سواك ، أملٌ أمك رجاء رخاء ، فألفي فألفي جدة جدّه بأعتابك ، باغياً شرفاً سرفاً ، لاذ بك لأدبك ، مقدماً مقدماً أمل أمل ، يئزّجيه ترجّيه ، يبشّره بيئّسه ، وجودك وجودك ،..." (٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الكتاب كانوا ينساقون وراء الجرس الذي تحدثه الاصوات المتقاربة ، فاستخدموا الخواص الصوتية للعبارات ، فتراهم يكررون أصوات الصغير مثلاً ، وقد عدّ ابن رشيق وابن الأثير ذلك من المعازلة اللفظية (٣) ، وعلق القليشندي على ذلك بأن تكرار الحروف لا يوجب المعازلة ، والتناثر ، بل يكون بحسب التركيب (٤) .

والكاتب ، نتيجة سعيه وراء الجرس الموسيقي الذي ينجم عن تعاقب كلمات يتكرر فيها حرف واحد ، أو حروف متقاربة ، قد يقع في ربكة الأسر لالفاظه ، "وفي هذا أحياناً من الخطر ما فيه ؛ إذ تصبح الكلمة هي التي تولّد الفكرة ، بدلاً من أن تستدعي الفكرة الكلمة ، أو الكلمات المعبرة عنها ، المحددة لها" (٥) ، كما رأى الدكتور محمود إبراهيم .

ومنه قول محيي الدين بن عبد الظاهر في تقليد بالوزارة في المقلّد : " وهذا الممدوح بأكثر من هذه المماذج والمحامد من ربه ممدوح وممنسوح" (٦) ، وقوله في عهد قلاوون لابنه الأشرف خليل : "... ويغقسم نوره على البسيطة فلامصر من الأعمار إلا وهو يشرب إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح ، ويتفتق اشتقاق النعوت

-
- (١) البديع في نقد الشعر : ١٧ ، نهاية الإيجار : ٢٩ ، تحرير التحبير : ١٠٥ ، جواهر الكنز : ٩٤ ، حسن التوسل : ١٩٢ .
 (٢) ذكر محمود رزق سليم أن هذه الرسالة مطبوعة مع ديوانه طبعة بيروت : ٤٨١ ، غير أنني لم ألق على نسخة من تلك الطبعة (عصر سلاطين المماليك ٥ : ٣٩٩) .
 (٣) العمدة ٢ : ٢٩٤ ، المثل السائر ١ : ٢٩٤ .
 (٤) صبح الأعشى ٢ : ٢٩٤ .
 (٥) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني . د. محمود إبراهيم ، مكتبة الألقى ، عمان ١٩٧١م : ٢٠٢ .
 (٦) صبح الأعشى ١١ : ٢٦٧ .

فيقول التسلي للتملّي : سواء الصالح و الصّلاح ، والذي ما برح لشعار السلطنة إلى تولّته وتنقلّه أتم حنين ، فسمّت ووَسَمَت باسمه أكابر الملوك والسلاطين" (١) .

- الطباق والمقابلة

يعد الطباق والمقابلة من اهم فنون البديع التي استُخدمها الكتاب في عنايتهم بالمعاني ووسائل التعبير عنها (٢) كما رأى محمود رزق سليم . وقد اجمع علماء البلاغة على أن الطباق اصطلاحاً هو الجمع بين معنيين متضادين في الكلام (٣) ، على عكس معناه اللفوي (٤) . وإذا عد الطباق من محسّنات المعاني ، فهو يقود بالضرورة إلى تحسين اللفاظ ، إذ إن ارتباط المعنى باللفظ الدال عليه يقتضي تضاد اللفاظ لتضاد المعاني . كما أن التضاد قد يكون بإثبات المعنى ونفيه مثل : يحب ، ولا يحب ، فإذا كان اللفظ من الاضداد (٥) نفسها : كالمطابقة لغة واصطلاحاً ، فيجب تكراره بمعنييه ليكون طباقاً ، وإلا كان تورية إن احتمل المعنيين ولم يتكرر ، وفي هذه الحالة يكون الطباق من حالات الجناس .

أما المقابلة فهي "التنظير بين شيئين فأكثر" ، وتكون كالطباق بين ما يخالف ، وتكون بين ما يوافق (٦) ، فهي أعم من الطباق ؛ ذلك لأن التنظير بين غير الاضداد ليس بمطابقة ، وهي أقدر من الطباق على التعبير عن المعاني ؛ لأنها تقوم على التركيب لاعلى الكلمة .

ويبدو أن الطباق يؤدي وظيفة أخرى إضافة إلى تحسين المعاني واللفاظ ، وتلك

(١) صبح الاعشى ١٠ : ١٧٢ ، وانظر ١٠ : ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٢ : ١٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ ، ١٣ : ١٨٢ ، ١٤ : ٣٢٣ .

(٢) عمر سلاطين المماليك ٦ : ٣٨٢ .

(٣) كتاب المناعتين : ٣٠٧ ، سر الفصحاحة : ٢٣٤ ، المثل السائر ٢ : ٢٧٩ ، تحرير التعبير : ١١ ، ١١٤ ، حسن التوسل : ١٩٩ ، خزانة الادب ٢ : ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٤) انظر تعليل ابن الاثير لذلك في المثل السائر ٢ : ٢٨٠ .

(٥) جواهر الكنز : ٨٤ .

(٦) جواهر اللفاظ ، قدامة بن جعفر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٢م : ٥ ، المناعتين : ٣٣٧ ، نهاية الإيجاز : ١١١ ، تحرير التعبير : ١٧٩ ، منهاج البلغاء وسراج الادباء ، حازم القرطاجني ، تحقيق د. محمد الحبيب بن الخوجة ، تونس ١٩٦٦م : ٥٢ ، حسن التوسل : ٢٠٣ ، خزانة الادب ١ : ١٢٩ .

هي وظيفة الاستقصاء والشمول والدقة ، ولذلك تراهم يكثرون منه في المهادنات في تعداد الأماكن التي تنطبق عليها (١) .

ويؤدي الطباقي هذه الوظيفة في العهود والمبايعات ، وبعض رسائل التولية والتعيين ، فمن بيعة للخليفة أحمد بن المستكفي جاء أنه لم يبق أحد " يرفض بيعته " لأضارب بسيف ولا كاتب بقلم ،... ، ولأمن يجتهد برأيه فيخطئ أو يمسب ، ولا يتحدث بحديث ، ولا متكلم بقديم وحديث ، ولا ساع على قدم ،... ، ولا جمع قلة ولا كثرة ،... ، ولا بادٍ ولا حاضر ، ولا مقيم ولا سائر ، ولا أول ولا آخر " (٢) .

وقد يؤدي الطباقي وظيفة المبالغة والتهويل ، ومن ذلك قول ابن عبد الظاهر في رسالة بيبرس إلى بيمند بعد فتح أنطاكية ، يصف ما استولى عليه المسلمون فيها من غنائم : " استغنى الفقير ، وتاهل العازب ، واستخدم الخديم ، وركب الماشي " ، وذلك بعد تنبيه بيمند إلى ما خسر به بقوله : " نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي " (٣) .

وتكثر المقابلة في رسائل المفاخرات ، وبخاصة بين السيف والقلم ، وهو أمر " مسوع فيما أرى ؛ ذلك لأن المفاخرة قائمة على المفاضلة بين طرفين قد يصلان إلى درجة التضاد ، فالمقابلة في هذا النمط من الرسائل تخدم غرض الكاتب في ذكر محاسن الطرفين وعيوبهما ، ومن ذلك ما أجراه ابن نباتة على لسان القلم مخاطباً السيف : " أتفاخرنى ، وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعطاء وأنت للمنع ، وأنا للملح وأنت للضرب ، وأنا للعمارة وأنت للخراب ، وأنا المعمّر وأنت المدمر ، وأنا المقلد وأنا صاحب التقليد ، وأنت العايب وأنا المجود ،... ، أنا لمصالح الدول وأنت في الغمد طريح ، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح ، والساھر وقد متهّد لك في الغمد مضجع ، والجالس عن يمين الملك وأنت عن يساره " (٤) .

كما تكثر المقابلة في رسائل الصراع مع الصليبيين والمغول ، كالمقابلة بين

(١) انظر صبح الاعشى ٣٤:١٤ ، وانظر : ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٧٦ .

(٢) نفسه ٩ : ٣٣٢ ، وانظر : ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ١٠ : ٧٢ - ٧٣ .

(٣) الروض الزاهر : ٣٩ .

(٤) خزائن الادب ١ : ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، وانظر ١ : ٢٣٦-٢٣٧ ، وانظر ديوان ابن الوردي : ٨٥-٨٠ .

حال الإسلام وبين حال الكفر قبل المعركة وبعدها (١) ، وحال الحصون قبل الفتح وبعده (٢) ، والمقابلة بين مجانيق المسلمين ومجانيق أعدائهم (٣) ، وفي وصف أفعال الصليبيين (٤) ، وما آل إليه أمر الأعداء بعد المعركة (٥) ، "ولعل ذلك راجع إلى التعبير عن الصراع والتضاد والتناظر بين المسلمين وأعدائهم ، وهذا أمر يعمل على تنمية تشكيل معالم الصورة الأدبية التي يهدف الكاتب إلى تصويرها" (٦) ، كما رأى الدكتور عبد الجليل عبد المهدي .

وترى المقابلة في الرسائل الوصفية ، مثل وصف ابن البارباري يوما مطيرا (٧) ، ووصف ابن نباتة وفاء النيل وفيضانه (٨) ، ووصف الشهاب الحلبي بعض الطيور (٩) .

كما أدت المقابلة وظيفة الاستقصاء والشمول ، فاستخدمها الكتاب في المبيعات والعهود ، ففي بيعة أحمد بن المستكفي جاء أنه لم يبق "لامخالط للناس ولاقاعد في عزلة ،... ، ولامر في باطن ولامعلن في ظاهر ؛ ولامن تطلع عليه شمس النهار ونجوم الليل .. حتى آمن بهذه البيعة وأمن عليها" (١٠) .

وقد تكون المقابلة بتغيير ترتيب الالفاظ نفسها ، فمن توقييع لمحتسب من إنشاء أحمد بن فضل الله قال يوصي المولى : " .. وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، فمنك المنكر لايعرف ، والمعروف منك لايشنكر" (١١) .

ومن المقابلات الطريفة التي جُمع إليها الجنس والسجع والترصيع ، قول ابن الوردي على لسان القلم مفاخر المصنف : "إن كنت أعلى فأننا أعلم ، أو كنت أحلى

-
- (١) انظر صبح الاعشى ٨ : ٣٨٧ ، ٣٩٥ .
 - (٢) انظر ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٦ .
 - (٣) انظر نفسه ٤ : ٢٥٥ ، صبح الاعشى ٨ : ٣٩٧ .
 - (٤) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٢٣٩ .
 - (٥) نهاية الأرب ٥ : ١٦١ ، ١٦٢ .
 - (٦) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٩٥ .
 - (٧) الوافي بالوفيات ١ : ٢٥٧ .
 - (٨) صبح الاعشى ٨ : ٣٣٤ ، وانظر ١٤ : ٢٦٧ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ .
 - (٩) نفسه ١٤ : ٣٣٣ ، ٣٣٥ .
 - (١٠) نفسه ٩ : ٣٣٢ - ٣٣٣ ، وانظر ٣٣٧ : ١ ، ٧٢ - ٧٣ .
 - (١١) نفسه ١٣ : ٣٤٠ .

فأنا أحلم ، أو كنت أقوى فأنا أقوم ، أو كنت ألوى فأنا ألوم ، أو كنت أطرى فأنا أطرب ، أو كنت أغلى فأنا أغلب ، أو كنت أعتى فأنا أعتب ، أو كنت أقضى فأنا أقضب" (١) .

- التورية

وهي من محسنات المعاني ، بحيث تكون الكلمة تحتل معنيين فيستعمل المتكلم احد احتماليها ، ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله لاما استعمله (٢) ، وعدها الشهاب الحلبي من التخيل (٣) ، ويظهر مما ذكره ابن حجة أن القدماء لم يكونوا ينعنون بهذا الفن كثيراً ، ولكن المتأخرين شغفوا به ، وأضاف : "إن التورية من أغلى فنون الأدب ، وأعلىها رتبة" . ونقل عن الصفي قوله : "ومن البديع ما هو نادر الوقوع ، ملحق بالمستحيل الممنوع ، وهو نوع التورية والاستخدام ، فإنه تلقى الافهام حصرى دون غايته" (٤) .

كما ذهب ابن حجة إلى أن الفاضل "هو الذي عصر سلافة التورية لأهل عصره ،... وأنزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها" ، وذكر عدداً من أدباء مصر والشام ممن عني بالتورية ، وأخذ برأي الصفي في أن أدباء مصر والشام يستوون في استعمالها (٥) .

ويبدو أن التورية ارتبطت بالدراسات القرآنية (٦) ، وبخاصة تأويل المتشابه من آيات القرآن الكريم . أطلق السكاكي على التورية الإيهام ، وقال بعد تعريفه وسوق مثال عليه : "وأكثر المتشابهات من هذا القبيل" (٧) ، ونقل ابن حجة عن الزمخشري قوله : " ولاشئ باباً في البيان أدق ولا لطف من هذا الباب ، و لا أنفع

-
- (١) ديوان ابن الوردي : ٨٣ .
 - (٢) معالم الكتابة : ١٧ ، تحرير التعبير ، ٢٦٨ ، جواهر الكنز : ١١١ ، خزانة الأدب ٢ : ٣٩ .
 - (٣) حسن التوسل : ٢٥٠ .
 - (٤) خزانة الأدب ٢ : ٤٠ ، وانظر : ٤١ ، ٤٢ ، ١ : ١٢٢ ، ١٢٣ .
 - (٥) نفسه ١ : ١٢٣ ، ٢ : ٤٣ ، ٤٤ ، ١٣٥ ، ١٥٤ ، ١٥٥ .
 - (٦) الأدب العربي في العصر المملوكي : ١٢٤ .
 - (٧) مفتاح العلوم ، السكاكي ، ضبط وشرح نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣ م : ٤٢٧ .

و لا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله" (١) .

وتجدر الإشارة إلى أن بعض أدباء عصر المماليك اهتموا بالتأليف في التورية ،
فألف الصفي كتاب "فص" الختام عن التورية والاستخدام" ، غير أنه قصر أمثله على
الشعر دون النثر ، وألف بعده ابن حجة كتاب "كشف اللثام عن وجه التورية
والاستخدام" ، وقد تابع الصفي في الاهتمام بالشعر ، كما فعل في باب التورية في
خزانة الأدب (٢) .

وقد أشار ابن حجة إلى أن بعض الكتاب في عصر المالك لم يهتموا بها ، ومنهم
الشهاب الحلبي الذي لم يتخذها مذهباً ، ووقعت في نظمه ونثره بنقذرة ، وذكر من
بينهم أحمد بن فضل الله العمري ، الذي تمذهب بها غير أنه لم يستطع بلوغ غايتها
فجانبها ، ومنهم ابن حبيب الحلبي ، وصفي الدين الحلبي . وجعل ابن حجة التفوق
فيما بعد القاضي الفاضل لابن نباتة (٣) .

ومن شواهدا في رسائلهم ما كتب به ابن عبدالظاهر في بشارة بزواج الملك
السعيد بركة بن بيبس من بنت قلاوون . قال : "ويختار لها أبرك طالع ، وكيف
لا تكون البركة في ذلك الطالع وهو السعيد" (٤) .

وجاء في منشور بخروج أمير اسمه جمال الدين من السجن : "الحمد لله مفكر
القلوب ،... الذي أعاد إلى المخلصين في طاعتنا النعمة... وألقى على الأمل
منهم جمالا" لا يسع الاذهان أن تتصف بإنكار حقوقه" (٥) .

وفي توقيع بنظر الدواوين لمن اسمه تاج الدين ، جاء أنه والي بسبب "عفة"
رفعته من الرتب الديوانية إلى مفارقتها ، ولارتبة للتاج إلا ذلك" (٦) . وتجدر
الإشارة إلى أن التورية عن أسماء من تصدر بحقهم رسائل التولية ، لا تكاد رسالة

(١) خزانة الأدب ٢ : ٤٠ .

(٢) عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٨٩ - ٣٩٢ .

(٣) خزانة الأدب ٢ : ٢٣٧ ، وانظر عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٨٨ - ٣٩٠ .

(٤) صبح الاعشى ١٤ : ٣٤٣ .

(٥) نفسه ١٣ : ١٨٦ .

(٦) نفسه ١١ : ٣٢١ .

من تلك الرسائل تخلو منها (١) .

ومن ذلك في رسالة ابن الوردي بوصف زلزال سنة ٧٤٤ هـ قوله : "نستعيذ بالله ونستعين ، من سم هذه السنة فهي أم أربعة وأربعين" (٢) ، وقوله من رسالة "النبأ عن وصف الوباء" يصف تنقل الطاعون : "واستشهد بالقدس وزكسى ، فلقق من الهاربين اللقى بقلب في الصخرة ، ولولا فتح باب الرحمة لقامت القيامة" (٣) ، وقوله من رسالة المطاهرة بين السيف والقلم ، يصف القلم : "وجمّل الورق بغصنه كما جمّل غصنه بالورق" (٤) . والتورية هنا داخل فيها الجنس .

ومن التوريات اللطيفة قول ابن نباتة في مفاخرته بين السيف والقلم : "...وصلى الله على سيدنا محمد ... وعلى آله وصحبه ذوي المجد البين ، وكل مجدٍ يائث ، صلاحه واضحة السطور ، فاتحةٌ أدراج الصدور ، ما نقلت عن صحائف البحار غواذيتها ، وكتبت أقلام النور على مهارق الرياض حكمة باريها" (٥) .

وقد أجروا التورية في بعض ألقاظ الآيات القرآنية . قال ابن العجمي تعليقا على قصيدة : "فيا له من قصيد رد عيون أعيان هذه الصناعة من الحياة مطرقة ، تاليةٌ على من قاسها بامرئ القيس : (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالـمعلقة)" (٦) .

ومن لطائف التورية قول ابن مكنس في اعتذاره لأبي بكر بن العجمي : "والمسؤول من إحسانه أمران ، أحدهما الجواب فإنه يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة ، والآخر رد الفاسق عن الباب العالي ، فإن أبابكر أول من تملب في الردة" (٧) .

-
- (١) انظر صبح الاعشى ١٠ : ١٧٧ ، ١٨٣ ، ١١ : ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٤٠ ، ٣٦٥ ، ١٢ : ٢٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤١٥ .
 (٢) ديوانه : ١٤٩ .
 (٣) نفسه : ٨٧ - ٨٨ .
 (٤) نفسه : ٧٨ - ٧٠ .
 (٥) خزائن الأدب ٢ : ٤٦٤ .
 (٦) نفسه ٢ : ٤٦٦ ، والآية من سورة النساء : ١٢٩ .
 (٧) نفسه ٢ : ٤٦٨ ، وانظر : ٤٦٧ ، صبح الاعشى ١٤ : ٣٤٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ديوان ابن الوردي : ١٨١ ، ٤٤٠ .

- ظواهر لغوية أخرى

يسترعي النظر في رسائل هذا العصر بعض الظواهر اللغوية التي تكاد تكون فريدة ، وقد يكون لها مسيس علاقة بشقافة الكتاب والمصنعة الفنية التي اتخذوها سبيلاً .

يبدو من خلال بعض الرسائل أن محفوظ بعض الكتاب حرفهم عن الاسترسال في الكتابة أحياناً ، بحيث كان الكاتب يلجأ شياً من محفوظه في رسالته ؛ مما يؤدي به إلى تكلف العبارة وضعفها ؛ ذلك لأن ما أقحمه يحتاج إلى ربط بالفكرة موضع الكتابة ، مما استدعى حرصهم على تهذيب رسائلهم كما قال ابن حجة (١) .

ومن شواهد ذلك ، قول الشهاب الحلبي في وصف طائر أبيض : "نقي اللباس ، مشتل شيب الرأس ، كأنه في عرائن شيبه ، لا وبله ، كبير أناس" (٢) ، حيث خرج قول امرئ القيس بآية كريمة ، ولما أراد الانسجام بينهما اضطر إلى إخراج البيت الشعري عن سياقه الأول ، فقال : لا وبله ، وهي قلقة في مكانها .

وقد يكون القصد إلى السجع سبباً آخر ينضاف إلى التوفيق بين المحفوظ والفكرة ، ويظهر أثرهما في العبارات واضحة كما في قول ابن البارنباري بأن الملك الناصر أعد للصيد " كل هيكل قيد الأوابد ، قد عثقت الخير بناصيته ، فأصبح حسن المعاهد" (٣) ، حيث مزج قول امرئ القيس في الحصان بالحديث الشريف في الخيل ، ثم اضطره السجع إلى موافقة ما طمّنه من بيت امرئ القيس ، فأضاف : فأصبح حسن المعاهد .

ومن الأمثلة الطريفة على محاولة الكاتب الإفادة من محفوظة ، وإن كلفه ذلك وضوح التكلف ، وعناء الفكر قول ابن نباتة بوصول هدية من الطيور : "وصلت تلك التمسّات واضحة الأنوار ، لاثقة كبيض النوار ، تامة تمام ميلات موسى عليه

(١) خزانة الأدب ٢ : ٣١ ، وانظر البديع في نقد الشعر : ٢٩٥ ، جواهر الكنز : ٢٩٥ .

(٢) صبح الاعشى ١٤ : ٣٣٣ .

(٣) نفسه ١٤ : ١٩٢ ، وانظر ١٣ : ٣٣٩ ، ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٨٣ .

السلام ، إلا أنها لبياضها كأربعين نهار" (١) ، وغير خاف أن اسم الطيور وعددها قد حسنا للكاتب حل قوله تعالى : (هتتم ميقات ربه أربعين ليلة) (٢) ، فكان أن الاية فيها حديث عن الليل ، وهذه الطيور بيضاء ، فاقضى منه ذلك أن يتابع موضحاً : إلا أنها لبياضها كأربعين نهار .

وتجدر الإشارة إلى أن النقاد جعلوا ذلك من قبيل التوليد اللفظي القائم على تلفيق كلامين لتوليد كلام ثالث (٣) ، وقد عده ابن حجة من قبيل المسرقة ، وفضل عليه التوليد من المعاني (٤) .

ومن الظواهر اللغوية البارزة في الرسائل الحذف أو الاكتفاء ، وقد علل الدكتور شوقي ضيف شيوعه عند الكتاب بكثرة متابعتهم للأسلوب القرآني ، فتأثروا به ، وأشار إلى أنه لم يكن بدعة العصر المملوكي ؛ إذ عرفه الكتاب في العصر الأيوبي ولكن على نطاق ضيق (٥) .

والناظر في العبارات التي ورد فيها أسلوب الاكتفاء يجد أن السجع ومراعاة رويته سبب واضح وراءه ، حيث توجب القرينة الأولى من السجع على الكاتب أن يحذف شيئاً من آخر القرينة الثانية ، ومن أمثلة ذلك قول محيي الدين بن عبد الظاهر ، "... ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة" تهدي إلى صراط الذين" (٦) .

وقد تكون العبارة التي ورد فيها الحذف أولى القرينتين ، ثم يأتي الكاتب بالقرينة الثانية مضطراً إلى موافقة روي القرينة الأولى ، مما يسلمه إلى التكلف والتعقيد ، ومن ذلك قول ابن نباتة في توقيع في حق المولى : "ولازم طريقة مشايخه فما ، وشكر الحال فجعل في منبت كل شعرة لساناً للشكر وهما" (٧) .

(١) صبح الاعشى ٩ : ١١٧ ، والتتم طائر كالأوز أبيض ، أحمر المنقار (صبح الاعشى ٢ : ٦٤) .

(٢) سورة الاعراف : ١٤٢ .

(٣) انظر البديع في نقد الشعر : ٢٨٤ ، تحرير التحبير : ٤٩٤ ، جواهر الكنز : ٢٢٤ .

(٤) خزانة الادب ٢ : ٢٦ .

(٥) الفن ومذاهبه في النشر : ٣٨٠ .

(٦) صبح الاعشى ١١ : ٢٢٨ ، وانظر ١٢ : ٤٤ ، ٣٧٩ .

(٧) نغمه ١٢ : ٤١٨ .

ولم تكن الحال في أسلوب الحذف دائماً واحدة ، إذ نجد أنه قد يؤدي وظيفة تتصل بالغرض من الرسالة ، فتتخلص عبارته بالمعنى ولا تكون عبثاً عليه ، ومن ذلك في مرسوم قول كاتبه في مدح المولى : "ولما كان المجلس السامي... هو المراد بهذا القول الحسن ، والحقيق من الإحسان بكلمة والخير بأن ، والخصيص من سواف الخدم بما والمفضل على سائر النظراء ، ولو قيس بمن" (١) ، فكاتب المرسوم يريد من خلال أسلوب الحذف هنا تعميم فضل المولى ، ورفع شأنه .

وتجدر الإشارة إلى أن النقاد القدامى لم يهتموا بالحذف كثيراً ، وقد ذكر ابن حجة أنه لم يره في كتب البديع (٢) ، لكن ابن رشيق ذكره في باب الإشارة (٣) . وعلى الرغم من توجيه النقد إلى ضرورة الاطلاع على اللفاظ الكتابية ، وحفظ جانب منها ، فإنها كانت قليلة الظهور في الرسائل ، ولعل تصرف الكاتب فيما يأخذه منها يطمس برونه في سياق الكلام .

ومن ذلك قول ابن الوردي على لسان السيف مخاطباً القلم في المخاطرة بينهما : "فأدنى ضربة مني تروم أرومتك ، فتستأصل أهلك ، وتجتث جرثومتك" (٤) . ومنه في مرسوم بالمسامحة على لسان السلطان : "نتبع كل أمر فنفسد خالته ، ونشتت ميله ، ونقيم أوده" (٥) .

ومن الظواهر اللغوية الواضحة في الرسائل شيوع توجيه المصطلحات والأسماء (٦) ، ويبدو أن بروز هذه الظاهرة في رسائلهم له ما يبرره ؛ إذ "يرجع سبب ولوع بعضهم به إلى أنهم كانوا علماء فقهاء في الدين، أو مبرزين في النحو

(١) خزانة الأدب ١ : ٢٨٢ .

(٢) انظر العمدة ١ : ٣١٠ .

(٣) انظر اللفاظ الكتابية ، الهذاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٠م : ٧-٨ ، الصناعتين : ١٦٤ ، العمدة ١ : ١٠٧ ، معالم الكتابة : ١١٩ ، حسن التوصل : ٨١ .

(٤) ديوانه : ٨٣ ، وانظر مطلع الفوائد : ٤٧٢ و ٤٧٦ ، وانظر هذه اللفاظ في اللفاظ الكتابية : ٢٥٧ - ٢٥٨ ، جواهر اللفاظ : ٥٤ - ٥٥ .

(٥) صبح الاعشى ١٣ : ٧٩ ، وانظر : ٣٢ ، وانظر هذه اللفاظ في اللفاظ الكتابية : ١ ، جواهر اللفاظ : ٨ .

(٦) انظر الفن ومذاهبه : ٣٧٩ ، ٣٨٥ ، وانظر النقد الأدبي في العصر المملوكي ، د. عبده عبد العزيز قليق ، مكتبة الانجلو-مصرية ، القاهرة ١٩٧٢م : ٢٩٠ .

أو غيره" (١) ، كما يرى محمود رزق سليم ، كما كان لثقافتهم الموسوعية دور في ذلك . ويبدو واضحاً أن الكتابة لم تكن تعاني مشكلة لغوية مثل تلك التي عانى منها الشعر بسبب تلك المصطلحات والأسماء التي وجهوها (٢) . وقد يعود السبب في ذلك إلى خلو الكتابة من قيود الوزن التي تحكم الشعر ، وإلى مناسبة تلك الاصطلاحات والأسماء لموضوعات الرسائل ووظائف من تصدر بحقهم .

وقد استعمل الكتاب في رسائلهم اصطلاحات فقهية ، وأخرى من علم الحديث ، واصطلاحات نحوية ، وعروضيه ، وبلاغية ، ووجهوا اصطلاحات المتكلمين ، والمتصوفة ، والنفك ، كما استعملوا أسماء الاعلام من العلماء والساسة والقراء ، وأسماء الأماكن . وتجدر الإشارة إلى أن ظاهرة التوجيه كانت بارزة في الرسائل الديوانية والادبية على نحو أوضح منه في الرسائل الإخوانية ، وكانت أوضح ما يكون في رسائل التولية والتعيين .

فمن توجيهاتهم إلى اصطلاحات الفقهاء قول محيي الدين بن عبد الظاهر في تقليد بالوزارة يصف المقلد : "فهو حجتنا على من سميناه خصوصاً ومن يدخل في ذلك بطريق العموم ، فليعملوا فيه بالنص والقياس والاستنباط والمفهوم" (٣) .

ومنه قول ابن نباتة في توقيع بشد متحمل كنيسة القيامة بأن المولى أسندت إليه الوظيفة "استناداً" إلى صحيح خبره في الكفاءة وعلو سنده ، وارتداداً لهمة التي إن رواها مسلم عن طوعه ، رواها نصراني عن تجلده (٤) ، وقد جمع إلى التوجيه التورية في مسلم ، والمقابلة بين حال المسلم والنصراني .

كما استعملوا اصطلاحات المتكلمين ، ومن ذلك في توقيع أنشاه والشهاب الحلي قوله : "وخصنا منه بمن تمسك بجوهره الاعلى فلم يتعرض من هذا الأدنى إلى عرض" (٥) ، وهنئ الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بعد شفائه من مرض

(١) عمر سلاطين المماليك ٦ : ٤٠١ .
(٢) انظر ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار ، د. عبد العزيز الاخواني ، مكتبة الانجلو-مصرية ، ١٩٦٢م : ٣٣ .
(٣) صبح الاعشى ١١ : ٢٦٩ .
(٤) نفسه ١٢ : ٣٣٣ ، وانظر ٩ : ١٣٨ ، ١١ : ٣٢٤ .
(٥) نفسه ١١ : ٣٢٤ .

"بسلامة جوهر الجسد الشريف من ذلك العرض" (١) .

ودخلت في رسائلهم بعض اصطلاحات المتصوفة ، وبخاصة في تلك الرسائل الديوانية التي كانت تصدر بتولية أحدهم ، فمن توقيع لشيخ المتصوفة في الخانقاه الصلاحية ، قال ابن فضل الله ، شهاب الدين يصفهم : "وأشقل تكرار الذكرى قلوبهم... ، وقربت لهم المحبة (٢) في ذات الله كل متباعد ، وأسفت أشقاتهم فاختلفت الأسماء والمعنى واحد" ، وقال في الخانقاه : "هي قِطْب نجومهم المسائرة ، ومراكز أفلاكهم الدائرة ،... ، وفيها مواضع خلواتهم ، ومطالع جلّواتهم (٣) ، ومنهاج طريقتهم (٤) ، ومعراج حقيقتهم" (٥) .

وكان لامطلاحات الفلك في رسائلهم حضور ، غير أنها قليلة إذا ماقيمت بغيرها ، ومن ذلك قول ابن نباتة من جواب بوصول هدية طيور جارحة : "... و لا زال من أجنحة نصره حتى السمّاك الرامح ، ومن جنود سعده للاولياء سعد السعود ، وفي الاعتداء سعد الذابح" (٦) .

وأكثر ما دار في رسائلهم من توجيهات ، كان توجيه اصطلاحات العلوم اللغوية ، وبخاصة اصطلاحات : النحو ، والعروض ، والبلاغة ، ويبدو أن شيوع هذه الاصطلاحات أكثر من غيرها عائد إلى أن هذه العلوم كانت أساسية لمن يترشح للكتابة (٧) ، كما كان أكثر الكتاب شعراء ، وبذلك علقت هذه الاصطلاحات في أذهانهم ، وترى في توجيهاتهم لها أنها جاءت في أماكنها غير قلقة ، وإن كانت دالة على مبلغ

-
- (١) صبح الاعشى ٨ : ٣٦٦ ، وانظر ١١ : ٣٧٥ .
 (٢) المحبة عند المتصوفة هي محبة الذات عينها لذاتها ، لإباعتبار أمر زائد ، وكل محبة بين اثنين هي إما لمناسبة في ذاتيهما ، أو لاتحاد في وصف حال أو رتبة أو فعل (انظر اصطلاحات الصوفية ، الكاشاني ، تحقيق عبد اللطيف محمد العبد ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٧م : ٧٨) .
 (٣) الجلوة عند المتصوفة هي ظهور الذات المقدسة لذاتها في ذاتها ، والاستجلاء هو ظهورها لذاتها في تعيّناتها (اصطلاحات الصوفية : ٣٩) .
 (٤) الطريقة عندهم هي السير بالسير المختمة بالسالكين إلى الله ، من قطع المنازل والترقي في المقامات (اصطلاحات الصوفية : ٦٥) . وحقيقة الحقائق عندهم هي الذات الاحدية الجامعة لجميع الحقائق ، وتسمى حضرة الوجود ، والحقائق هي جواهر الوجود التي لاتتأتى معرفتها إلا بالكشف (اصطلاحات الصوفية : ٥٩) .
 (٥) صبح الاعشى ١١ : ٣٦٧ ، وانظر ١٢ : ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٣ - ٤١٥ .
 (٦) نفسه ٩ : ٨٣ ، وانظر ١٢ : ٨٧ ، ٤١٣ ، وانظر ما أورده من اصطلاحات في
 (٧) نفسه ٥ : ٣٧٩ - ٣٨٠ .

عنايتهم بالصنعة (١) .

وقد سمي ابن إياس توجيه اصطلاحات النحو معنى النحو ، وذلك حين يستخدمها الكاتب بمعناها اللغوي لا الاصطلاحي (٢) .

كتب محيي الدين بن عبد الظاهر رسالة مبنية على اصطلاحات النحاة واللغويين ، ومنها قوله : "حرس الله نعمة مولاي ! ولا زال كليم السعد من اسمه وفعله ، وحرف قلمه ياتلف ، ومنادى جوده لا يثركم وأحمد عيشه لا ينصرف ، ولا عدم مستوصل الرزق من براعته التي لا تقف ، ... ، ولا عدمت نحة الجود من نواله كل موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود ، ولا خاطبت الايام مثلتمه إلا بلام التوكيد ، ولا عدوه إلا بلام الجود..." (٣) .

ومن توجيهاتهم إلى اصطلاحات العروض قول ابن نباتة في توقيع يذكر سبب تولية الموقع له ، أنه ولي لكون "مكانته من بيت السيادة الرفيع عماده ، البديع سنده ، المنيع سناده ، المديد من تلقاء المجرة ظننه ، الثابتة من حيز النجوم أوتاده" (٤) .

أما اصطلاحات البلاغة فقد حث القلقشندي على معرفتها ، وجعلها مما يحتاج إليه الكاتب للتوجيه أو التورية بها في تفاصيل كلامه (٥) ، ومن أمثلة ذلك ما كتب به أبو بكر بن العجمي على قصيدة . قال : "وبعد ، فقد وقفت على هذه المعجزة التي أحيا بها عيسى ميت البديع ، ولم يدع للحلبي في بهجتها مصلا ، وأحسن التذييل والترشيح والتهكم عليه ، من غير التفات لما أهمله ولم يتعرض إليه ، ودخل جنان الجناس فاجتنى من قطوفها الدانية ما راق ، وأطردت أنهارها له فاستطرد منها في أعلى الطباق ، وقابل وجوه حورها أحسن المقابلة ، آمناء فيها من الاشتراك والمماثلة ، وأوضح الفروق بين التورية والإبهام ، والتوجيه

(١) صبح الاعشى ١ : ٢١٢ - ٢١٣ .

(٢) بدائع الزهور ١ : ٢٩١ .

(٣) صبح الاعشى ١ : ٢١٥ ، وانظر ٧ : ٤٣٢ ، ١١ : ٢٦٨ ، ١٢ : ٣٥٥ ، ٣٧١ ، ١٣ : ٥٢ ، ١٤ : ٣٣١ ، ٣٥٩ .

(٤) نفسه ١٢ : ٣٩٩ ، وانظر ٨ : ٣٦٥ ، ١٢ : ٣٩٠ .

(٥) نفسه ١ : ٢٢٦ .

ومن توجيهاتهم إلى أسماء الاعلام ما جاء في تقليد بكتابة السر بالشام لابن فضل الله العمري ، قال منشئه : "وكم له ... من تقدمات اقتضت تكريمه ،... ، وكتابة حلل المهارق بوشيا مرقومة ، فلو قابله الفاضل عبد الرحيم لبادر إلى فضله إقراره وتسليمه ، أو عبد الحميد لكنت مناهجه الحميدة بالنسبة إلى مذهبهم ذميمة ،... ، أو أدركه قدامة لعرف تقديمه" (٢) .

كما وجهوا أسماء الكتب والمصنفات ، ومن ذلك في توقيع بكتابة السر بالشام أنشأه الصفدي ، قوله يصف المولى : "فلو عاصره صاحب الكشاف لغطى رأسه من تقصيره ،... ، أو النووي ، رحمه الله ، لاستعاد منه زهرات روضه اليانعة ، أو الامدي لما امتدت له معه في أصوله خطوة ،... ، أو ابن مالك لأمسى تسهيله تعقيدا" (٣) .

وجه ابن الوردي بعض أسماء الأماكن في رسالته الحرقلة للخرقة . قال بذي القاضي الرياحي : "كم دُعي إلى بابلي فما ارتاح إلى الباب ، وتراه حيران لعدم الرقعة ، فإذا قيل له فلان كفر طاب ، وهو في الغيبة جسر الحديد" (٤) .

وقد تباينت مواقف النقاد من إدراج اصطلاحات العلوم والفنون في المنظوم والمنثور . فقد دعا أبو هلال العسكري إلى نبذ ألفاظ المتكلمين: مثل الجسم ، والعرض ، والجوهر في الكتابة ، وعد استخدامها هجنة (٥) ، ويبدو من حديث ابن رشيق أنه يرفضها في الشعر ، غير أنه لم يوضح موقفه منها في النثر (٦) ، وذهب

(١) صبح الاعشى ١ : ٢٢٦ - ٢٢٧ وفي النص توريثات كثيرة مؤثر عليها . وانظر ١٢ : ٣٤٣ .

(٢) نفسه ١٢ : ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، وانظر ١١ : ٦ ، ١٤٥ ، ٣٠٠ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ١٢ : ٧٧ ، ٣١٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٥ ، ٤١٣ ، ١٤ : ٢٧٩ .

(٣) صبح الاعشى ١٢ : ٣٤٩ - ٣٥٠ ، والمصنفات المذكورة هي الكشاف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري (-٥٥٣٨هـ) ، وروضة الطالبين للنووي (-٦٧٦هـ) ، والإحكام في أصول الأحكام لعلي بن محمد الامدي (-٦٣١هـ) ، وتسهيل الفوائد لابن مالك (-٦٧٢هـ) . وانظر ٩ : ١٠ ، ١٢ : ٩٠ ، ٣٥٥ ، ١٤ : ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٤) ديوانه : ١٦٩ ، وانظر في أسماء هذه الأماكن على الترتيب (معجم البلدان ١ : ٣٠٩ ، ٣٠٣ ، ٢ : ٢٣٥ ، ٣ : ٥٨ ، ٤ : ٤٧٠ ، ٣ : ٢١٥ ، ١ : ٣٢٨) وهي أماكن قريبة من حلب ، وكانت تابعة لها .

(٥) كتاب الصناعاتين : ١٣٥ .

(٦) العمدة ١ : ١٠٧ .

ابن سنان الخفاجي إلى مثل ذلك ، إلا إذا تكلم الأديب في تلك المهن والعلوم (١) ، وتابعه في رأيه حازم القرطاجني (٢) .

أما المتأخرون ، فقد شغفوا بهذا اللون . قال ابن الأثير بأن على الكاتب إذا أخذ "في صوغ معنى من المعاني ، وأداه ذلك إلى استعمال معنى فقهي أو نحوي أو حسابي ،... ، فليس له أن يتركه ويحيد عنه ؛ لأنه من مقتضيات ذلك المعنى الذي قصده" (٣) ، وترى في خزانة الأدب شواهد كثيرة له من النظم والنثر (٤) .

كما استخدم الكتاب في بعض رسائلهم ألفاظاً مستمدة من غير العربية ، وبخاصة مما شاع استخدامه عند النصاري ، وهو أمر طبيعي بحكم أن الصراع بين المسلمين والصليبيين "صراع عسكري ، وصراع في العقيدة" (٥) ، كما رأى الدكتور عبد الجليل عبد المهدي ، وبحكم أن بعض الرسائل كانت موجهة إلى الصليبيين .

ومن هذه الألفاظ : الألقاب الثلاثة من جوهر واحد ، المكنى بها عن الأب والابن والروح القدس ، والصليب المكرم الحال في النقاسوت ، وأنجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، والتلامذة الإثنا عشر ، والسيدة ماريّة ، ويوحنا المعمودي (٦) .

ومن ذلك ما جاء في رسالة محيي الدين بن عبد الظاهر إلى بيمنند ملك طرابلس بعد فتح الظاهر بيبرس أنطاكية ، حيث قال : "قد علم القومس الجليل... ، فخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية ، كبير الأمة العيسوية ، بيمنند المنتقلة مخاطبته ، بأخذ أنطاكية منه ، من البرنسيّة إلى القومصيّة" ، وقوله منها : "ففي بعض ساعة مر شان المرشان ، وداخل الرهب الرهبان ، ولان للبلاد

(١) سر الفصاحة : ١٩٥ .

(٢) منهاج البلغاء : ١٨٨ - ١٩٠ .

(٣) المثل السائر ٣ : ٢١٢ - ٢١٣ ، وانظر جوهر الكنز : ١١١ .

(٤) خزانة الأدب ١ : ٣٠٢ - ٣١٩ .

(٥) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٥٤ ، وانظر الأدب في بلاد الشام : ٧٩١ .

(٦) انظر تشريف الأيام والعصور : ٣٤ ، صبح الأعشى ١٣ : ٢٩٢ - ٢٩٤ ، ٣١٣ - ٣١٧ .

القسطلان" ، وقوله : "وأسير من بينهم كنداصطبل" (١) .

وتجدر الإشارة إلى أن أثر الاحتكاك بين المسلمين والصليبيين في اللفاظ المستخدمة في الرسائل التي اطلعت عليها ، كان أوضح من أثر الاحتكاك مع المغول؛ إذ كانت اللفاظ المغولية المستخدمة في الرسائل قليلة جداً .

وكما هي الحال في استخدام ألفاظ النصارى في الرسائل المتبادلة معهم ، فقد استخدمت اللفاظ المغولية في الرسائل المتبادلة مع المغول ، ومنها : القان ، والتوامين أو التتومانات ، وفترمان ، وقراغول (٢) .

ولقد خلت الرسائل في هذا العصر ، مما اطلعت عليه ، من اللفاظ العاميَّة ، وغير صحيح "أن العلاقات التجارية بين المسلمين وغيرهم ، والحروب أدت إلى نوع من التمازج الثقافي واللغوي" ، بحيث "كان لها أثر كبير في انتشار شيء من اللفاظ ... العاميَّة في النثر" (٣) ، بل كانت تلك الحروب سبباً رئيسياً في تمسك المسلمين بثقافتهم ، بل وتعصبتهم لها وللغة في مواجهة الغزاة .

- اثر القرآن الكريم

ويتمثل الاثر القرآني في رسائل هذا العصر في جانبين : أولهما اقتباس الآية بنصها ، أو جزء منها ، والآخر خلطها مع بقاء شيء من لفظها . وعلى الرغم من حث النقاد وعلماء الأدب الأدباء على الإفادة من القرآن فيما ينشئون من رسائل ، فإن ذلك كان مشاراً للجدل .

أشار ابن الأثير الحلبي إلى ذلك ، فذكر أن من النقاد من يمنع ذلك مطلقاً ، ومنهم من يجيزه ، ومنهم من سكت عن ذلك ولم يبحر جواباً (٤) ، ويذكر ابن حجة أن

(١) الروض الزاهر : ٣٠٩ - ٣١١ ، وهذه اللفاظ معربة (قومص : Count) ، (البرنسيَّة أمليها : Prince) ، (المرشان : Marshal) ، (القسطلان : مأخوذة من Castle) ، (كنداصطبل : Constable) .

(٢) انظر تشريف الأعيام والعصور : ٦٩ ، السلوك ١ : ٧٨٦ ، النجوم الزاهرة ٨ : ١٣٨ ، وهي تعني على الترتيب : الملك ، ومقدم عشرة آلاف ، وكلام أو رسالة ، وحارس الحدود .

(٣) الأدب في بلاد الشام : ٧٩٢ ، وانظر الأدب في العصر المملوكي ٢ : ٤١ .

(٤) جواهر الكنز : ٦٠٩ - ٦١٥ .

الاقتباس على ثلاثة أقسام : مباح ومقبول ومردود ، فالأول ما كان في الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبي عليه السلام ، والثاني ما كان في الغزل والرسائل والقصص ، والثالث ما ينسب الكاتب فيه إلى نفسه شيئاً مما نسب الله لذاته ، أو تضمين آية كريمة في معنى هزل ساقط (١) ، ومن أمثلة الأخير رسالة استدعاء أنشأها محيي الدين بن عبد الظاهر ، وصف فيها غلمان حمّام ، وقال يغري صاحباً له بالحضور : "لدي - أبهجك الله - غصون قد هزها الحسن طرباً ،... ، وبدور أسدلت من الذوائب غيها ، قد جعلت بين الخصور والروادف من المآزر برزخاً لا يبغيان ، وعلمنا بهم أننا في جنة تجري من تحتها الأنهار وتطوف علينا بها الولدان" (٢) . ويبدو أن الرأي السائد كان جواز الحل والاقتباس من القرآن (٣) .

وقد أشار ابن حجة إلى أن الاقتباس يكون في النثر فقط ، أما في الشعر فهو عقد (٤) ، وشرط ابن الأثير في الحل من القرآن أن يحافظ على ألفاظه ، لعدم القدرة على مماثلتها . وقصد بالحل "أن يؤخذ بعض الآية فيجعل أولاً لكلام أو آخر" ، أو أن يؤخذ معناها" (٥) ، بينما أشار ابن الأثير الحلبي إلى أن أخذ الآية - كلها أو بعضها - وتضمينه في الكلام ، مع الإبقاء على سياقه هو الاستشهاد (٦) .

وقد اهتم الكتاب في عصر المماليك بالقرآن الكريم اهتماماً بالغاً ، وانعكس ذلك الاهتمام على رسائلهم ، فلاتكاد رسالة تخلو من اقتباس أو حل لبعض الآيات (٧) ، وبرز ذلك الأثر في بعض الموضوعات مثل الرسائل الجهادية (٨) ،

-
- (١) خزانة الأدب ٢ : ٤٥٥ ، ٤٥٦ .
 - (٢) فوات الوفيات ٢ : ١٨٤ .
 - (٣) الممثل السائر ١ : ٧٧ ، ١١٤ ، الوشي المرقوم : ١٧٤ ، ١٧٥ ، حسن التوسل : ٧٩ ، ٣٢٥ ، خزانة الأدب ٢ : ٤٥٧ ، صبح الأعشى ١ : ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٨ .
 - (٤) خزانة الأدب ٢ : ٤٥٩ ، قارن الوشي المرقوم : ١٧٥ ، والعقد هو ضد الحل ، إذ يقوم الشاعر بأخذ شيء من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو قول مأثور فينظمه بلغظه ومعناه ، أو معظم اللفظ فيزيد فيه ويُنقص منه ليدخل في وزن الشعر (خزانة الأدب ٢ : ٤٨٩) .
 - (٥) الوشي المرقوم : ١٧٤ ، وانظر حسن التوسل : ٧٩ .
 - (٦) جوهر الكنز : ٦٠٩ ، قارن صبح الأعشى ١ : ٢٣٤ ، ٢٤٨ .
 - (٧) انظر عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٨٤ ، الفن ومذاهبه : ٣٨٥ .
 - (٨) انظر ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٤٢ - ٢٥٦ ، نهاية الأرب ٥ : ١٥٦ - ١٦٢ .

ومراسيم الأمر والنهي (١) ، والمبايعات والعهود (٢) ، وهي من الموضوعات التي تستند على أسس دينية ظاهرة ، وبعضها يخاطب في الناس عواطفهم الدينية تجاه الإسلام وتجاه أعدائه .

ومن اقتباسات محيي الدين بن عبد الظاهر ، قوله من رسالة بيبرس إلى أحد الأمراء بعد فتح بلاد النوبة : "صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس تشني على عزائمهم التي دلت على كل أمر رشيد ،...، وحكمت بعد السيوف في كل عبد سوءٍ (ومسا ربك بظلام للعبيد)" (٣) .

ومن اقتباسات ابن الوردي ما كتب به عنه وعن أخيه يوسف إلى أحد أرباب الوظائف يسأله وظيفة لأخيه : "وإذا عني صاحب بالآخ رفقاء وإحساناً ، تلونا : (هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخاننا) (٤) ، والله يفعلينا بعملوك... ، حتى يقول أولاد صاحب عنا : ليوسف وأخوه أحب إلي أبينا منا)" (٥) .

ومن اقتباسات ابن نباتة في مفاخرته بين السيف والقلم ، قوله في تصوير الأخير : "... فرقي الانامل على أعواده ، وقام خطيباً بمحاسنه في خلعة سواده ، والتفت إلى السيف فقال : بسم الله الرحمن الرحيم (ن) ، والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون) (٦)" ، وقوله يصور السيف بعد أن أشاره القلم : "... نهض السيف عجلًا ، وتلمظ لسانه للقول مرتجلاً وقال : بسم الله الرحمن الرحيم (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوي عزيز)" (٧) .

وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من الآيات المقتبسة ، أو أجزائها ، كان يثدرج في الرسائل فقرات للمجع ، ومن ذلك في نسخة مرسوم بشد الدواوين بدمشق في وصف

(١) انظر صبح الأعشى ١٣ : ١٤ - ٢٣ ، ٣٧٩ - ٣٨٧ .

(٢) انظر نفسه ١٠ : ٤٤ - ٧٤ .

(٣) خزائن الأدب ٢ : ٤٦٣ ، والآية من سورة فصلت : ٤٦ .

(٤) سورة يوسف : ٦٥ .

(٥) ديوانه : ١٨١ ، خزائن الأدب ٢ : ٤٦٦ ، والآية من سورة يوسف : ٧ .

(٦) سورة القلم : ٢٥١ .

(٧) خزائن الأدب ٢ : ٤٦٤ ، والآية من سورة الحديد : ٢٥ .

المولى ، أن فيه معرفة "تعم البلاد بين الرغبة والرغبة ، وتجعل مثل ما يودع فيها بالبركة والنماء مثل (حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة)" (١) .

والناظر فيما تقدم من أمثلة الاقتباس في رسائلهم يرى توافقاً بين الآلية المقتبسة والموضوع ، وهو أمر طبيعي الصادر عن كتاب يفسح القرآن الكريم في مقدمة أسس ثقافتهم ، كما تحقق الأمثلة الثلاثة الأولى المتقدمة تناسقاً وتنامياً في الرسائل التي أخذت منها ، وتوحي للقارئ بشيء من التورية الناتجة عن التوافق بين بعض لفظ الآليات المقتبسة وسياق الرسالة ، مثل : العبيد ، والصاحب ، ومجنون . كما تضيف الآليات في فقرات السجع بعداً جديداً إلى التلاؤم ، وهو تنامي الإيقاع في الرسالة :

ويمكن القول بأن الاقتباس ، على كثرته وشيوعه في الرسائل ، لم يبلغ مبلغ حل الآليات القرآنية ، ويبدو أن ذلك كان نتيجة تدريب الكتاب على حل ما يحفظونه من القرآن ، ويبدو أنهم كانوا يرون فيه إبداعاً أكثر ، ومجالاً لإبراز القدرة والموهبة ، وقد يكون إقبالهم على الحل بسبب القيود التي يفرضها الاقتباس على الكاتب من ضرورة التمهيد للسياق الذي ستدمج فيه الآلية ، فالحل يعطي الكاتب قدرة على التصرف في المعنى في مواضع مختلفة ، وقد أشار ابن الأثير إلى أن الحل يكسب ملكة "إنشائية متميزة" (٢) .

ويقف المطالع في رسائلهم على أمثلة تنم عن قدرتهم وعنايتهم بما يكتبون ، ومنها قول ابن نباتة من توقيع بنيابة القدس لمن اسمه موسى ، أنه وليها "لا تفتاد ذهنه وشجاعته اللذين آنس بهما من جانب الطور ناراً" ، وكيف لا ؟ وقد قالت همته : يا موسى أقبل ولا تخف ، وأخرج يدك البيضاء في النياحة ، تكن أحق من اعترف بها الإحسان واعترف" (٣) . وهو ينظر في ذلك إلى الآليات الكريمة : (آنس

(١) صبح الاعشى ١٢ : ٣٣ ، والآية من سورة البقرة : ٢٦١ ، وانظر اقتباسات أخرى في صبح الاعشى ٩ : ١١٦ ، ١١٩ ، ١١ : ٨٨ ، ٢٧٠ ، ١٢ : ٢٢٢ ، ١٣ : ٥٢ ، ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٨٢ .
(٢) الوشي المرقوم : ٥٣ ، ١٧٤ ، المثل السائر ١ : ١٢٥ - ١٢٦ ، ١٣٦ ، وانظر صبح الاعشى ٢ : ٣٤٢ .
(٣) صبح الاعشى ١٢ : ٣٢١ .

من جانب الطور ناراً" (١١) ، (قال :خذها ولا تخف) (١٢) ، (و أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) (١٣) ، وهي في حق موسى عليه السلام ، مع مناسبة اسم المولى لذلك ، ومناسبتها لجبل الطور المرتبط بالقدس .

ومن ذلك قوله في توقيع بمشيخة الحرم الإبراهيمي في الخليل: "فليعد إلى مباشرة وظائفه ... ، بثناء يتلقى أضياف أبي الأضياف ، باليف أحوال الداخلين إليه شتاءً وصيفاً وإن لم تكن رحلة إيلاف" (١٤) . وهو يشير إلى اسم إبراهيم عليه السلام بالالية : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين) (١٥) ، وينظر إلى قوله تعالى : (إيلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف) (١٦) وكأنه يوصيه بتلقي الداخلين إلى الحرم بالترحيب والتكريم ؛ لأن تتمة الآيات في حديث ضيف إبراهيم: (فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين) ، وتتمة آيات قريش : (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) .

وترى في رسائلهم دمجا لآيات محولة من سور مختلفة ، يحشدها الكاتب معاً ، مع موافقتها لموضوع الرسالة . أنشأ ابن فضل الله العمري توقيعاً لمحتسب قال فيه يوصيه : "وأمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، ... ، وأقم الموازين بالقسط حتى لا تتمكن كفتاتها أن تتحامل أو تتحمل ، ولا يستطيع قلبها أن يميل مع من يتمول ، ولا يقدر لسانها أن يكتم الشهادة بالحق وإن كان مثقال حبة من خردل ، واجعل لك على أهل المبايعات حفظة لتظل أعمالهم لك تنسخ" (١٧) . ولعله ينظر في ذلك إلى قوله تعالى : (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنهى عن المنكر) (١٨) ، وقوله تعالى : (واقموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) (١٩) ، وقوله : (فلاتميلوا كل

(١) سورة القصص : ٢٩ .

(٢) سورة طه : ٢١ .

(٣) سورة النمل : ١٢ .

(٤) صبح الاعشى ١٢ : ٤٢٠ .

(٥) سورة الذاريات : ٢٤ .

(٦) سورة قريش : ١-٢ .

(٧) صبح الاعشى ١٢ : ٦٢ ، وانظر أمثلة أخرى ٨ : ٣٣٥ ، ٩ : ١٠٨ ، ١١٢ - ١١٣ ،

٣٣٩ ، ١٢ : ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣١٤ ، ٣٥٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ١٤ : ٣٣٣ ،

٣٤١ .

(٨) سورة لقمان : ١٧ .

(٩) سورة الرحمن : ٩ .

الميل) (١) ، و: (يريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً) (٢) ، و: (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) (٣) ، وقوله: (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) (٤) ، وقوله: (وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين) (٥) . والآيات كلها مما يتوافق مع وظيفة المحتسب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمحافظة على صحة التعامل في السلع ، ومراقبة الصناعات والتجار وأرباب الحرف.

وقد يعكس المنشئ ترتيب ألفاظ الآية الكريمة عندما يحلها ، ومنه قول الشهاب محمود ، في شفاعة لمسجون ، يمدح سلطانه بأن الأمة "تيقنت إحسانه ومروءته ، وأنه لا يمسك إلا بالإحسان ولا يصرح إلا بالمعروف" (٦) وقد أخذ من قوله تعالى : (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) (٧) .

- أثر الحديث الشريف

وأثر الحديث الشريف في الرسائل لا يختلف كثيراً عن أثر القرآن ، وإن كان القرآن أوسع أثراً وأوضح . وقد رأى أكثر النقاد في حل الأحاديث أن لاتغير ألفاظها ، فابن الأثير الحلبي يوصي بأن لا يؤخذ المعنى مجرداً عن اللفظ (٨) ، وقال الشهاب الحلبي : "وإذا كانت المساعدة عند أهل هذه الصناعة أن الأمثال لاتغير ألفاظها لاشتهارها بذلك اللفظ . . . ، فالحديث أحق وأولى" (٩) . وذهب ابن الأثير إلى أن الأحاديث قد يؤخذ لفظها أو بعضه ، أو يؤخذ معناها و"يغتصر في بوجوه التصرفات" (١٠) .

وتجدر الإشارة إلى أن أكثر الأحاديث دوراناً في استعمال الكتاب في

-
- (١) سورة النساء : ١٢٩ .
 - (٢) نفسها : ٢٧ .
 - (٣) سورة البقرة : ١٤٠ .
 - (٤) سورة الانبياء : ٤٧ .
 - (٥) سورة الانطار : ١٠ .
 - (٦) صبح الاعشى ٩ : ١٣٩ .
 - (٧) سورة البقرة : ٢٢٩ .
 - (٨) جواهر الكنز : ٦٠٩ .
 - (٩) حسن التوسل : ٨٠ ، ٣٢٥ .
 - (١٠) الوشي المرقوم : ١٩٦ ، المثل السائر ١ : ١٢٧ .

رسائلهم كانت مما يتصل بالجهد وفضائل الصحابة ، وعلّة ذلك واضحة فيما يتعلق بأحاديث الجهاد ؛ إذ كان العصر عصر جهاد ، أما أحاديث فضائل الصحابة ؛ فيعود أكثرها إلى أن الكتاب كانوا يذكرون أربعة الخلفاء بعد الصلاة على الرسول الكريم في افتتاحات أكثر الرسائل الديوانية .

ويمكن القول بأن الرسائل الديوانية كانت أكثر حظاً من غيرها من الرسائل في اقتباس الأحاديث وحلها ، كما أن حل الأحاديث أكثر شيوعاً في رسائلهم من اقتباسها أو الاستشهاد بها .

قال الشهاب الطيبي من رسالة يصف المجاهدين : "واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف فلم يرحلهم عن ظلّها الركوز إلى الدنيا الساخرة" (١) . وهو ينظر إلى قوله عليه السلام : "واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" (٢) .

ومنه قوله في تقليد يمدح المقلّد ، ويذكر أنه وُلّي لما فيه "من شجاعة تبث منها أعداء الدين على وجل ، ومهابة تسري إلى قلوب من يتعد من أهل الكفر سري ما قرب من الأجل" (٣) ، وهذا مستمد من الحديث الشريف : "نُصرت بالرعب" (٤) .

وفي رسالة لابن نباتة صحبة هدية سلطانية من الخيل ، وصفها بأن ما منها إلا "من عتقد بناصيته كل الخير ، وعقد له لواء الفخار على كل الخيل" (٥) ، وهو حل لقوله عليه السلام : "الخيال معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة" (٦) .

ومما جاء في فضائل الصحابة في تقليد بعودة شهاب الدين بن فضل الله إلى كتابة السر بمصر . قال منشئه بعد حمد الله والشهادة بوحدانيته والصلاة على

-
- (١) صبح الاعشى ١٢ : ١٢٢ ، وانظر ٨ : ٣٦٩ ، ١٢ : ١١ ، ١٧ ، ١٨ .
 - (٢) صحيح البخاري بشرح الكرمانلي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٨١م ، ١٢ : ١١٨ .
 - (٣) صبح الاعشى ١٢ : ١٢٠ ، وانظر ١٢ : ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٢٣ .
 - (٤) سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (٥.ب) ٦ : ٣ ، ٤ .
 - (٥) صبح الاعشى ٩ : ٢٩٨ - ٢٩٩ ، وانظر ١١ : ١٣٤ ، ٢٢٨ ، ٢٦٧ ، ١٢ : ٤١٢ ، ١٣ : ١٥ ، ٣٨٠ .
 - (٦) الموطأ ، مالك بن أنس ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ٢ : ٤٦٧ .

رسوله : "صلى الله عليه وعلى آله أعضان الشجرة الزهراء التي هي بضعة منه ، ونبتة من أصله ، ورضي الله عن أصحابه الذين أجلسهم من أجله ، خصوصاً من بادر إلى الإيمان فخلص من سبق بخصمه ، ومن أئيد به الدين وفرّ الشيطان من ظله ، ومن جهز جيش العسرة حتى غزا العدا بخيله ورجله ، ومن كان باب مدينة العلم ومأنح جزله وفاتح قُفْله" (١) . وفي هذا النص عدة أحاديث شريفة وأخبار هي :

- قوله عليه السلام : "إنما فاطمة بضعة مني يؤذيها ما آذاها" (٢) .
- قوله : "اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين" (٣) وقوله لعمر : "ما لقيك الشيطان قط" سالكا فجعاً ، إلا سلك فجاً غير فجك" (٤) .
- قوله في علي : "أنا مدينة العمل وعلي" بابها" (٥) .
- الخبر بأن أبا بكر كان أول من أسلم من الرجال .
- خبر تجهيز عثمان جيش العسرة .

ومن حل الأحاديث قول الشهاب الحلبي في شفاعة لرجل بولاية بيت لحم : "ومولانا أولى من رحم منه ضعفاً ،...، وكف يد التعرض إليه في أيام عدله ، فإنها أيام لا ضرر فيها ولا ضرار" (٦) ، وقد نقل الحديث الشريف : "لا ضرر ولا ضرار" (٧) ، من سياقه إلى سياق آخر لموافقة نص الرسالة ومعناها .

ومن المواطن التي نقلت فيها الأحاديث بالحل من سياقها إلى سياق آخر ، ما جاء في مرسوم عن السلطان لأمير قال كاتبه : "وما كنا لنسمح ببعده عن أبوابنا الشريفة ، ولانجييه لمفارقة ما بيده من وظيفة ، لأنه ما يدرك أحد من أبناء عصره مدسه ولانصيفه" (٨) . وهو مأخوذ من قوله عليه السلام يذكر فضل الصحابة :

-
- (١) صبح الاعشى ٩ : ٢٩٨ - ٢٩٩ ، وانظر ١١ : ١٣٤ ، ٢٢٨ ، ٢٦٧ ، ١٢ : ٤١٢ ، ١٣ : ٣٨٠ ، ١٥ .
 - (٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٢٩م ، ١٦ : ٢ - ٤ .
 - (٣) مسند الإمام أحمد ٢ : ٩٥ .
 - (٤) صحيح مسلم ١٥ : ١٦٥ .
 - (٥) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، علي بن أبي بكر الهيثمي ، مكتبة حسام الدين القدسي ، القاهرة ١٣٥٣ هـ ، ٦ : ٢٠٤ .
 - (٦) صبح الاعشى ٩ : ١٤١ .
 - (٧) سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، المكتبة العلمية ، بيروت (ب-٢) ، ٢ : ٧٨٤ .
 - (٨) صبح الاعشى ١٣ : ٥٧ .

"لو أن" أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدد أحد رهم و لانصيفه" (١) .

وفي تقليد بإمرة مكة أنشأه ابن البارنباري ، قال في حقها: "وحرما الله فلا ينفتر صيدها ، ولا يعضد شجرها ، ولا تحل لشقطنها إلا لمنشد" (٢) . وهو مأخوذ من قوله عليه السلام : "إن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السماوات والأرض ، فهو محرمة بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل فيه القتال لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، ولا ينفتر صيده" ، وفي رواية أخرى : "ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد" (٣) .

- أثر الشعر

عد النقاد التضمين إجابة من الكاتب لصنعتهم . قال الكلاعي : "كان المجيد كثيراً ما يضمن رسائله أشعاره وأشعار غيره" (٤) ، وذهب ابن شيث إلى مثل ذلك ، مبيناً أنه لابد للكاتب المجيد من النظر في أشعار المتقدمين لأنها استغرقت المعاني (٥) .

وأكثر ما تبرز ظاهرة التضمين في الرسائل الإخوانية (٦) والادبية (٧) ، أما الرسائل الديوانية ، فكان التضمين فيها نادراً ، وقد أشار القلقشندي إلى ذلك بقوله : "أما مكاتبات الملوك الآن فقل أن تستعمل فيها الأشعار ، أو يستشهد فيها بالمنظوم والمنثور" (٨) .

وأشار القلقشندي إلى أن الرسائل قد تكون كلها ، أو جلها شعراً ، وقد

-
- (١) صحيح مسلم ١٦ : ٩٢ - ٩٣ .
 - (٢) صبح الاعشى ١٢ : ٢٢٩ ، وانظر في أحاديث أخرى ١١ : ٢٧٤ ، ٣٢١ ، ١٢ : ٢٤٢ .
 - (٣) ديوان ابن الوردي : ١٥٤ .
 - (٤) صحيح مسلم ٩ : ١٢٣ - ١٢٩ .
 - (٥) إحكام صنعة الكلام : ٧١ .
 - (٦) معالم الكتابة : ٩٦ وانظر الصناعتين : ١٩٦ - ١٩٧ ، الوشي المرقوم : ١٥٢ ، المثل السائر ١ : ١٣٧ ، ٤ : ٧ ، ٩ .
 - (٧) انظر صبح الاعشى ٩ : ٤٦ - ٤٨ ، ٦٨ - ٦٩ ، ٨٥ - ٨٦ ، ١٤٩ - ١٥٢ ، ١٩٠ ، ٢٢٥ .
 - (٨) انظر نفسه ١٤ : ١٥٧ - ١٨٨ ، ٣٢٦ - ٣٢٧ ، ٣٢٨ - ٣٤٠ .
 - (٨) نفسه ١ : ٣٢٣ .

يكون صدر المكاتبة شعراً وذيلها نثراً ، وبالعكس ، وقد يكون طرفاها نثراً وأوسطها شعراً ، وعكس ذلك بحسب ما يقتضيه الترتيب" (١) . وتنم بعض الرسائل عن تكلف شديد ، حيث يمزج الكاتب أحياناً الشعر بالنثر ، ويمهّد لأعجاز أبيات من الشعر بكلام منشور ، من ذلك ما كتب به الشيخ ضياء الدين القرطبي (٢) للشيخ تقى الدين بن دقيق العيد جواباً عن رسالة منه ، قال فيه (٣) :

"وينهي ورود عذرائه التي ...	لها الشمس خِدْن والنجوم ولائده
وحصائمه التي ...	لها الدر لفظ والدراري قلائده
ومشرفته التي ...	لها من براهين البيان شواهد
وكريمته التي ...	لها الفضل ورد والمعاني موارد
وآيتها الكبرى التي دل فضلها	على أن من لم يشهد الفضل حامده
وأنتك سيفه سلّه الله للهدى	وليس لسيفه سلّه الله غامده

أما حل المنظوم ، فقد ازداد الاهتمام به تدريجياً ، وقد عده ابن الصيرفي من أعلى رتب البلاغة (٤) ، وقال ابن شيث : "قال الحذاق من أهل هذه الصناعة : إن الكتابة هي حل المنظوم من الشعر" (٥) ، وقسمه ابن الأثير أقساماً ثلاثة ، جعل أعلاها رتبة أخذ المعنى من البيت وصوغه بالفاظ غير ألفاظه (٦) ، واشترط الشهاب الطلبي في الحل أن يكون الكاتب واسع الحيلة ، فيزيد على البيت المحلول نوعاً من البديع ، وأن لا يظهر فيه تكلف ، ولا يفسد المعنى أو يحط رتبته ، وأن تكون الألفاظ الجديدة مناسبة لألفاظ البيت المحلول غير قاصرة عنها ، وإلا عُدّ الحل عيباً ، ونبّه إلى أن الكاتب لا ينبغي له أن يعتمد على الحل دائماً ؛ لأن ذلك مما يذهب برونق الطبع والانجمام (٧) .

-
- (١) صبح الاعشى ١ : ٣٢٣ .
(٢) أحمد بن عمر بن يوسف القرطبي ، كاتب مترسل ، أورد النويري نماذج من رسائله في خمسين صفحة (نهاية الأرب ٨ : ٥١ - ١٠١) ، توفي عام ٦٧٢ هـ (الطالع السعيد : ٥٤) .
(٣) نهاية الأرب ٨ : ٥٢ ، صبح الاعشى ١ : ٣٢٧ ، ٣٢٨ .
(٤) الأفضليات ، تحقيق د. وليد قصاب و د. عبدالعزيز المانع ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٢م : ٢٥٢ ، ٢٥٣ .
(٥) معالم الكتابة : ٩٦ ، وانظر الصناعتين : ٢١٦ ، ٢١٧ .
(٦) الوشي المرقوم : ٥٨ ، ١٠٢ ، ١٥٢ ، المثل السائر ١ : ٧٨ (والأخراخ حله بلغظه أو ببعض لفظه) .
(٧) حسن التوسل : ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، وانظر تحرير التعبير : ٤٣٩ - ٤٤٢ ، جواهر الكنز : ١٩٥ ، ٦٠٧ - ٦٠٨ .

وقد أشار ابن الاثير إلى نوع من الحل سمّاه : توليد المعاني ، وهو الذي "يبدل صور الاعيان ، ويبرزها في عدة من الالوان... ، وهذا هو أشرف الدرجات في حل المنظوم ، ولا يكاد يفتقطن لمكان الاخذ منه" (١) .

ومن هذا القبيل أن الشهاب محموداً حل بيتاً لابن الرومي ، ووظّفه في وصف السيوف والبلاغة والكتابة والرمّاح ، بحيث لا يفتقطن لموضع تأثره به ، وبيت ابن الرومي هو (٢) : (الكامل)

وحديثها السحر الحلال لو أنّه لم يجنّ قتل المسلم المتحرّز

فقال يصف السيوف : "وكفى السيوف فخراً أنها للجنّة قلال ، وإلى النصر مآل ، وإذا كان من بيان الحديث سر ، فإن بيان حديثها عمّن كلمته هو السحر الحلال" .

وقال يصف البلاغة : "البلاغة تسحر الالباب حتى تحيل العرّاض جوهراً ، وتحيل الهواء المدرك بالسمع لانسجامة وعذوبته في الذوق نهراً ، لكنه سحر لم يجن قتل المسلم المتحرّز فيقتول في حله" .

وقال في وصف الكتابة : "خطّه شرك العقول ، وفتنة تشغل المطمئن بملاحة المرثي المكتوب عن فصاحة المسموع المقول ، ولو لم يكن البيان سحراً لما تجسّدت منه في طرسه هذه الدرر ، ولو لم يكن بعض السحر حلالاً ، لما انطى ظلام النفس عما يلهتدى به من هذه الاوضاع الغرر" .

وقال في الرماح : "حسب السنة الاسنّة شرفاً أن كشف خبايا القلوب يثدّم" إلا منها ، وأن بث أسرار الضمائر تذكّره روايته إلا عنها ، فمكرر حديثها في ذلك لا يفضي إلى ملال ، وإذا لم يكن حُسن حديثها الذي يتسحر الالباب مما يحلّ ، فليس في الحديث سحر حلال" (٣) .

والملاحظ في النماذج الاربعة التي حل فيها الشهاب بيت ابن الرومي ، أن

(١) الوشي المرقوم : ١٦٦ .

(٢) ديوانه ، تحقيق د. حسين نصار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤م : ٤٠٩ .

(٣) حسن التوسل : ٣٢٨ ، صبح الاعشى ١ : ٣٣٦ .

معنى البيت انسجم إلى حدٍ كبير مع المعنى الذي قصد إليه الشهاب ، وقد أضاف إليه في وصف السيوف حديثاً شريفاً ، ومال بالمعنى في وصف البلاغة نحو الفقه ، وفي وصف الكتابة ضم إليه ما أشر عن الرسول الكريم من قوله : "إن من البيان لسحراً" .

ويتضح من خلال اقتباسهم لأشعار المتقدمين وحلها ، أنهم تأثروا بمشاهير الشعراء العرب ، أو بقصائد مشهورات بأعيانها ، كما يلاحظ تأثرهم ببعض الشعراء في أغراض اشتهروا بها ، فقد تأثروا بامرئ القيس في وصف الخيل ، وبأبي تمام والمتنبي في وصف الحروب والفتوح .

وإن دراسة تأثرهم ، فيما وصل إلينا من رسائلهم ، يكشف عن موقف لهؤلاء الكتاب من الشعراء المتقدمين وشعرهم ، وهو موقف نقدي أحسوا فيه بتطوق هؤلاء وجودة أشعارهم في موضوعات محددة ، لكنهم لم يكونوا بدعة في ذلك ، فقد ظهر التأثير بالشعر في الرسائل قبل العصر المملوكي .

ويبدو أثر الشعراء الجاهليين في رسائل هذا العصر جلياً ، وتجدر الإشارة إلى أن ما وقفت عليه من تأثر بالشعر الجاهلي في كتاباتهم يدل على إعجابهم بهذا الشعر ، وتقديرهم له ، وقد تنوع الشعراء الذين تأثروا بهم ، وتعددت الموضوعات التي تأثروا بها ، غير أن أوضح أثر للشعر الجاهلي كان لأبيات امرئ القيس في معلقته ، وبخاصة في وصف الخيل ، وأبياته في وصف الوحوش كذلك ، ووصفه ووصف النابغة لليل .

قال الشهاب الحلبي يصف حصاناً : "يُقبل كالليل ، ويمر كجلمود صخر حطته السيل" (١) ، وقال ابن البارنباري في وصف الخيل : "ومن أدهم مدرك كالليل ، منصبي كالميل" (٢) ، وهما في ذلك متأثران بقول النابغة (٣) : (الطويل)
فإنك كاليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

(١) صبح الاعشى ٨ : ٣٨٨ ، وانظر : ٣٨٩ ، ٩ : ١١٨ ، ١٤ : ١٩٢ .

(٢) نفسه ١٤ : ١٩٣ ، وانظر : ١٩٤ .

(٣) ديوانه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ط ٢ : ٣٨ .

وقول امرئ القيس (١) : (الطويل)

مكر مفر مقبل مدبر معاً
كجلمود صخر حطته السيل من عل

كما تأثروا بامرئ القيس في وصف الليل . قال الشهاب الحلبي : "كأن امتزاج لونه بشفق الكواكب خليطاً مسكاً ومنديل ، وكأن شريّاه لامتداداه معلّقة بأمراس الكتّان إلى صمّ جندل" (٢) ، وهو من قوله (٣) : (الطويل)

كأن الشريا علّقت في مّصاميها
بأمراس كتّان إلى صمّ جندل

وقد ظهر في هذه الرسائل تأثر واضح ببعض القصائد والابيات المشهورة في العصر الجاهلي ، أبدع قائلوها فيها حتى أصبحت ذات شاعرة كالامثال ، ومن ذلك تأثرهم بقوم مهلهل (٤) : (البسيط)

يلبكي علينا ولانبكي على أحدٍ
لنحن أغلظ أكباداً من الإبل

فأخذه محيي الدين بن عبد الظاهر في التعبير عن الصبر على المصيبة . قال في جواب قلاوون إلى ملك اليمن الذي عزاه بابنسه الصالح : "وليست الإبل بأغلظ أكباداً ممن له قلب لا يلبالي بالمدمات كثرت أو قلت" (٥) .

ونشر ابن نباتة قول دريد بن الصمّة في قومه (٦) : (الطويل)

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشداً إلا ضحى الغد

وضمّنه رسالة له في وصف النيل قال فيها : "حدث عن البحر ولا حرج ، وانعرج على البقاع يلوي معصمه ، فليته ذلك السّلوى والمنعرج" (٧) .

ويلاحظ التوافق بين الابيات المنشورة وبين بعض متعلّقات الرسالة التي تحل

(١) ديوانه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ط ٤ : ١٩ .

(٢) صبح الاعشى ١٤ : ٣٣٤ ، وانظر في التأثر به ١٤ : ٣٢٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

(٣) ديوانه : ١٩ .

(٤) المهلهل بن ربيعة : حياته وشعره ، رسال جامعية مخطوطة بالجامعة الاردنية ، أعدها نافع بن منجل بن شاهين الراجحي بكلية الاداب بالجامعة المستنصرية ١٩٨٦م : ٣٠٠ .

(٥) صبح الاعشى ٧ : ٣٨٣ .

(٦) الاصمعيات ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، بيروت ، لبنان ط ٥ : ١٠٧ .

(٧) صبح الاعشى ٨ : ٣٦٨ ، وانظر ١٢ : ٢٠٧ .

فيها . جاء في تقليد بإمرة عرب زبيد بالشام : "وزبيد من أفرها قبيلة ،
وأكثرها فوارس ، فأما أحسابها فكريمة ، وأما وجوها فجميلة ،... كم فيهم بمواقع
الطعان فطن ذو كَيْس ،... منهم صاحب الصمامة بقي مثل السيف فرداء ، وكم قُتِل
من أقرانه الشجعان من أخ صالح وبو" أه في العجاج بيديه لحداء" (١) ، وكاتب
التقليد ينظر في ذلك إلى قول حسان يمدح الغساسنة (٢) : (الكامل)

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شمّ اللئوف من الطراز الأول

والأبيات الشهيرة لعمر بن معديكرب الزبيدي (٣) : (مجزوء الكامل)

كم من أخ لي صالح بو" أه بيدي" لحداء

ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فرداء

وظهرت أبيات الخنساء في تعداد منساقب صخر ، وبخاصة بيتها المشهور (٤) :

(البسيط)

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

حيث استخدمه الكتّاب في رفع شأن الموظفين ، وإبراز قدراتهم ، ومنه قول شهاب
الدين بن فضل الله العمري في توقيع : "فليباشر هذه الوظيفة... مشبهاً أباه في
عدله ،... ، وتوقد رأيه لدى طود حلم وعلم ، فيا لك من نارٍ على علم" (٥) .

ويبدو أن شهرة "بانت سعاد" دفعت بعض الكتّاب إلى التأثر بما قاله كعب
فيها . قال ابن نباتة من توقيع بنظر حسبة بعلبك يوصي المحتسب بمباشرة وظيفته :
"حاملاً على الحال المستقيم كل حي لديه ، وكل من هو على آله حذاء محمول" (٦) ،
وهو من قول كعب (٧) : (البسيط)

كل ابن أنشى وإن طالت سلامته يوماً على آله حذاء محمول

-
- (١) صبح الاعشى ١٢ : ٨٣ ، وانظر ١١ : ١٦١ .
(٢) ديوانه ، ضبط وشرح عبدالرحمن البرقوقى ، دار الاندلس ، بيروت ١٩٧٨م : ٣٦٦ .
(٣) ديوانه ، تحقيق هاشم الطعان ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد (ب - ت) : ٦٩ .
(٤) ديوانها ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٦٠م : ٤٩ .
(٥) صبح الاعشى ١٢ : ٣٩١ ، وانظر ١٢ : ٢٧١ .
(٦) نفسه ١٢ : ٣٩٧ ، وانظر ٨ : ٣١٦ ، ٩ : ١٢١ .
(٧) ديوانه بشرح السكري ، الدار القومية للطباعة ، القاهرة ١٩٦٥م : ١٩ .

أما فيما يتصل بتأثرهم بشعراء العصر الإسلامي ، فلم أقف على أي أثر لشعر صدر الإسلام في الرسائل ، إلا إذا اعتبرنا "بانت سعاد" أثراً شعرياً من هذا العصر ، وأميل إلى عدها أثراً يقع في دائرة الشعر الجاهلي (١) . وأما الشعر الأموي فله حضوره طفيف في هذه الرسائل ، وبخاصة شعر المديح ، واعتقد أن لما ساد من ضعف الشعر في صدر الإسلام أثراً في ضعف تأثرهم به ، ويبدو أن غلبة شعر المديح على شعر العصر الأموي كان من الأسباب التي دفعت كتّاب عصر المماليك إلى التأثر به .

وقد شاعت الأبيات الشهيرة في مدح عرابة بن أوس الحارثي في الرسائل في العصر المملوكي ، وبخاصة في مدح أرباب الوظائف من خلال رسائل التولية والتعيين . قال الشهاب الحلبي يمدح موظفاً في توقيع له على لسان السلطان : "... وأنه ما رفعت بين أيدينا راية جهادٍ إلا تلقاها عرابة عزمه بيمينه (٢) وهو حل البيت (٣) : (الوافر)

إذا ما راية رفعت لمجدٍ تلقاها عرابة باليمين

واستخدم الشهاب الحلبي بيت الفرزدق (٤) : (الطويل)

ورثتم قناة الملك لاعن كلاله عن ابني مناف : عبدشمس وهاشم

فنشر البيت وضمّنه فقرة عبر فيها عن رأي المماليك في الحكم ، وهو يتوافق في ذلك مع تعبير الفرزدق عن رأي الأمويين في الحكم . قال في تقليد بنيابة السلطنة على لسان الناصر محمد بن قلاوون : "من حين أورثنا الله ملكك الإسلام لا عن كلاله" (٥) .

ونشر ابن عبد الظاهر قول نصيب يمدح عبد الملك (٦) : (الطويل)

-
- (١) انظر : معاناة ومعايير من جمال في طائفة من القصائد الجاهلية والمختزومة ، د. هاشم ياغي ، الفجر للطباعة والنشر ، ١٩٩٠م : ٢٣ ، ٢٦ .
 - (٢) صبح الاعشى ١٢ : ١٢٢ ، وانظر ٩ : ١٣٩ ، ١١ : ١٣٤ ، ١٢ : ٨٧ ، ٩٣ ، ٣٩٣ ، ١٣ : ٤٧ .
 - (٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، محمود شكري الأطوسي ، القاهرة ١٩٢٤م ، ٨٨ : ٢ .
 - (٤) ديوانه ، طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٦٦م ، ٢ : ٣٠٩ .
 - (٥) صبح الاعشى ١١ : ١٣٤ .
 - (٦) قطوف الأغاني ، تحقيق كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت (ب-٣) : ٣١ .

فعاوجوا هأشوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أشتت عليك الحقائق
وجعله في مضمار وصفه لأحد انتصارات قلاوون في رسالة بشرى إلى ملك اليمن . قال
فيها : "وكتابنا هذا والمولى بحمد الله أحق من هنئ بهذا الفتح الذي تشني على
كتاب بشائره الحقائق" (١) .

وكان لأبيات كثير عزة المعروفة في وصف الانثناء من منى بروز ، وبخاصة في
الرسائل التي ذكرت فيها مكة ، ففي تقليد بإمرة مكة قال ابن البارنجاري :
"وإليها أعنقت الركاب ففي كل أبطح للمطي مسير ومسيل" (٢) ، وهو حل لقول
كشير (٣) : (الطويل)

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

وقد حظي شعراء العصر العباسي باهتمام وافر من كتّاب عصر المماليك ، فبرز
أثر شعرهم في الرسائل بجلاء ، ويبدو أن لشيوع ظاهرة البديع في الشعر العباسي
أثراً في إعجابهم به ، على أن ذلك الأثر كان ظاهراً في الرسائل قبل عصر
المماليك (٤) ، ويمكن القول بأن أكثر شعراء العصر العباسي تأثيراً في رسائل عصر
المماليك المتنبي وأبو تمام ، ومرد ذلك إلى إبداع هذين الشاعرين في التعبير عن
الصراع مع الروم أولاً ، إلى جانب كونهما من كبار شعراء العرب ثانياً ؛ ولذلك
أكبّ الأدباء في عصر الحروب الصليبية على ديوانيهما ، وأوصى النقاد بضرورة
إقبال من يترشح للكتابة على أشعارهما ليمتلك الملكة ، وتحصل عنده
المقدرة (٥) .

قال علاء الدين بن عبد الظاهر يصف شبّات الناصر في مرج الصفر عام ٧٠٢ هـ :
"ورأى الأبطال من أوليائه جرحى في سبيل الله ، والاعداء مهزومة ، والوجه منه
وضّاح والشعر باسم" (٦) ، وهو ينظر في ذلك إلى قول المتنبي يمدح سيف الدولة ،

(١) صبح الاعشى ١٧ : ٣٨٢ ، وانظر ١٣ : ١٧٣ .

(٢) نفسه ١٢ : ٢٣٠ ، وانظر ٢٢٦ .

(٣) ديوانه ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧١م : ٥٢٥ .

(٤) انظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٧٢ - ٣٧٨ .

(٥) انظر الوشي المرقوم : ٥٦ ، ٥٧ . نصرة الشاعر على المثل السائر : ٦٤ ، ٦٥ ،
وانظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٧٣ .

(٦) السلوك ١ : ١٠٣١ .

ويصف شباته في معركة الحدث (١) : (الطويل)

تمر بك الابطال كلهم هزيمةً ووجهك وشاحٌ وشغرك باسمٌ

وجمع الشهاب الحلبي في وصف شبات من هُزم هو وجيشه أمام أعدائه بين أبيات لابي تمام وأخرى للمتنبى . قال الشهاب يصفه بأنه "أثبت في مستنقع الموت رجله ، ووقف وما في الموت شك" لواقف يحمي خيله ورجله ، وهذا هو الموقف الذي قُام له مقام النصر إذ فاته النصر وفاته النصر" (٢) ، وهو مأخوذ من قول أبي تمام يرثي محمداً بن حُميد (٣) : (الطويل)

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة تقوم مقام النصر إذ فاته النصر

فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها : من تحت أخمصك الحشر

وقول المتنبي من قصيدته المتقدمة الذكر (٤) : (الطويل)

وقفت وما في الموت شكٌ لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائمٌ

كما أفاد الشهاب من وصف أبي تمام فتح عمورية ، رافعاً من شأن المعتمصم فاتها . قال في البشارة بفتح المرقب : "وقد أحاطت العلوم الشريفة بأن هذا الحصن طالما شحت الأحلام أن تخیل فتحه لمن سلف من الأنام ، فما حدثت الملوك أنفسهم بقمده إلا وشناها الخجل" (٥) ، وكأنه ينظر في ذلك إلى قول أبي تمام في عمورية (٦) : (البسيط)

بكرٌ فما افترعتها كف حادثةٍ ولا ترقّت إليها همة النّوبِ

كما تأثروا بأشعارهما في رسائلهم الوصفية ، ومن ذلك قول ابن نباتة في رسالة شكر عن هدية من لحم غزال : "لا زالت تقتنص المحامد بعطاياه المكررة ،... ولا برحت نفحات مكارمه تشهد أن المسك بعض دم الغزال" (٧) ، وهو ينظر إلى قول أبي الطيب (٨) : (الواهر)

(١) ديوانه : ٣٨٧ .

(٢) صبح الاعشى ٨ : ٣٠١ .

(٣) ديوانه ٤ : ٨٠ ، ٨٤ .

(٤) ديوانه ٣ : ٣٨٦ .

(٥) صبح الاعشى ٨ : ٣٩٦ ، وانظر : ٣٠١ ، السلوك ١ : ١٠٣٢ .

(٦) ديوانه ١ : ٤٨ .

(٧) صبح الاعشى ٩ : ١١٨ .

(٨) ديوانه ٣ : ٢٠ ، وانظر في التآثر به ٨ : ٣٠١ ، ١١ : ٢٣٠ .

فإن تفق الانام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وقال الشهاب الحلبي يصف نسراً : "قد شابت نواصي الليل وهو لم يشب ، ومضت الدهور وهو من الحوادث في معقل أشب" (١) ، وهو منقول من وصف أبي تمام لمنعسة عمورية إذ يقول (٢) : (البسيط)

من عهد اسكندر أو قبل ذلك قد شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
من بعد ما أشبّوها وأثقين بها والله مفتاح باب المعقل لأشب

وتأثروا بأبي نواس في شعره الماجن ، ومن ذلك قول بدر الدين بن الصاحب يصف الخمرة : "طعم الحياة في ريقها ، وضيق الموت في مئبأينتها وتطليقها ، لاتنزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف التعب من صافح راحتها" (٣) ، وفيه حل لقول أبي نواس (٤) : (البسيط)

صفراء لاتنزل الأحزان ساحتها لو مسّها حجر مسّته سراء

وكان لشعر بشار حضور طفيف في رسائلهم ، ومن ذلك قول ابن نباتة في مدح موظف اسمه عمر في توقيع له : "كم صدق برق بديهته الأفكار حين شامت ، وكم نبّهت عند ليالي المشكلات عمر ثم نامت" (٥) ، وهو ينظر إلى قول بشار بمدح عمر بن العلاء (٦) : (المتقارب)

إذا أيقظتك حروب العدا فنبّه لها عمراً ثم نم
فتى لاينام على شاره ولا يشرب الماء إلا بدم

وتجدر الإشارة إلى أن أثر الشعر العربي الأندلسي نادر جداً في رسائلهم في حدود ما وقفت عليه منها ، وفي حدود تنبهي لموطن التأثر به ، وليست أملك تعليلاً لذلك سوى أن المشاركة رأوا في أدب المغاربة ونقدهم سعياء لتقليدهم (٧) ، وهو

(١) صبح الأعشى ١٤ : ٣٣٧ .

(٢) ديوانه ١ : ٤٨ ، ٦٠ .

(٣) مطالع البدور ١ : ١٥٣ .

(٤) ديوانه ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٨٢م : ٦ .

(٥) صبح الأعشى ١٢ : ٣٧٦ .

(٦) ديوانه ، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، الشركة التونسية ، والشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ١٩٧٦م : ٤ : ١٨٢ .

(٧) انظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ٤٧٠ - ٤٧١ ، ٤٧٣ - ٤٧٥ .

لا شك مؤثر" في تقويمهم لذلك الأدب . ومما وقفت عليه من ذلك قول ابن فضل الله العمري من نسخة إطلاق للعمريين يعطى بموجبه المقيمون منهم بالحرمين الشريفين ما لا ، إذ أضاف قائلا : "ومن خاف على نفسه في المقام فيهما ممن كان في أحدهما ثم فارقه على عزم العود إلى مكانه ، وأقام وله حنين إلى أوطانه ، ولم يئله استبدال أرض بأرض ، وجيران بجيران ، عن أرضه وجيرانه" (١) ، وكأنني به وقف على أبيات ابن حمديس الصقلي يخاطب قومه (٢) : (الطويل)

فإن بلاد الناس ليست بلادكم ولا جاراها والظلم كالجار والظلم
أعن أرضكم يغنيكم أرض غيركم وكم خالة جداء لم تلغن عن أم

ويتضح مما تقدم أن كتاب عصر المماليك تأثروا تأثراً واضحاً بالشعر العربي في عصوره بدرجات متفاوتة ، بقدر ما أسعفت الذاكرة على التنبيه لمواطن الاختذ ، فبينما كاد يختفي التأثر بالشعر الأندلسي ، وانعدم فيما يتصل بشعر صدر الإسلام ، رأيناه يبلغ درجة عالية من التأثر بشعر العصر العباسي، يليه الجاهلي ثم الأموي . كما ظهر تركيزهم واهتمامهم بشعراء معينين : كالمتنبي وأبي تمام وامرئ القيس ، وبرز التأثر بالشعراء في موضوعات اشتهروا بها ، الأمر الذي يحقق ما تقدم في الحديث عن ثقافة هؤلاء الكتاب .

- أثر الأمثال

وكانت الأمثال في عداد ما اهتم به الكتاب في رسائلهم : تضميناً وحلاً ، وقد برزت هذه الظاهرة عند ابن شيث الذي قال : "والتمثل بالمثل المأثر في موضعه من أحسن أنواع الكتابة وأعظم فنونها" ، وأورد مجموعة من الأمثال التي يحتاج إليها الكاتب فيما ينشئه (٣) .

وتحدث ابن الأثير عن كيفية حلها ، قال : "أعلم أن أمثال العرب لا تغير الفاظها" ، وأجاز في حلها تقديم بعض الانقضاء أو تأخيرها ، وحذف بعضها على

(١) صبح الأعشى ١٣ : ٤٥ .

(٢) ديوانه ، تصحيح وتقديم د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت (بت) : ٤١٧ .

(٣) معالم الكتابة : ١٣٨ - ١٧٣ .

شريطة ألا يذهب من معنى المثل شيء ، واشترط في حل الأمثال الشعرية الانسجام بين ألفاظها وبين ما يضم إليها من ألفاظ (١) . وإلى مثل ذلك ذهب الشهاب محمود (٢) . بينما لم يهجز القدماء التلاعب بالألفاظ والأمثال بالتغيير أو الحذف . قال الرازي : " الأمثال كلها حكايات لا تغير " (٣) .

وتجدر الإشارة إلى أن ما وقفت عليه من استعمالاتهم للأمثال يشير إلى اهتمامهم بالنثرية منها أكثر من الأمثال الشعرية ، فإذا ما ضمن الكاتب المثل بنم ، فإنه ينقله إلى سياق جديد أو يضيف إليه صفاً من البديع .

وممن حل الأمثال الشعرية ابن فضل الله العمري . قال في وصية لمحتسب :
"وشم من لا يستقيم حتى يؤدب ، ومن لا يثلم على شعش وأي الرجال المهذب" (٤) ،
وهو مأخوذ من قول النابغة (٥) : (الطويل)
ولست بمستبق أخاً لا تلمته على شعش ، أي الرجال المهذب ؟

ومن قبيل نقل المثل إلى سياق جديد ، قول ابن الوردي في مفاخرته بين المسيف والقلم على لسان السيف ، بعد أن أذعن القلم خوفاً من التهديد : "أمكراً ودعوى عفة ، لأمر ما جدع قصير" أنه (٦) .

ومن المواطن التي استخدم فيها المثل بنصه مع إضافة فن آخر إليه ، قول ابن نعباتة في توقيع لمن اسمه شهاب الدين أحمد ، إنه ولي لكفائه "التي قضت لاسمه بالعود ، فإن العود أحمد" (٧) إذ أضاف إلى قولهم : "إن العود أحمد" (٨) ، التورية عن اسم المولى .

-
- (١) الوشي المرقوم : ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٦ .
 - (٢) انظر حسن التوصل : ٨٠ ، ٣٢٥ .
 - (٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٨١ .
 - (٤) صبح الأعشى ١٢ : ٦٣ ، وانظر : ٣٧٦ .
 - (٥) ديوانه : ٧٤ ، وانظر مجمع الأمثال ، الميداني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار القلم ، بيروت (ب-٢) : ٢٣ .
 - (٦) ديوانه : ١٨٤ ، والمثل في أمثال العرب ، المفضل الضبي ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الراشد العربي ، بيروت ، ١٤٠١ هـ : ١٤٦ .
 - (٧) صبح الأعشى ١٢ : ٣٣٢ ، وانظر : ٣٤٩ .
 - (٨) مجمع الأمثال ٢ : ٣٨ .

والغالب في استخدام الأمثال حلتها بإضافات يقتضيها السياق الذي يلدخلها الكاتب فيه ، ومن ذلك قول ابن عبد الظاهر في توقييع بالتدريس في الجامع الأموي: "الحمد لله على أن أعطى قوس ذلك المحراب باريها" (١) ، وهو مأخوذ من قولهم : "أعطى القوس باريها" (٢) .

ومنه قول ابنه فتح الدين من أمان للتجار يصف مصر : "إذ أصبحت دار إسلام بجنود تسبق سيوفهم العذل" (٣) ، وهو من قول العرب : "سبق السيف العذل" (٤) .

ومن شفاعة أنشأها الشهاب محمود قال يمدح السلطان : "ودرات مكارمه عن الأولياء نوب الزمان ، وعلا على حاتم فلو تشبه بكرمه قلنا : مرعى ولا كالسعدان" (٥) .

وقال في توقييع لطبيب في قصر السلطان بأنه " هو الذي بلغ من العلم غايصة مثراده ... ، قد حلب هذا العلم أشطره" (٦) ، وهو تصرف حسن في قولهم : "حلب الدهر أشطره" (٧) .

ويبدو أن ابن نباتة كان أكثر الكتاب ولعاً بالأمثال وحلها . قال في توقييع بالإفتاء في الجامع الأموي يدعو للمولى : "نفع الله ببقائه ، ورفع عيون الأنجم لدرجات ارتقائه ، لفوائده التي شملت الورى ، وعلت الذرا ، وجمدت الافهام عند صباحها السرى" (٨) ، وقد تصرف بالحذف والتقديم والتأخير في قولهم : "عند الصباح يحمد القوم السرى" (٩) .

-
- (١) صبح الاعشى ١١ : ٢٣٠ .
 - (٢) جمهرة الأمثال ، أبو هلال العسكري ، تحقيق أحمد عبدالسلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٨م ، ١ : ٦٦ .
 - (٣) صبح الاعشى ١٣ : ٣٣٩ ، وانظر ٨ : ٣٩٨ ، ١٢ : ٩ .
 - (٤) المستقصى في أمثال العرب ، الزمخشري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٢ : ١١٥ ، وانظر مجمع الأمثال ١ : ٣٢٨ ، جمهرة الأمثال ١ : ٣٧٧ .
 - (٥) صبح الاعشى ٩ : ١٣٩ ، والمثل في مجمع الأمثال ٢ : ٢٧٥ ، جمهرة الأمثال ٢ : ٢٤١ ، أمثال العرب ٧٣ ، المستقصى ٢ : ٣٤٤ .
 - (٦) صبح الاعشى ١١ : ٣٧٣ ، وانظر ٧ : ٣٧٣ .
 - (٧) مجمع الأمثال ١ : ١٩٥ ، جمهرة الأمثال ١ : ٢٨٠ .
 - (٨) صبح الاعشى ١٢ : ٣٧١ ، وانظر ٩ : ١١ ، ١٢ .
 - (٩) مجمع الأمثال ٢ : ٣ ، جمهرة الأمثال ٢ : ٤٢ ، المستقصى ٢ : ١٦٨ .

وقال موصياً المحتسب ببعلبك : "ومن حكم في صناعة الطب بما لم يسغ في المسائل فليصرفه منها بخلفي حنين" (١) ، وقد ضمن الممثل "عاد بخلفي حنين" (٢) حذفاً بعض لفظه .

وأكثر الأمثال المأخوذة من الشعر أو النثر تكراراً في رسائلهم ، كان شطر بيت سحيم بن وشيل الرياحي (- ٥٦٠ هـ) : (الوافر)
 "أنا ابن جلا وطلاء الشنايا" (٣) . ومن ذلك قول ابن نباتة من بشارة بجلوس الملك الصالح إسماعيل عام ٧٤٣ هـ : "وينهي أن خير البشائر ما خص أولياء الدولة الشريفة وعمّ الرعايا ، وسما إلى ثغور الإسلام خبره الجلي ، فقال : أنا ابن جلا وطلاء الشنايا" (٤) .

- أثر الرسائل والخطب

أعجب كتاب عمر المماليك بالقاضي الفاضل ، وبلغ من إعجابهم به أن ابن عبد الظاهر اختار مجموعة من رسائله سمّاه "الدرر" النظيم من ترسل عبد الرحيم" ، واختار له ابن نباتة مجموعة من النصوص في كتابه "مطلع الفوائد" (٥) ، وجعل من عهده مقياساً أدبياً لمن تقدم عنه ومن تأخر (٦) . وقال ابن مكناس في رسالته التي وصف فيها فيضان النيل : "فمن ذلك ما ذكره مولانا القاضي الفاضل ، وما هو ، رحمه الله ، إلا بحر" طفق دره" (٧) ، وأشاد ابن حجر بما اخترعه الفاضل من المعاني (٨) ، وبأسلوبه (٩) .

ويظهر أثره في رسائلهم واضعاً من خلال معارضاتهم لما كتب ، يذكر محمود رزق سليم أن محيي الدين بن عبد الظاهر عارض رسالة للفاضل كتب بها إلى ديوان الخلافة

-
- (١) صبح الاعشى ١٢ : ٢٧٩ ، وانظر النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٦ .
 - (٢) مجمع الأمثال ١ : ٢٥٦ ، جمهرة الأمثال ١ : ٤٣٣ ، المستقصى ١ : ١٠٥ .
 - (٣) مجمع الأمثال ١ : ٣١ .
 - (٤) صبح الاعشى ٨ : ٣٦٤ ، وانظر ٧ : ٤٢٠ ، ١٢ : ١٣٥ ، ٢٤١ ، ٣٧٣ .
 - (٥) مطلع الفوائد : ٤١٤ - ٤٥٠ .
 - (٦) نفسه : ٨ ، ٣٨٥ ، وانظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣٧٠ .
 - (٧) انظر صبح الاعشى ١٤ : ٣٠٩ .
 - (٨) انظر شمرات الأوراق : ٢٢٣ - ٢٢٥ .
 - (٩) خزنة الأدب ٢ : ٤٣ .

ببغداد (١) ، وكان مما عارضه به رسالة " في وصف حمام الرسائل ، قال محيي الدين في مطلعها : " أردت أن أجرب الخاطر ، فأنشأت وأنا غير مخاطب أحداً بل مخاطر ، وأين الشرى من الثريا ،... ، وما كل والد يدرك شأن الوليد ، ولا كل كاتب عبد الرحيم ولا عبد الحميد " (٢) .

ويبدو أنهم تأثروا بما أنشأه الفاضل في وصف الخيل ، ويدل على ذلك قول ابن مكانس المتقدم آنفاً . كما يتضح أثره فيما كتبه كتّاب عصر المماليك في وصف القلاع والحصون ، وما من شك في أنهم وقفوا على ما كتبه الفاضل في وصف قلعة نجم (٣) ، وقد تقدم بعض ما كتبه في وصف القلاع في الفصل الثاني من هذه الدراسة .

كما يبدو تأثرهم برسالة القاضي الفاضل إلى ديوان الخلافة في بغداد بعد فتح بيت المقدس وأضحاء . قال ابن عبد الظاهر في وصف حصن : " واكتنظ من جهة الغرب نهر آخر استدار عليه كالسور وانعطف كالسوار ، وحوله من الأودية خنادق لا يعرف فيها الهلال إلا بوصفه ، ولا الشهر إلا بنصفه " (٤) ، وهو ينظر في ذلك إلى قول الفاضل يصف بيت المقدس وسورها : " فزاوِل البلد من جانب فإذا أودية عميقة ، ولجج وعرة غريفة ، وسور قد انعطف عطف السوار " (٥) .

وقال محيي الدين يصف المنجنيقات وفعلها في الاسوار : " وتقدم إليها المنجنيق فكان بين ثنايا الشرفات سواكها ، وامتدت حباله فكانه لصيد القلاع إشراكها : (٦) . وهو مأخوذ من قول الفاضل في رسالته المتقدمة : " وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عَمِيَّتْها وحبالها ، وأوتر لهم قسيَّتْها التي تضرب فلاتفارقتها سهامها ، ولا يفارق سهامها نِمالها ، فصافحت السور بأكنافه ، فإذا سهمها في

(١) عمر سلاطين المماليك ٦ : ٣٦١ .

(٢) حسن المحاضرة ٢ : ١٨٩ .

(٣) قلعة حصينة مظلة على الفرات على جبل ، وعندها جسر يعبر عليه (معجم البلدان ٤ : ٣٩١) ، وتقع الآن في شمالي سوريا على الشاطئ الغربي للفرات ، قريبة من منبج ، وبعض آثارها موجودة .

(٤) مطلع الفوائد : ٤٧٣ .

(٥) صبح الأعشى ٨ : ٢٨٦ .

(٦) مطلع الفوائد : ٤٧٧ .

شأيا شرفاتها سواك" (١) .

وقد تأثر ابن نباتة بالقول المتقدم للفاضل فقال في وصف أثر المنجنيقات في حصن : "فنصبنا عليها كل طويلة طائفة ،...، مزيلة بنكرها الجبال ، ساحرة - مع أنها من المؤمنين - حصون الكفر بالعصي والحبال" (٢) .

وتجدر الإشارة إلى اهتمامهم برسالتني ابن زيدون : الجديدة ، والهزلية ، فقد كتب شافع بن علي رسالة يناظره فيها (٣) ، وعارضه محيي الدين بن عبد الظاهر في رسالته الهزلية (٤) ، وشرحهما ابن نباتة في كتابه "شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" ، وتابعه في ذلك المصفي في شرحه المسمى "تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون" ، وكتب الأديب الشاعر الحسن بن علي بن أحمد رسالة سماها "قريض القرين" ، عارض فيها رسالة "التوابع والزوابع" لابن شهيد الأندلسي ، وهي تشتمل مثلها على نظم ونثر (٥) .

كما تأثر الكتاب بما كتبه أمثالهم من أدباء عصر المماليك ، ومن ذلك أن المصفي أنشأ مقامة سماها "رشف الرحيق في وصف الحريق" ، عارض بها مقامة ابن الوردي "صفو الرحيق في وصف الحريق" الذي وقع في دمشق عام ٧٤٠ هـ (٦) .

وقد تأثر المصفي بما قاله محيي الدين بن عبد الظاهر في فيضان النيل . قال :
"والمرجو من الله أن يزيل أذاه ، ويعيد علينا منه ما عهدناه ، فإن له الآيات
الكبيرة ، وفيه العجائب والعبير ، منها وجود الوفاء ، عند عدم الصفاء ، وبلوغ
الهرم ، إذا احتد واضطرم ، وأمتن كل فريق ، إذا قطع الطريق ، وفرح قسطن
الأوطان ، إذا كُسر وهو كما يقال : سلطان" (٧) ، إذ أخذ المصفي فقال من بشارة

(١) صبح الاعشى ٨ : ٢٨٧ .

(٢) مطلع الفوائد : ٤٩١ .

(٣) سبط محيي الدين بن عبد الظاهر ، ولد سنة ٦٤٩ هـ ، وعمل في ديوان الإنشاء ، بمصر حتى كُف بصره ، وكانت وفاته عام ٧٣٠ هـ (نكت الهميان في نكت العميان ، صلاح الدين المصفي ، وقف على طبعه الأستاذ أحمد زكي ، المطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٩ هـ : ١٦٣ - ١٦٥) .

(٤) انظر تمام المتون : ٤٠٤ .

(٥) انظر الدرر الكامنة ٢ : ٢٢ .

(٦) انظر عمر سلاطين المماليك ٥ : ٣٧٩ ، ٤٠٧ .

(٧) صبح الاعشى ١٤ : ٣١١ .

بوفاته: "والنيل له الايسات الكبر ، وفيه العجائب والعبير ، منها وجود الوفا ، عند عدم الصفا ، وبلوغ الهرم ، إذا احتد واضطرم ، وأمن كل فريق ، إذا قطع الطريق ، وفرح قطان الاوطان ، إذا كسر وهو كما يقال : سلطان ، وهو أكرم وأعذب مجتنى ، وأعظم مجتدى" (١) .

ويقف المطالع لرسائلهم على شيء من التأثر برسائل قديمة ، ومن ذلك في رسالة الناصر بن قلاوون إلى غازان بعد هزيمة المماليك عام ٦٩٩ هـ . قال مخاطباً غازان: "... بل يسأل كبراء دولته ، أمراء عساكره عن وقائع جيوشنا ، ومراتب سيوفنا من رقاب آبائه وأجداده ، وهي إلى الآن تقطر من دمائهم" (٢) ، والكاتب ينظر في ذلك إلى قول علي - عليه السلام - في رسالة إلى معاوية : "وإننا مئرقل" نحوك في جحفل من المهاجرين والانتصار والتابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم... ، قد صحبتهم ذريّة بدريّة ، وسيوف هاشميّة ، قد علمت مواقع نصالها في أخيك وخالك ، وجدك وأهلك" (٣) .

ومن تأثرهم بأقوال الإمام علي - عليه السلام - ما جاء في رسالة للشهاب الحلبي في معرض حديثه عن الصحابة بعد الصلاة على الرسول الكريم . قال: "ومنهم من طلع لامع نور الإيمان من أفقه... وطلّق الدنيا تورعاً عنها" (٤) ، وهو من قول الإمام: "هيهات ! غري غيري ، لاحاجة لي فيك ، قد طلقك شلاشاً لارجعة فيها" (٥) .

ومن تقليد بكفالة السلطنة بالشام قال الشهاب محمود يصف المقلّد: "وعجّنا عوده فكان ليّنّاً على الاولياء ، فظاً على الاعداء" (٦) ، وقال الصفدي في توقيع في حق المولّي: "فما أردناك إلا لأنك سهم" خرج من كنانة" (٧) ، وهما ينظران في ذلك إلى قول الحجاج في خطبته المشهورة: "إن أمير المؤمنين عبد الملك نشر

(١) حسن المحاضرة ٢ : ٢١٧ - ٢١٨ .

(٢) النجوم الزاهرة ٨ : ١٤٤ .

(٣) صبح الاعشى ١ : ٢٧٧ .

(٤) صبح الاعشى ١١ : ٢٧٤ ، وانظر ١٣ : ٣٨٠ .

(٥) نهج البلاغة بشرح محمد عبده ، دار الاندلس ، بيروت ١٩٨٣م ، ٤ : ٥٧٧ .

(٦) صبح الاعشى ١٢ : ٩ ، وانظر ١٦ : .

(٧) نفسه ١٢ : ٨٨ .

كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها عوداً عوداً ، فوجدني أمراً عوداً ، وأشدها
مكسراً" (١) .

ويدل تأثرهم بهؤلاء الكتاب والخطباء على إعجابهم بهم ، وببلاغتهم فيما
كتبوه أو قالوه ، وهو ينسجم مع مانعرفه عن انتشار الطريقة الفاضلية في
الكتابة ، وينسق مع ما قيل في بلاغة الإمام عليه السلام ، وروعة خطبة الحجاج .

الصورة الفنية في الرسالة

يعد التخيل من أبرز الوسائل التي يلجأ إليها الأدباء لتكوين صور فنية معبرة (١) ، وهو " من أهم الفنون البلاغية ؛ لأنه يتصل بالإبداع والخلق الفني" (٢) ، كما رأى الدكتور أحمد مطلوب ، وقد تكون الصورة الكلامية الفنية أجمل من تلك التي تبدعها ريشة المصور ؛ إذ إن لم مكوناتها ، وتمثيلها أمام عين البصيرة ماثلة بأشكالها وألوانها ، وحركة عناصرها ، وعبقها ، وظلالها تضي عليها طابعاً مميزاً ، يحتاج ذوقاً رفيعاً ، وقدرة على الربط بين المتفرقات ، وإعمالاً للفكر لطيفاً للتوصل إلى جمالياتها .

وتجدر الإشارة إلى أن العناية في الرسائل بالتصوير والتخيل تقربها من القاصد الشعرية ؛ إذ تتقارب الأساليب في القصيدة والرسالة بسبب انحراف اللغة في كليهما عن أداء وظيفة الإدراك والمعرفة ، وهي وظيفة عادية ، إلى وظيفة التاثر والتأثير الانفعالية (٣) ، كما يرى الدكتور صبحي البستاني ؛ إذ يخرج تركيب الصورة عن المنطق اللغوي المعجمي ، أو لنقل : إن لها منطقها اللغوي الخاص .

وقد ورد مصطلح الصورة عند البلاغيين العرب ، مما يدل على أصالة هذا الفن في الأدب العربي ، فهي عند قدامة الشكل المحسوس الذي يلجأ إليه الأديب لتجسيد الأفكار المجردة الحاملة في الذهن (٤) ، وأكد أبو هلال العسكري دورها في تجميل المعنى أو تهجينه بغض النظر عن قيمته ، ولتوضيح دورها في الكتابة الأدبية الجميلة ، طلب من الكاتب إذا ما ابتكر معنى أن " لا يتكلم فيما ابتكره على فضيلة ابتكاره إياه ، ولا يغيره ابتداعه له ، فيسهل نفسه في تهجين صورته ، فيلذهب حسنّه ، ويظلم نورّه" (٥) .

-
- (١) الأسلوب ، د. أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٦م : ١٩٧-١٩٥ .
 (٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. أحمد مطلوب ، منشورات المجمع العلمي العراقي ١٩٨٦م ، ٢ : ١١٧ .
 (٣) الصورة الشعرية في الكتابة الفنية ، د. صبحي البستاني ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ١٩٨٦م : ٣٢ .
 (٤) نقد الشعر : ١٤ .
 (٥) الصناعتين : ٧٥ ، وانظر : ٦٣ ، ١٤٤ ، ٢٤٦ .

وقد أولى عبد القاهر الجرجاني هذا الفن عناية كبيرة ، واستعمل مصطلح الصورة للدلالة على ما قاله قدامة ، ودل على أن العرب استخدمته في كلامها ، قال : "سنا أول من اخترع وبدأ باستعمال لفظة صورة ، فقد كانت معروفة في كلام العلماء" (١) ، وهو يشير إلى رأي الجاحظ بأن الشعر صياغة ، وضرب من التصوير (٢) .

كما تحدث عبد القاهر عن أثر التمثيل في الكتابة الأدبية ، ويقترب التمثيل في ذهنه بالتعبير بالصورة ، فيقرر بدوره "السحري في تأليف المتباينين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب" ، ولعل تلك القدرة السحرية ناتجة عن كونه "يريك الحياة في الجماد ، ويريك التثام الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين" (٣) .

وقد عد عبد القاهر "الصورة الأدبية أساساً للحسن ، وهي التي يتوافر فيها حسن النظم" ، وجعلها مقياساً لجودة العمل الأدبي ، إذ إن حسنها يدل على استكمال نظم اللفاظ في موقعها (٤) ، وقد ربط بينها وبين فنون البيان العربي ، فذهب إلى أن التشبيه والتمثيل والاستعارة "أصول كثيرة كان جل محاسن الكلام ؛ وإن لم نقل كلها ، متفرعة عنها ، وراجعة إليها ، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في تصرفاتها" (٥) .

ويبدو أن النقاد بعد عبد القاهر درجوا على هذا الربط ، لكن الاهتمام بالصورة أخذ في التناقص حتى أصبح التصوير هدفاً من أهداف الأدباء (٦) ، ويمكن القول بأن النقاد بدأوا يميلون إلى الصور الغريبة ، ولاعتقد أن الغرابة التي رغبوا فيها سوى الجذبة والاختراع ، والزيادة على صور القدماء . ترى ذلك في

(١) دلائل الإعجاز : ٣٣٠ .

(٢) (كتاب) الحيوان للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٤م ، ٣ : ١٣٢ ، وانظر دلائل الإعجاز : ٣٣٠ .

(٣) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق أحمد مصطفى المراغي ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٤٨م ، ٨٣ - ٨٤ .

(٤) دلائل الإعجاز : ١٦٧ - ١٦٩ ، انظر الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د. جابر عصفور ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٣م ، ٢٨٢ ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣١١ .

(٥) أسرار البلاغة : ٣٣ ، وانظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣١٢ .

(٦) تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ٥٣٥ ، ٥٣٦ .

"غرائب التشبيهات" لابن ظافر الأزدی (-٦١٣ هـ) ، ولعل قمتهم إلى غرائب الصور يشير إلى ذوق عصرهم (١) ، ويكشف عن تنافس الأدباء في اختراع الصور الغريبة ، ولعل ذلك يفسر ناحية من نواحي ميلهم إلى تقليد بعضهم في الصور .

وذهب ابن الأثير إلى أن علم البيان بفنونه المتمثلة في التشبيه والتمثيل والاستعارة يهدف إلى "إثبات الغرض" (٢) المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر عياناً" (٣) ، وهو يتابع في ذلك عبد القاهر الذي ركز على دورها في التوضيح ، إذ "ترى بها الجماد حياءً ناطقاً ، والأعجم فميحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جليئة" ، وعلى ذلك فهي تقتضي تكثيف العبارة ووجازتها ، غير أن أهم خصائصها هو التجسيم الذي ترى به المعاني الذهنية جسوماً ماثلة للعيون (٤) .

ورأى ابن حجة أن المراد من التشبيه غرابة أسلوبه ، وسلامة اختراعه ، وعد تشبيهات القدماء "مع عقادة التركيب ، لم تسفر عن بديع معنى إلا ما قل ونذر" (٥) ، الأمر الذي يشير إلى "تغير في الذوق وهو تغير انعكس أثره في الأدب" (٦) ، في عصر المماليك .

ولم يكن التصوير مقتصرًا على بعض موضوعات الرسائل دون بعضها الآخر ، أو على نمط دون نمط ، بل كانت العناية به جليئة في الرسائل بدرجات متفاوتة ، فكان من أبرز الخصائص الفنية للرسائل الجهادية التي صورت المعارك بين المماليك وأعدائهم ، وقد تقدم في الفصل الثاني من هذه الدراسة أن الكتاب اهتموا بتصوير

(١) انظر غرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات ، تحقيق د. محمد زغلول سلام ، ود. مصطفى الجاوييني ، دار المعارف بمصر ١٩٧١ : ٢٣ - ٢٤ م ، ١ ، تاريخ النقد الأدبي : ٥٩٠ .

(٢) الغرض هو الهدف من صياغة الكلام ، وهو المعنى الثاني ، أما المعنى الأول فهو مدلول التركيب ، وقد أطلق عبد القاهر على الغرض : معنى المعنى ، وجعل مداره على الكناية والاستعارة والتمثيل (انظر : دلائل الإعجاز : ٢٠٢-٢٠٣ ، نهاية الإيجاز : ٢٨ ، منهاج البلغاء : ١٤ ، ٢٣ ، ٢٠٦) .

(٣) المثل السائر ١ : ١١١ ، ٢ : ١٢٣-١٢٤ ، العمدة ١ : ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، وانظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣١٢ .

(٤) أسرار البلاغة : ٥٠ ، ٥١ ، وانظر الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٧٥ ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣١٢ .

(٥) خزانة الأدب ١ : ٣٨٥ ، ٣٨٧ .

(٦) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣١٣ .

المجاهدين ، والاعداء وحصونهم قبل الفتح وبعده ، وعنوا بتصوير أحداث المعارك وما انجلت عنه من قتل وأسر في صفوف أعدائهم ، وصوروا الأسلحة والأساليب القتالية من حصار وزحف ، وهي صور شارك في رسم ملامحها الفنون البيانية كالتشبيه والاستعارة ، والبديعية كالطباق والمقابلة .

يصور الشهاب محمود غيرة المسلمين على الدين ، وحميتهم له ، وهجرهم الملاذ وإعراضهم عن أعراض الدنيا بقوله : "والنفوس قد أضربت الحمية للدين نار غضبها ، وعداها حر الإشفاق على شغور المسلمين عن برد الشغور وطيب شنبها" (١) .

وترى براعتهم في تصوير منعة الحصون وعلوها الشاهق ، وقد استعملوا لذلك صوراً متراكمة كلها يدل على الارتفاع ، كما في تصوير الشهاب محمود لحصن المرقب . قال : "قد تقترط بالنجوم ، وتقترط بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ورسا أصله في التخوم . تخال الشمس إذا علت أنها تتنقل في أبراجه ، ويظن من سها إلى السها أنه ذبالة في سراج" (٢) .

وقد أبدع محيي الدين بن عبد الظاهر في تصوير منعة طرابلس على الفتح ، فهي عادة حسناء تعرف حسناتها فتدل على الملوك ، وتتمنّع وتسابى ، وسيّدة كشيخة الخدم ، وجلبابها البحر وخمارها السحاب . قال : "كلما مرّت شمخت بأنفها ، وتأنقت في تحسين منارة منازلها ، وتزيين ريحانها وعمفها ، ومرّت وهي لا تغازل ملكاء بطرفها ، وكلما تقادم عهدها تكثرت بالافواج ، والامواج من بين يديها ومن خلفها ، إذ البحر لها جلباب ، والسحاب لها خمار" (٣) .

ومن صورهم الجميلة تلك التي تبرز الأضرار التي تلحقها الحصون التي احتلها الصليبيون بما يحيط بها من بلاد المسلمين ، وابتهاال المسلمين وشكواهم إلى الله لرفع ذلك الأذى عنهم ، وغرضهم في ذلك الإعلاء من شأن الفتح والفتح . صور محيي الدين أذى حصن الكراد بقوله : "كم شكت منه حماة تشني بنكرها قلة الإنصاف ،

(١) صبح الأعشى ٨ : ٣٩٥ .

(٢) نفسه ٨ : ٣٩٦ .

(٣) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٥٤ .

وكم خافته معرفة وما من معرفة خاف ، وما زالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه ، تشكو من جور جواره تلك الحصون والمياصي ، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثاره ، مع عصيانها ، وناهيك بمدمع العاصي" (١) .

كما اهتموا بتصوير أثر المجانيق في الأسوار والحصون . قال محيي الدين مهديا بيمند بعد فتح أنطاكية : "فتعترف كنائسك وأسوارك أن المنجنقيات تسلم عليها إلى حين الاجتماع عن قريب" (٢) .

وترى في تصويرهم الأسلحة صورا بديعة قوامها التشخيص والإحياء ، وقد استخدموا تلك الصور في التهديد أحيانا ، فالسيوف جوعى وعطشى إلى أجساد الأعداء ودمائهم ، وهي ضيفة لافكاك منه ، ولاسبيل إلى قضاء حاجته من الطعام والشراب . قال محيي الدين مهديا بيمند بعد فتح عكا وأنطاكية : "وتعلم أجساد فرسانك أن السيوف تقول : إنها عن الضيافة لاتغيب ، لأن أهل عكا ما سدوا لها جوعا ، ولاقضت من ريها بدمائهم الوطير" (٣) .

ومن ذلك تصوير الشهاب محمود لها في رسالة التهديد إلى ملك سيس الأرمني بعد انتصار المماليك على المغول عام ٧٠٢هـ ، وقد جاءت صورتها في رسالته رهيبة . قال يهده بعد أن طلب منه الإقلاع عن مساعدة المغول والدخول في طاعة الناصر : "والسيوف الآن مصغية إلى جوابه ، لتكف" إن أبصر سبيل الرشاد ، أو تتعوض برؤوس حماه وكماته عن الأعماد إن أصر على العناد" (٤) .

ويلسقط ابن العجمي في رسالته بفتح الشقيف على الأسلحة أفعال الجيش المسلم من مخادعة ، وتغيظ وقلة صبر على الانتظار لخوض المعركة ، فتراها تتحيز الفرسة ، وتجتشم بلاحراك خداعا للأعداء لاخذهم على حين غرة ، لكن لهفتها وشوقها لخوض المعركة يثيران فيها الحمية فتري كلا منها يتميز غيظا ، وهو يريد بذلك الجيش المسلم ، ويهدف إلى تحسين صورته ، وتموير شوقه إلى الجهاد . قال :

(١) صبح الاعشى ٧ : ٣٨٠ .

(٢) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٤٤٦ ، وانظر ٢ : ٣٤١ .

(٣) نفسه ٢ : ٤٤٦ .

(٤) صبح الاعشى ٨ : ٢٦٢ .

"وأقامت السمهرية ترمقهم بزرق عيونها ، والمشرقية تتناقص لاستنامتهم بتغميض جفونها ، وبقيت السنة السناجق في أفواه غلغلها صامته ، لسماع الزحافات مصغية ، وكواسر الاساد في آجامها من السمهرية مثقعية ، وصارت السهام في كنانها تقلق ، وأخشاب المجانيق لتفترق أجزاءها تفترق" (١) .

ويمور محيي الدين خوف المغول في فتح قيسارية الروم تصويراً جميلاً ، فقال بأنهم بعد أن رأوا الجيش المسلم : "رجعوا إلى ماكانوا عقدوا من العزائم فحلوا ، ومثقت في ايديهم ورأوا أنهم قد ضلوا" (٢) ، كما صور خوف بيمند ملك طرابلس بعد إغارة الظاهر بيبرس عليها بقوله : "هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من السموت ، وإذا سمعت صوتاً قلت فزعاً : علي هذا الصوت" (٣) . وقد استمد ذلك من التصوير القرآني ، وغير خاف ما في كلا الصورتين من سخرية وتهكم من العدو .

وبرعوا في تصوير الأسرى والقتلى من الأعداء بعد المعارك ، ومن ذلك تصوير الشهاب محمود لقتلى المغول في رسالة الناصر إلى غازان بعد عام ٧٠٢ هـ وقد انتصر عليه . قال : "فلو رأيت أيها الملك عساكرك : إما ذليلاً أسيراً ، أو جريحاً عفيراً ، (وكان يوماً على الكافرين عسيراً) (٤) ، يوم تضاعف فيه المقتول والمأسور ، وتصاحب فيه الذئاب والنسور ، وعاد أصحابك طعاماً للذئاب... " ، وصور الأسرى وهم يقادون وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة بقوله : "أما الرجال ففي أعناقهم الحبال والسلاسل والأغلال ، فعادت مغلك كالكلاب في أيدي أسود الغاب" (٥) ، وإذا كانت السخرية غرضاً من تصوير الأعداء بعد المعركة ، فقد جمع إليها الشهاب الحلبي غرض المديح لجيش المسلمين في صورته الأخيرة .

وترى في رسائلهم المبشرة بالفتوح صوراً جميلة لآثر الفتوح في النفوس ، إذ بها تتهلل الوجوه ، ويزول عنها ما ران عليها من كمدٍ وحسرة وألم ، فتعم البشائر ، ويبسم الدهر بعد طول إدبار . قال ابن العطار في فتح المرقب : "وأذهب

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٧٨ .

(٢) صبح الأعشى ١٤ : ١٦٤ .

(٣) نفسه ٨ : ٣٠٥ .

(٤) سورة الفرقان : ٢٦ .

(٥) كنز الدرر ٩ : ١٢١ ، ١٢٢ ، وانظر تاريخ ابن الفرات ٧ : ٢٢٥ .

ظهر الإيمان منها رجس النجس . وافترست عن فتحها ثغور الأيام" (١) . ومسوره الشهاب محمود مقابلاً بين حال الإسلام وحال الكفر بقوله : "قد أسفر عن الفتح المبين صباحه ، والتأييد وقد طار به مُحَلِّقُ التباشير فخفق في الخافقين جناحه ، والإسلام وقد وطئ هامة الكفر بمقدمه ،...، فألف أن يكون الشرك من خدَمَه" (٢) .

ويزداد الاهتمام بالصورة الفنية في الرسائل الأدبية ، وبخاصة وصف الطبيعة ، والطرديات ، والشتويات ، فقد أضفوا على مظاهر الطبيعة من خيالهم ما يجسمها ويشخصها ، فبشوا فيها الحياة والحركة ، وخلعوا عليها المشاعر الإنسانية ، فترى الغصون ترقص ، والأوراق تتناجى ، والورود تتهاشم خجلى ، وإذا بالنيل ملك جبار متسلط يغزو بجيش مائه البر فيدمر الثمار ، ويجوس خلال الديار ، وإذا بالبواء زائر يُملئ منه الشواء ، فيهرع الجميع هاربين إذا حل ، وتطمئن نفوسهم إذا رحل .

ومن الصور الفنية الجميلة للطبيعة تلك التي رسمها الشهاب الحلبي لوقت الغروب ، مستوحياً العلاقات الاجتماعية بين الناس ، مسقطاً على الشمس والورود مشاعر البشر ، فجعل الشمس كمن يقضي أنفاسه الأخيرة ، وعناصر الطبيعة تبكيها وتأسى لفراقها . قال يصف شمس الأصيل من طردية له : " فبرزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها ، وتسير من الأفق الغربي إلى موضع رمسها ، وتغازل عيون النور بمقلبة أرمدة ، وتنظر إلى صفحات الورد نظير المريض إلى وجه العود ، فكأنها كئيب أضى من الفراق على فرق ، أو عليل يقضي بين صحبه بقايا مدة الرمح ، وقد اخضلت عيون النور لوداعها ، وهم الروض بخلق خلته المموجة بذهب شعاعها" (٣) .

وترى في وصف النيل صورتين مختلفتين كل الاختلاف ، وهما صورتاه في حالتي وفائه وفيضائه ، والنيل مصدر نعمة وخير وعطاء ، به تتعلق الأمانى ، وبوفائه تتحقق الآمال ، لكنه يصبح نقمة عندما يزيد عن حده ، ولذلك أوحى لهم بصور تمثل

(١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٢٥٦ .

(٢) نفسه ٢ : ٣٨٢ - ٣٨٣ ، وانظر ٤ : ٢٤٥ ، صبح الأعشى ٨ : ٣٩٥ .

(٣) صبح الأعشى ١٤ : ٣٢٩ ، وانظر : ٣٣٠ .

خوفهم ورجاءهم ، وفرحهم وشقاءهم . صوّره أحد الكتّاب بجيش الخير الاتي لدفع عدو الجذب ، وهي صورة بديعة تعبر عن عمق الإحساس بالحاجة إلى مائثه ، ويرابط نفسي متأصل في النفوس ، فقال : "نشر على الخافقين لواء خصبه ، وأتى بعسكر ربه لقتل المحل وجذبه ، وبينما هو في القاع إذ بلغ بإذن ربه ، فجعل من الذهب لباسه ، وعطر بالشذا أنفاسه ، ولم يترك خلال قطر إلا جاءه فجاسه ،...، وغازلته الشمس فكسته حمرة أصيلها لما غدت بمشاهدتها له ماسة" (١) ، والكتّاب هنا لا يصور حال النيل المروية وحسب ، بل يمتد بخياله ليرسم ما ستصبح عليه حال الأرض من حوله بفعل ريّه ، حيث تتفتح الأزهار ، ويعبق عبيرها ، ويصور ماءه وقد انعكست عليه أشعة الشمس بكساءٍ من ذهب ، ويجعله معشوقاً تغارله العاشقة فيتورد وجهه خجلاً ، وهي لاشك صورة جميلة شارك في رسم ملامحها فنون البيان وعناصر البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وفيها جانب ديني ، وقد أضفى جناس الحروف عليها صبغة جمالية أخرى ، تلك هي الموسيقيّة الناتجة عن جرس حروف المظير .

ويموّره ابن نباتة بالضيف الذي يكثرُرم على مضيفه فيحضر قراه معه ، وبالراعي الذي يتجافى جنباه عن المضاجع سهرًا على راحة رعيّته وأمنهم ، ولاتفوته العناية بمن غاب منهم فيدخر له نصيبًا . قال يصوره بالرسول الهادي : "كم ورد إلى البلاد ضيفًا ومعه القرى ، وكم أتى مرسلاً بمعجز آيات الخصب إلى أهل القرى ، فهو جواد خلع الرسن ، ساهر في مصالح الخلق وقد ملاّ الأمن أجنانهم بالوسن ، جامع لأهل مصر من سقياه ومرعاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن ، كم بات سبر مقياسه يشمل بظله الغائبين والحاضرين" (٢) .

أما صورته حين يفيض ، فعكس ذلك ، فتراه أسداً هموراً كاسراً ، أو ملكاً ظالماً مؤيداً بالنمر ، وقد أبدع فخر الدين بن مكانس حين صور فيضانه عام ٧٨٤ م وما أحدثه من دمار قاثلاً : "واحمرّت عينه على الناس فذاقهم الموت الأحمر" (٣) ، وهي صورة مستمدة من البيئة الشعبية ، إذ يعبر الناس حتى الآن باحمرار العين عن الغضب والوقاحة .

(١) صبح الاعشى ٨ : ٣٣٤ .

(٢) نفسه ١٤ : ٢٦٧ .

(٣) نفسه ١٤ : ٣٠٤ ، وانظر ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

وتفويض الشتويات بالصور الحركية ، غير أن الحركة فيها ناتجة عن تتابع الجمل الفعلية التي يتخللها شيء من الفنون البيانية . قال كاتب من عجلون يصف سيلاً بها عام ٧٢٨ هـ متأثراً بالتصوير القرآني: "أرسل الله تعالى ريحاً عاصفة ، فأثارت سحباً واكفة ، في خلالها بروق خاطفة ، ليس لما جاءت به من دون الله كاشفة ، فطبقت الوهاد وجلت الأكام ، وحيّمت على مدينة عجلون وما قاربها من أرض الشام ، ثم أرخت عزاليها كأفواه القرب ، حتى خيّل لمن رآها أن الوعد الحق قد اقترب" (١) .

ووصف ابن الوردي سقوط الثلج بدمشق عام ٧٤٥ هـ وصفا جميلاً ، صوّغ فيه الرعود مؤتورة شارت لتثار ، واستلّت سيوفاً بروقها على الناس حتى سقط في أيديهم ، وأدار حواراً بين الأرض التي أظهرت الشكوى لبرد الثلج ، وبين الثلج الذي جعل نفسه قطناً . قال : "قلّ تجلّسد الأرض على جلّيده ظهراً وبطناً ، فقال لها : أتبردين وقد طرح قوس السحاب على جبينك قطناً ،... كم زمجرت الرعود على الناس كأنها تطالبهم بثأر قتيل وما قتلوه ، وقعقت عليهم لجم صواهلها حتى تلوا (أتى أمر الله فلا تستعجلوه)" (٢) .

بيد أن الحركة في الطرديّات أوضح ؛ ذلك لأنها تصور مشاهد حركية ، من مطاردة ، إلى قنص ، إلى استباق ، إلى كمون ، إلى قفول من رحلة الصيد ، غير أن الميل إلى الإطناب في وصف الطيور والحيوانات كان يغلب على تلك الصور ، مما يفقد الرسالة شيئاً من قيمتها الفنية فيما يتصل بتصوير مناظر الصيد والطرود .

ومن ذلك وصف الشهاب الحلبي لسرب من الطيور في رحلة صيد . قال : "فسرت علينا من الطير عصابة ، أظلتنا من أجنحتها سحابة ، من كل طائر أقلع يرتاد مرتعاً ، فوجد ولكن مصرعاً ، وأسفّ يبتغي ماءً جمّاً فوجد ولكن السم منقعا ، وحلّق في الفضاء يبغي ملعباً ، فبات هو أشياعه سجّداً لمحاريب القسي ورؤسها" (٣) .

(١) تذكرة النبيه ٢ : ١٨٩ .

(٢) ديوان ابن الوردي : ١٨٤ ، والاية من سورة النمل : ١ .

(٣) صبح الأعشى ١٤ : ٣٣٣ .

وتكاد صورهم في وصف الطيور تفوق صورهم في صيدها جمالا ؛ ترى ذلك في تركيزهم على تصويرها مستعيرين ما تصل إليه أفكارهم ويعينهم عليه محفوظهم . قال الشهاب يصف أحد الطيور ويصور صيده : "وتلأه كئي" نقبي اللباس ، مشتعل شيب الرأس ، كأنه في عرائن شيبه ، ولاوبله ، كبير أناس ، إن أسفا في طيرانه فغمام ، وإن خفق بجناحه فقلع له بيد النسيم زمام ، ذو عيبة كالجراب ، ومنقار كالحراب ، ولون يغمر في الدجى كالنجم ويخدع في الضحى كالسراب ، ظاهر الهرم ، كأنما يخبر عن عاد ، ويحدث عن إرم ، ... ، فشنى الثاني عنان بندقه إليه ، وتوخاه فيما بين رأسه وعنقه ، فخر كمارد انقض عليه نجم من أفقه ، فتلغاه الكبير بالتكبير ، واختطفه قبل مصافحة الماء من وجه الغدير" (١) .

ويسترعي النظر تلك الروح القصصية الماثلة في رسائل المفاخرات والمناظرات ، مثل اجتماع أربعة الفصول في مجلس ، وقيام كل منها خطيبا ، يبرز محاسنه ، ويتورع خجلا أن يغمر في جانب خصومه كما في مفاخرة ابن حبيب بينها (٢) ، وترى السيف يشور غاضبا ، ويصيح مهددا متوعدا ، ويقف معتدلا يتلو آي القرآن ، ويئنشد الأشعار ، وينافح ويجادل ، وترى القلم يحتال ، ويروغ عندما يضيق عليه الخناق ، وترتعد فرائمه فيطلب النجاة برأسه فيتلطف في مقالته ويتعطف ، وما من شك في أن هذه الصور القائمة على التشخيص متأثرة بالحكايات والأساطير من حيث إدارة الحديث على لسان غير الإنسان .

ويغلب على صور رسائل المناظرات والمفاخرات قيامها على الطباق والمقابلة ، وليس ذلك مقتصرا عليها وحدها ، بل تشترك معها الرسائل الجهادية في ذلك ، وعلة ذلك هي أن موضوع الرسالة يفرض المطابقة والمقابلة في كلتا الحالين .

وقد يلجأ إلى الطباق والمقابلة الاستعارة ، فتكتسب الصورة جمالا ودقة في ملامحها ، ومن ذلك قول ابن الوردي ، في مفاخرته بين السيف والقلم ، على لسان القلم مخاطبا السيف : "أنا آلة الحياة وأنت آلة الموت ، ما لنت إلا بعد

(١) صبح الاعشى ١٤ : ٣٣٤ .

(٢) نسيم الصبا : ١٦ - ٢٠ .

دخول السعير ، وما حذرت إلا عن ذنب كبير ، أنت تنفع في العمر ساعة ، وأنا أفني العمر في الطاعة . أنت للرهب وأنا للرغب" . فكان رد السيف على ذلك صورا أخرى ، المقابلة فيها جليّة ، والتأثر بالقرآن الكريم فيها واضح ، وهي صور استعارية . قال السيف : " طالما جعلت بعض فراخي بصدك وهي السكين ، فأصبحت من النفثات في عقدك يا مسكين ، فأخلت من الحشو جثمانك ، وشقت أنفك وقطعت لسانك ، ويحك ! إن كنت للديوان فحاسبه مهموم ، أو للإنشاء فخادم لمخدوم ، أو للبلخ فساخر مذموم" (١) .

وترى في رسائل النقد والهجاء صورا غاية في السخرية ، يجمع الكاتب فيها ما تسعفه به قريحته وثقافته من صور ينكل من خلالها بخصمه ، ويذيقه مرارة كلمه ، ومن ذلك هجاء محيي الدين بن عبد الظاهر لأحد حاسديه ، الطريف في صوره قيامها على التشبيه الضمني إشارة ومقابلة . قال : " وإن كان عرضه لا يصلح للهجو ، ولا يماوي ثوب ثلجه أجرة الرفو ، فقد يجرب السيف في خف البعير ، ويستحل نكاح المرأة البريئة بالعبد الصغير ، وتصفى الفضة الخلاص بالرصاص ، وتضمحل عقود الجواهر بالسحاب ، وتساغ اللقمة المحللة بمحرم الشراب ، ومن لم يجد ماءً طهوراً تيمماً" (٢) .

وقد تلمّز صورة الذم بصورة الفخر ، إذ يلجأ الكاتب إلى بيان الحد الفاصل بينه وبين المهجو ، والمقابلة الناتجة عن اقتران فخره بنفسه بهجاء خصمه ، تزيد من قيمة الصورة فنياً ، كما تزيد درجة السخرية فيها من الخصم ، وقد أبدع محيي الدين في رسالته المتقدمة آنفاً حيث حشد في فخره وهجائه معرفته الدينية والأدبية ، إذ استعار كثيراً من الصور القرآنية والشعرية لذلك الغرض . قال : " فإن كان ما قلته حلماً ؛ فإن من الاضلام ما يروع ، أو وهماً ؛ فإن من الاوهام ما يخامر الضلوع ، أو جهلاً ؛ فإن المنديل الرطب لا يضره كونه حطباً في موطنه ، والتبر لا يضره كونه تراباً في معدنه ، ولا يضر الزند الواري قدح القادح ، كما أنه لا يضر النجم الساري نبح النابح ، ولا عليّ إذا قلت ملاماً ،

(١) ديوانه : ٨١ ، ٨٢ ، وانظر خزائن الادب ١ : ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

(٢) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون : ٤٠٥ ، ٤١٢ .

أن أقول : سلاما ، والفخر في أن أحلم إذا قلت اهتضاما ... ، وعندك أنك تاكل لحمي ميتا ، وعندني أنني لا أستحل أن آكل لك لقمة ولا زيتا" (١) .

ويمكن القول بأن الصورة الفنية كانت مركزة في هذه الموضوعات أكثر من غيرها ، وهي لاشك قائمة في الرسائل الإخوانية والديوانية غير ماذكرت ، وبخاصة ما اشتمل منها على الوصف مثل رسائل الهدايا ، والتشويق ، والتعازي ، وتجدر الإشارة إلى أن طبيعة الموضوعات كان لها تحكم في درجة العناية بالصورة الفنية ، فالمهادنات والأيثمان والمفاسخات يجب أن تخلو من التصوير والمحسنات كما قال ابن الصيرفي (٢) ، وطابع الجدل والإقناع في رسائل الاوامر والنواهي وإبطال المفاسد يكاد يطمس الصورة ، والأسلوب المباشر فيها وفي مراسيم تحديد أوضاع أهل الذمة يقتضي ندرة الخيال ، والتصوير ، وترى الصورة في المبايعات والعهود والتقاليد والتفاويف والتواقيع في ثنايا مدح المولى ، وهي صور متكررة في العادة ، جامدة لا تشير في النفس ما تشير صورة المعارك والوصف والمناظرات .

وصور أولي الأمر والموظفين هي صور مثالية ، فنائب السلطنة هو من "عقده به لرعايا لواء عدل يجلى بإشراقه ليل الظلم الخالك ، وعول عليه من جميل السيرة فيما تعمر به البلاد ، وتأمين به الرعايا ، وتطمئن به المسالك ... ، ويتوقع كل كمي" من عظماء الشرك أن رأسه سيكون غمده ، مع سياسة تشتمل على الرعايا ظلالها الممتدة ، وسيرة تضع الأشياء مواضعها" (٣) .

أما شيخ المتصوفة فهو الذي "ذكرت صفاته الجميلة فكانت للعين قرة ، ونبتت عناصر فضائله فكانت شراب الذين صفت قلوبهم من كدرها ، وأمطرت سحاب علومه لإلهية الدارة من سماء الحقيقة فسالت أودية بقدرها ، وظهرت للجنة أنوار شمس معارفه عند التجلي على المريد" (٤) .

(١) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون : ٤٠٧ .

(٢) قانون ديوان الرسائل : ١٢٩ .

(٣) صبح الأعشى ١٢ : ٢٠٣ ، وانظر ١١ : ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٢ : ٨ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢١٠ ، ٢١٣ .

(٤) نفسه ١٢ : ٤١٣ ، وانظر : ٤١٠ .

إن كثيراً من هذه الصور التي تفيض بها الرسائل الديوانية ، وبخاصة رسائل التولية والتعيين ، مبالغ فيها إلى حد كبير ، والغرض واضح من ورائها ، إذ هو التزيين والمدح لموظفي الدولة ؛ لأن تحسين صورهم من تحسين صورة السلطان ، والقبح فيهم قدح فيه .

وتتسم الصورة الفنية في الرسائل الإخوانية بالمبالغة والغرابة في كثير من الأحيان ، ويبدو أن السبب وراء ذلك هو سعي الكتاب إلى نيل إعجاب مكاتبيهم ، وكسب ودهم ، ومن ذلك تلك الصورة الجميلة التي رسمها ابن نباتة لفرخته بوصول رسالة من الصفدي إليه ، وقد استمد صورته من التعبير القرآني . قال : "وضع الطرس على وجه حظّه الأعمى فارتد بصيراً" ، وجمع بين ذلك الخاطر واللفظ والقلب ، وإنما جمع ممكنيناً ويتمياً وأسيراً" (١) .

وأبدع الشهاب الحلبي في تصوير شوقه إلى صديق له ، وحرقته عندما علم بأنه سيرحل مفارقاً ، والطريف فيها أنه استعار قمة هاجر وإسماعيل عليه السلام وضمّنها في وصف لوعته وفرقه . قال : "ما أم طفل قذفها الزمن العنيد ، في بعض البيد ، في أرض موحشة المسالك ، قليلة السالك ، قد لمع سرابها ، وتوقدت هضابها ، وصرخ بومها ، ونفر ظليمها ، وحضر سمومها ، وغاب نسيمها ، فلما خافت على ولدها من الظمّ الهلاك ، أجلسته إلى جنب الكشيب هناك ، ثم ذهبت في طلب الماء للغلام ، لئلا يقضي عليه الاثوام ، فانتهى بها المسير ، إلى روضة وغدير ، وآثار مطي بوارك ، تدل على أن الطريق هنالك ، فعادت إلى ولدها مسرعة ، وكسل أعضائها إليه عيون متطلعة ، فلما شارفت جنب الكشيب ، رأت ولدها في فم الذيب :

(الطويل)

بأكثر مني حسرة وتلهفاً وأعظم مني حرقه وتوجعاً" (٢) .

إن الصورة المتقدمة طريفة من حيث قيامها على تراكم صور جزئية ، بحيث تؤدي صورة كلية في نهاية المطاف ، وليس فيها من فنون البيان سوى اليسير .

(١) الوافي بالوفيات ١ : ٣٢٠ .

(٢) خزانة الأدب ٢ : ٣٨٦ .

وفي رسائل التعازي تقوم الصورة الفنية على قصد تخفيف المصيبة عن المعزى ، وتكريم المعزى فيه بتحسين صورته ، ويجعل الكاتب من المصيبة نازلة ألمست بكل شيء ، ومن ذلك تعزية ابن الوردي بالقاضي ابن البارزي ، حيث بث الحياة في العلوم وشخصها ، فتراها تحزن وتشتالم . وتبكي الفقيد ، والمحاسن تصبح أهله فتعزى فيه ، وتحل المأساة بالإحسان إذ فقد صاحبه ، وتعم الأقلام والمصنفات ، فهذه تنكس رؤوسها حزناً ، وتلك تلبس الحداد حسرةً عليه . قال : "فالعلوم تبكيه والمحاسن تلعزى فيه ، والبير ينشعاه ، والحكم يتفداه ، والأقلام تمشي على الرؤوس لفقده ، والمصنفات تلبس حداد المياد من بعده" (١) .

يتضح مما تقدم أن كتاب مصر والشام في عصر المماليك الأول سلخوا إلى التصوير كل سبيل ، فبنوا صورهم على المجاز والاستعارة ، والتشبيه والتمثيل ، والطباق والمقابلة ، ومراكمة الصور الجزئية لرسم صورة كلية ، وتتابع الجمل الفعلية لتعبر عن سياق حركي .

لكن المدقق يرى أن الصورة الحية الحركية غلبت على تصويرهم ، وهي قائمة على عنصري : التشخيص والإحياء العائدين إلى البناء المجازي ، وذلك بإلباس المعاني صوراً حية ، وخلع الصفات الإنسانية على المنعوتات ، وبث الحياة والحركة والمشاعر فيها .

وتجدر الإشارة إلى أن ما تشيره الصورة البيانية المجازية في النفس والعقل يتعدى أثر صورة التشبيه ، ويمكن القول بأن الصور المجازية أجمل من صورة التشبيه ، وقد نلمح الفرق بينهما من خلال الموازنة بين قولين لابن الصائغ الحنفي في وصف قوس البندق . قال يشبهها : "من كل قوس هي في العين كالحاجب ، أو النون التي أجادها الكاتب" ، وقال : "تدور الطائر عند الرمي وتذيبه ، وتثين أنيناً أولى به من تضييبه" (٢) . وأوضح منه في وصف الشهاب الحلبي لها . قال : "قسي كالغصون في ترَفِها وتلوينها" ، وقال يشخصها ، ويبدو أنه متأثر بالشنفرى في

(١) تنتمة المختصر ٢ : ٣٢١ .

(٢) صبح الاعشى ١٤ : ٣٢٤ .

وصف القوس : "إن انتفضيت لرمي أنت أنينا بدا لها أنه أحق به من تصيبه * ، ولعل
ذاك الصوت زجر" لبندقها أن يبطئ في سيره ، أو يتخطى الغرض إلى غيره ، أو وحشه
لمفارقة أفلاذ كبدها ، أو أسفه على خروج بنيتها من يدها ، على أنها طالما
نبذت بنيتها بالعراء ، وشغعت لخصمها التحذير بالإغراء" (١) .

وقد تميزت الصورة البيانية بتوزيع لوني ، وما من شك في أن الألوان تضي على
الصورة مسحة من الجمال ، وشيئا من تحديد الملامح ، وتوضيح المعالم . غير أن
العناية بالألوان في رسائلهم ضئيلة فيما وقفت عليه ، على الرغم من اهتمامهم
بالزخرفة اللفظية ، وانتشار الزخرفة الفنية في فنونهم المعمارية ، ونسج
الملابس .

وتتركز العناية بالألوان في وصف الخيول والطيور ، وممن عني بذلك شهاب
الدين الطيبي : لإقباله على وصفها . قال يصف فرسا : "ومن أشقر وشاه البرق
بلهبه ، وغشاه الأصيل بذهبه ، يتوجس ما لديه بدقيقتين ، وينفض وفريته عن
عقيقتين ، وينزل عذار لجامه من سالفتيه على شقيقتين ، له من الراح لونها ، ومن
الرياح لينها ، إن جرى فبرق خفق ، وإن أسرع فهلال على شفق" (٢) .

وقال الشهاب يصف طائرا أبيض اللون : "كأنه برق كرع في غسق ، أو صبح عطف
على بقية الدجى عطف النسق ، تحسبه في أسداف المنى غرة نجح ، وتخاله تحت أذيال
الدجى ظلة صبح ، عليه من البياض حلة" وقار ، وله كرة من عنبر فوق منقار من
قار" ، وقال في آخر : "قد جمع صفرة البهار إلى حمرة الشقيق ، كأنما رقم فيه
النهار بالليل ، أو نقش فيه العاج بالابنوس" (٣) .

واستخدم علاء الدين بن عبد الظاهر الألوان فيما أجراه على لسان السيف لتحسين
صورته في فخره على الرمح . قال : "كم جاء النصر الأبيض لما أسلت النجيع

* في الأصل : إن انتفضيت لرمي بدا لها أنها أحق به ممن تصيبه .
(١) صبح الأعشى ١٤ : ٣٣١ .
(٢) نفسه ٨ : ٣٨٩ ، وانظر : ٣٨٨ ، ٣٩٠ - ٣٩١ .
(٣) نفسه ١٤ : ٣٣٣ ، ٣٣٥ .

الأحمر ، وكم اجتثني شمر التأييد من خرق حديدي الأخضر" (١) .

كما استخدمها ابن أبي حجلة في وصفه للغلمان الذين مروا به فسلموا لبسه .
قال يصف أول الغلمان : "عليه دم العشاق منثور ، وشعر تزهو من صفاء صفاته بدور
النحور ، ومبتسم لو تبسم في الليل صير الظلام نهارا ،...، خضر الثياب
كالغصن في ورق ، ومن سواد القبيح كالبدن طالع في غسق" (٢) .

- مصادر الصورة الفنية

لقد تنوعت مصادر الصورة في الرسائل وتعددت ، والمطالع للصور المتقدمة يقف
على ذلك ويتبينه بوضوح . وتنوع مصادر التصوير ينم عن سعة خيال الكاتب
وقدرتهم على الربط بين أفكارهم ومعانيهم وموضوعاتهم وبين ما يستلهمون خيالهم
فيه ، وما توحى لهم بيئتهم وثقافتهم .

وتعود صورهم إلى مصادر ثلاثة رئيسية ، وهي : البيئة ، والثقافة والصراع مع
الاعداء ، وليس شرطاً أن تستوحى الصورة من أحد هذه المصادر فقط ، إذ قد
يستمدّها الكاتب من مصدرين معاً ، وقد تشترك ثلاثة المصادر في تشكيلها ، وذلك
في الحالة التي يتوحد فيها أثر الثقافة والبيئة والإحساس بالصراع العقائدي مع
الغزاة ، فيمزج تأثيرها جميعاً في تشكيل صورة واحدة ، ومن أمثلة ذلك قول ابن
العجمي يصور حصار حصن صفد المحكم قبل فتحها على يد الظاهر بيبرس: "زحفنا إليه
من كل جانب حتى مرنا كالنطاق بخصره ، ودرنا به حتى عدنا كاللشام بشعره ،
وأمطرنا عليه من السهام وبلاء سحت ذيول سحبه المتراكمة ، وأجرينا حوله من
الحديد بحراً غرقه أمواجه المتلاطمة ، وضائقناه حتى لو قصد وفد النسيم
وصولا إليه لما تخلص ، أو رام ظل الشمس أن يعود عليه فيئاً لعجز ؛ لاخذنا
عليه أن يتقلص" (٣) ، إذ اشترك في تكوينها البيئة الاجتماعية وعادات الناس في

(١) السماح في أخبار الرماح ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق د. أنور أبوسويلم
ود. ماجد الجعافرة ، منشور في مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ع ٣٧
١٩٨٩م : ٢٤٨ .

(٢) رسالة ابن أبي حجلة : ٥ - ٦ .

(٣) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٤١ .

لباسهم من انتطاق ، والتشام ، والبيئة الطبيعية : كالمطر والسحاب والبحر والامواج والنسيم والشمس والفيء ، وأسماء الأسلحة : كالسهام والحديد الذي هو مرادف للمسيوف والرماح ، وقد أفاد الكاتب من قول المتنبي (١) : (الطويل)

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم

كما يتضح تأثره بقول ابن القيسراني في فتح إنساب (٢) على يد نور السدين زنكي (٣) : (البسيط)

والنبل كالوبل هطال وليس له سوى القسي وأيدٍ فوقها سحابة

ويبدو أنه كان ينظر إلى قوله تعالى : " وإن يروا كيمثلاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم " (٤) ، وقوله عز وجل من قائل : " ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً " (٥) .

ويقف المطالع في الصور التي أوّردتها آنفاً على أن البيئة الطبيعية كانت من أهم المصادر التي أمدتهم بصورهم ، وكان النيل والحدائق والجبال الشاهقة ، والمشاهد اللطيفة كالغروب ، من أكثر مظاهر البيئة إمداداً لهم . وتعود كثير من صورهم إلى البيئة الاجتماعية والعبادات والتقاليد التي تعارف عليها أهل عصرهم ، ومن ذلك تصويرهم الحصون المنيعة بالمسيدات المترفات اللواتي يملكن الخدم ، والحسان اللواتي يعرفن جمالهن فيتدللن ويتمنعن ، ويلبسن الخمار والجلباب ، وصورة الحجارة تدخل الحصون فتدفع لها المستأثر بغير استئذان ، وصورة القلق الذي يسببه الانتظار ، وقلة الصبر عليه ، وكذلك صورة الفراق وما يسببه من حزن وبكاء ، وصورة المريض في رفقته الأخير إذ يودعه عوداً .

وقد تستمد الصورة من لغة المجتمع ، غير أنها قليلة جداً فيما وقفت عليه ، ومن ذلك تصوير فيضان النيل في رسالة ابن مكنس وما سببه للناس من خراب ودمار بأنه احمرت عينيه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر كما تقدم ، وقولهم فيه :

(١) ديوانه : ٢ : ٢٧٦ .

(٢) حصن إناب : حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب (ياقوت ١ : ٢٥٨) .

(٣) كتاب الروضتين ١ : ١٥٣ .

(٤) سورة الطور : ٤٤ .

(٥) سورة الفرقان : ٤٥ .

"كال فطفت" ، وهي مستمدة من تعامل الباشعيين ، وقد تكون مستمدة من قوله تعالى: (ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون) (١) .

وتجد في بعض الصور جانباً عسكرياً مثل تصوير النيل حين وفائيه بجيش خير جاء لقتل الجذب والمحل ، ومثل صورة الحصار والمعركة ، وقد تقدم ذكر أمثلة عليها ، كما توجد بعض الصور المستمدة من الجانب السياسي في المجتمع . ومن ذلك صورتان متناقضتان لوليّ الأمر نجدهما في وصف النيل ، فمرة تراه حاكماً عادلاً ساهراً في مصالح العباد والبلاد ، ومرة أخرى تراه جاشراً يختال متكبراً ، ظالماً لرعيته ، ويعاملهم بقسوة ، وما من شك في أن هاتين الصورتين أوحى بهما للكاتب الواقع السياسي في عصر المماليك ، فترى حاكماً سيئ عطاءه كالنيل ، وترى آخر قاسياً غليظ القلب تنفض من حوله رعيته .

وتعد ثقافة الكاتب مصدراً مهماً لصوره ، وغير خفي أن ما تقدم من صور يشير إلى ذلك بوضوح ، ويكفي النظر في الاثرين الأدبي والديني في رسائلهم لنكون من ذلك على بينة .

- وظيفة الصورة الفنية

يعد التصوير الأدبي وسيلة رائعة للتعبير عن المعاني ، إذ يتوصل الكاتب من خلاله إلى التعبير عن المعنى المقصود إليه بدقة بالغة ، وذلك بما يسوقه من ربط المعنى الذهني المجرد الذي يعبر عنه باللغة المباشرة بغيره مما يدل عليه في سياق مدلولاته ، ويضيف إليه ظلالاً موحية ، تؤكد المعنى وتزيده قوة للتأثير في القارئ أو السامع ، ويفتضي ذلك أن تكون الصورة مناسبة تماماً لموضوع الرسالة ، وأن تؤدي غرضاً آخر غير مدلولها المباشر ، وذلك بما تحمله من إحياء ، وتلك هي وظيفتها .

وتختلف وظيفة الصورة باختلاف موضوع الرسالة ، واختلاف الغرض من إنشائها ، وتباين السياق الذي ترد فيه . ومن أهم وظائفها في رسائل هذا العصر : التزيين ،

(١) سورة المطففين : ١ ، ٢ .

والتقبيح ، واستشارة الهمم ، والسخرية والتهكم ، والتهديد ، والمبالغة ، وقد أجاد الكتاب في توظيف صورهم ، فجاءت ناهضة بالمعاني المنوطة بها لأعبثاء عليها . وترى التزيين في تصويرهم جيش المسلمين والمناظر الطبيعية قبل غروب الشمس وانعكاس أشعتها على صفحة الماء ، وفي وصف الغلمان ، والخيول ، والطيور ، وأدوات الصيد ، والأشجار والفواكه ، وتراه في تصويرهم ولاية الأمر ، إذ رسموا لهم صورة مثالية كما تقدم آنفاً .

أما التقبيح فتراه مثلاً في ذم ابن الوردي للقاضي الرياحي ، وذم ابن عبد الظاهر لأحد حاسديه .

واختتمت الرسائل الجهادية باستشارة الهمم والتحريض على الجهاد ضد الغزاة ، واستعمل الكتاب للوصول إلى ذلك طرقاً كثيرة ، كان منها تصوير الثواب الذي ينتظر المجاهدين ، واستحضار نماذج للجهاد عند المسلمين الأوائل ، وتبصير المسلمين بأعدائهم الذين ركز في تصويرهم على كفرهم وحقدهم وهمجيتهم وأفعالهم الشنيعة ، وقد تقدم الحديث عن هذا في الفصل الثاني من هذا البحث .

واستخدم الكتاب الصورة الفنية في السخرية من الأعداء الغزاة ، ومن ذلك وصفهم لما أسفرت عنه المعارك من قتل وجرح وأسر في صفوف الأعداء في الرسائل التي وجهوها إليهم ، مثل رسالتي بيبرس إلى بيمند وملك قبرص ، ورسالة الناصر إلى غازان بعد معركة مرج الصفر ، وترى ذلك التهكم في البشارات بالنصر ، إذ تؤدي الصورة المرسومة لما حل بالأعداء إلى إشاعة الفرح والبهجة ، والطمأنينة التي طالما افتقدتها النفوس .

وكان التهديد هدفاً مهماً في صور الرسائل التي رد فيها المماليك على رسائل التهديد من أعدائهم المغول والصليبيين ، كما ترى التهديد في الرسائل التي وجهها المماليك لأحلاف أعدائهم ، وبخاصة أولئك الذين تحالفوا مع المغول غير مرة .

أما المبالغة فهي عنصر مهم في الصور جميعها ، وتراها في وصفهم للحصون ومنعتها أمام الفاتحين ، وفي وصف جيش الأعداء قبل المعركة ، واللوعة والاسى لموت صديق أو التشوق له ، والفرح والسرور بمولود لصاحب .

الخاتمة

من أهم النتائج التي خرجت بها هذه الدراسة نهوض الرسائل بأنواعها: الديوانية، والإخوانية، والأدبية بقضايا المسلمين فرادى وجماعة، فقد واكبت الرسائل الأحداث الجسام التي ألمت بالمجتمع في مصر والشام في عصر المماليك الأول، وعبرت عن مشاعر الأمة وأحلامها، ووحدتها في الوقوف أمام الغزاة ومدهم ودحرهم، وصورت فهم المسلمين لطبيعة الصراع مع أعدائهم، ويقتضتهم وعمق تفاعلهم وتأثيرهم في الأحداث من حولهم.

كما صورت الرسائل مواقف سلاطين المماليك من مختلف القضايا السياسية والدينية والاجتماعية، كما أبرزت نهوضهم بواجب الجهاد وحرصهم على بلاد المسلمين، وتوظيفهم لبعض الأفكار الدينية لترسيخ حكمهم، وأن إعادتهم لنظام الخلافة كان أحد اللفتات الذكية منهم لجمع المسلمين وحشد طاقاتهم في صراعهم الدامي مع أعدائهم، وترسيخ فكرة مشروعية سلطتهم، كما تصور تعصبهم للنهج التقليدي في فهم الإسلام، ورفضهم لمحاولات التجديد، وسعيهم لوأد كل محاولة من هذا القبيل، وتبين متابعتهم لأسلافهم الأيوبيين في محاربة الشيعة، وموقفهم من أهل الذمة الذي استندوا فيه إلى الشروط العمرية في الأوقات الموجبة لذلك. وعلى الرغم من قسوة المماليك وكثرة نزاعاتهم على السلطة فإن الرسائل تظهر مدى عنايتهم بالفقراء والرعية في أوقات الشدة، وسعيهم للإبقاء على المجتمع نقياً خالياً من مظاهر الفساد والبدع.

وفي هذا السياق تبرز مشاركة الكتاب في ذلك، إذ عبرت الرسائل الإخوانية عن علاقاتهم بعضهم ببعض، وهي علاقات حسنة في الأغلب الأعم، غير أن في بعضها شيئاً من التزلف والتملق، كما دل بعضها على جراءة بعض الكتاب، واهتمامهم بإصلاح الأحوال، مثل رسالة ابن تيمية إلى الناصر لحثه على الجهاد، ورسالة ابن الوردي في ذم "القاضي الرياحي".

ومن النتائج المهمة التي أبرزتها هذه الدراسة أن انسياق الكتاب وراء البديع والافتباس والحل لم يكن عبثاً، ولا جموداً في التفكير، ولا عجزاً عن

الابتكار ، بل كان عائداً إلى عوامل كثيرة يقع في أولها أن الكتابة أصبحت صنعة يفتنن لها ، ويحدد أسلوبها ، ويؤلف في تعليمها المؤلفات والدساتير ، وكانت الحروب التي شهدتها الفترة مؤثراً فاعلاً في التوجيه نحو ثقافة خاصة قوامها القرآن الكريم والحديث الشريف والأدب ، فبرز التأثر بذلك في رسائل الكتّاب ، كما عللت الدراسة انتشار بعض فنون البديع مثل الطباق والمقابلة ، وربطتها بالموضوعات ، مثل موضوع الجهاد والمفاخرات والمناظرات . وخلصت إلى أن الحكم على الأدب في عصر من العصور لا يجوز أن ينطلق من مقاييس عصر آخر ، فكل عصر ذوقه ومقاييسه .

وبيّنت الدراسة أن أثر البيئة الجغرافية في الرسائل طفيف لا يكاد يذكر في هذا العصر ، ويتركز في الموضوعات لا في الأساليب ، فاختتمت بيئة مصر بالنيل مثلاً ووصفه ، بينما اختتمت بيئة الشام بالشتويات مثل وصف الثلج والأمطار والسيول ، ودحضت الفكرة القائلة بأن مصر اختتمت بفن التورية ، وأن الشام اختتمت بالجناس ، وأعادت ذلك إلى أن المؤشرات السياسية : الداخلية والخارجية ، والثقافية ، والاجتماعية كانت واحدة ، وبذلك تضاءلت الفروق في الأسلوب بين كاتب وآخر في البيئة الواحدة ، وأصبحت السمات الأسلوبية لكاتب ما لا تختلف كثيراً عن سمات أسلوب كاتب غيره .

ويمكن القول بأن جلّ الآراء التي قللت من قيمة الرسائل في عصر المماليك الأول لم تكن عن تعمق واستقصاء ، بل كانت سطحية ، ويمكن إعادة بعضها إلى موقف أصحابها من المماليك أنفسهم ، كما يمكن إعادة بعضها إلى تلقف أصحابها ما وسم به المستشرقون ومن تابعهم هذا العصر .

المصادر والمراجع

- أحكام أهل الذمة ، ابن قيم الجوزية ، تحقيق د. صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٣ م .
- أحكام صنعة الكلام ، الكلاعي ، تحقيق محمد رضوان الداية ، بيروت ١٩٦٦ م .
- أدب الحروب الصليبية ، د. عبداللطيف حمزة ، دار الفكر ، القاهرة ط ٢ .
- الأدب العربي في العصر المملوكي ، د. محمد كامل الفقي ، دار الموقف العربي ، القاهرة ١٩٨٤ م .
- الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، د. جودت الركابي ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨٣ م .
- الأدب في بلاد الشام ، د. عمر موسى باشا ، دار الفكر الحديث ، دمشق ١٩٦٧ م .
- الأدب في العصر الايوبي ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ١٩٨٣ م .
- الأدب في العصر المملوكي ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف القاهرة ١٩٧١ م .
- أسرار البلاغة ، عبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق أحمد مصطفى المراغي ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٤٨ م ، وتحقيق ه. ريتز ، استانبول ١٩٥٤ م .
- الأسلوب ، د. أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ م .
- الإشارة إلى من نال الوزارة ، ابن الصيرفي ، تحقيق عبدالله مخلص ، منشورات المعهد الفرنسي ، القاهرة ١٩٢٤ م .
- اصطلاحات الصوفية ، عبدالرزاق الكاشاني ، تحقيق عبداللطيف محمد العبد ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٧ م .
- الاصمعيات ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاکر و عبدالسلام هارون ، بيروت ط ٥ .
- الأصول الأدبية في صبح الاعشى ، د. مصطفى الشكعة ، دار الاحد ، بيروت ١٩٨٣ م .
- الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ابن شداد ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٣ م .
- الاعلام ، خير الدين الزركلي ، طبعة كوستاتوماس ، القاهرة ١٩٥٤ م .
- الافضليات ، ابن الصيرفي ، تحقيق د. وليد قصاب ، و د. عبدالعزيز المانع ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٢ م .
- اللفاظ الكتابية ، الهذاني ، دارالكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٠ م .

- الالتقاء الإسلامية في التاريخ والوثائق والاشارة ، حسن الباشا ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧م .
- أمثال العرب ، المفضل الضبي ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الرائد العربي ، بيروت ١٤٠١ هـ .
- إنشاء الغمر ببناء العمر ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق د. حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٩م .
- البحث الأدبي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٧٦م .
- بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ابن إياس ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤م .
- البداية والنهاية ، ابن كثير ، تحقيق علي شيري ، دار إحياء التراث الإسلامي ، بيروت ١٩٨٨م ج ١٢ - ج ١٤ .
- البديع ، ابن المعتز ، طبعة كراتشكوفسكي ، لندن ١٩٣٥م .
- البديع في نقد الشعر ، أسامة بن منقذ ، تحقيق د. أحمد بدوي ود. حامد عبدالمجيد ، مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٠م .
- البرهان في وجوه البيان ، إسحق بن وهب الكاتب ، تحقيق د. أحمد مطلوب ، ود. خديجة السديشي ، بغداد ١٩٧٤م .
- بلدانية فلسطين المحتلة ، أنيس صايغ ، بيروت ١٩٦٨م .
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، محمود شكري الآلوسي ، القاهرة ١٩٢٤م .
- البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٤٨م .
- بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، د. عبد الجليل عبدالمهدي ، دار البشير ، عمان ١٩٨٩م .
- تاريخ الأدب العربي - العصر المملوكي ، د. عمر موسى باشا ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ١٩٨٩م .
- تاريخ الخلفاء ، السيوطي ، دار الفكر ، بيروت (بت) .
- تاريخ الدول والملوك ، ابن الطرقات ، تحقيق قسطنطين زريق وآخرين ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ١٩٤٢م .
- تاريخ مختصر الدول ، ابن العبري ، دار المسيرة ، بيروت ط ١ .

- تاريخ النقد الادبي عند العرب ، د. إحصان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٨٣ م .
- تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجريين، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر (بت) .
- تمة المختصر في أخبار البشر ، ابن الوردي ، المطبعة الحيدرية النجف الاشرف ١٩٦٩ م .
- تحرير التحرير ، ابن أبي الإصبع ، تحقيق د. حنفي محمد شرف ، القاهرة ١٣٨٣ هـ .
- تحفة النظائر في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (رحلة ابن بطوطة) ، ابن بطوطة، تحقيق د. علي منتصر الكتّاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٥ م .
- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، ابن حبيب الطلي ، تحقيق د. محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٢ م .
- الترمذ وأبن عبد الظاهر ، محمد بن الخوجة ، منشورات اتحاد الكتاب ، تونس ١٩٥٦ م .
- تشریف الايام والعمور في سيرة الملك المنصور ، ابن عبد الظاهر ، تحقيق د. مراد كامل ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، الجمهورية العربية المتحدة ، (بت) .
- تطور الاساليب النثرية في الادب العربي ، د. أنيس المقدسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٢ م .
- التعريف بالمصطلح الشريف ، ابن فضل الله العمري ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٨ م .
- التعريف بمصطلحات صبح الاعشى ، محمد قنديل البقلي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة (بت) .
- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون ، ابن أبيك الصفدي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٩ م .
- ثمرات الاوراق في المحاضرات ، ابن حجة الحموي ، تقديم د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣ م .
- جامع التواريخ في تاريخ المغول ، رشيد الدين الهمذاني ، تعريب محمد نشات ومحمد هنداوي وفؤاد الصياد ، الادارة العامة للثقافة ، القاهرة ١٩٦٠ م .

- جمهرة الأمثال ، أبو هلال العسكري ، تحقيق أحمد عبد السلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٨ م .
- جمهرة اللغة ، ابن دريد ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن (بت) .
- جواهر الالفاظ ، قدامة بن جعفر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٢ م .
- الجوهر الخمين في سير الملوك والسلطين ، ابن دقماق ، تحقيق محمد كمال الدين علي ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٥ م .
- جوهر الكنز ، ابن الأثير الطيبي ، تحقيق د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف بالإسكندرية (بت) .
- ابن حجة الحموي : شاعراً وناقداً ، د. محمود الريدائي ، دار قتيبة ، دمشق ١٩٨٢ م .
- حقائق السحر في دقائق الشعر ، رشيد الدين الوطواط ، تحقيق د. إبراهيم الشواربي ، القاهرة ١٩٤٥ م .
- حسن التوسل إلى صناعة التوسل ، شهاب الدين الحلبي ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، دار الرشيد ، بغداد ١٩٨٠ م .
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، السيوطي ، مكتبة مطفى فهمي الكتبي ، القاهرة ١٩٠٣ م .
- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، د. أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٧ م .
- (كتاب) الحيوان للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٦ م .
- خزائن الأدب وغاية الأرب ، ابن حجة الحموي ، تقديم وشرح عصام شعيتو ، دار الهلال ، بيروت ١٩٨٧ م .
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٦ م .
- ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ط ٢ .
- ديوان بشار بن برد ، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، الشركة التونسية ، والشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ١٩٧٦ م .

- ديوان أبي تمام ، أبوتمام ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.
- ديوان حسان بن ثابت ، ضبط وشرح عبدالرحمن البرقوقي ، دار الاندلس ، بيزوت ١٩٧٨م .
- ديوان ابن حمديس ، تصحيح وتقديم د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت (بست) .
- ديوان الخنساء ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٦٠م .
- ديوان ابن الرومي ، ابن الرومي ، تحقيق د. حسين نصار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٤٧م .
- ديوان زهير بن أبي سلمى ، تحقيق وشرح كرم البستاني ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٦٠م .
- ديوان عمرو بن معد يكرب ، تحقيق هاشم الطعنان ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد (بست) .
- ديوان الفرزدق ، طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٦٦م .
- ديوان كثير عزة ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧١م .
- ديوان كعب بن زهير بشرح المكري ، الدار القومية للطباعة ، القاهرة ١٩٦٥م .
- ديوان أبي الطيب المتنبي ، المتنبي ، تحقيق عبدالوهاب عزام ، القاهرة ١٩٤٤م.
- ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ط ٢ .
- ديوان أبي نواس ، تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٨٢م .
- ديوان ابن الوردي ، ابن الوردي ، تحقيق د. أحمد فوزي الهيب ، دار القلم ، الكويت ١٩٨٦م .
- ذيل مرآة الزمان ، قطب الدين اليونيني ، دائرة المعارف العثمانية ، حيد آباد الدكن ١٩٥٤ - ١٩٦١م .
- الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى العصر الأموي ، غانم جواد رضا ، مطبعة أسعد ، بغداد ط ١ .
- رسالة ابن تيمية إلى الملك الناصر ، ابن تيمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، بيروت ١٩٧٦م .

- الرسالة العذراء ، إبراهيم بن المدبر ، تحقيق د. زكي مبارك ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣١ م .
- رسالة في وصف دمشق ، ابن أبي حجلة ، ميكروفيلم رقم (١٢٧) بمكتبة الجامعة الاردنية .
- روضة المحبتين ونزهة المشتاقين ، ابن قيّم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣ م .
- (كتاب) الروضتين في أخبار الدولتين ، أبو شامة المقدسي ، دار الجيل ، بيروت (بت) .
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، محيي الدين بن عبد الظاهر ، تحقيق عبدالعزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦ م .
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك ، خليل بن شاهين الظاهري ، اعتنى بتصحيحه بولس راويس ، باريس ١٨٩٤ م .
- سر الفصاحة ، ابن منان الخفاجي ، تحقيق عبد المتعال المعيدي ، مطبعة محمد صبيح ، القاهرة ١٩٥٣ م .
- السفن الإسلامية على حروف المعجم ، درويش النخيلي ، دار المعارف بمصر ١٩٧٩ م .
- السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده ، د. حياة ناصر الحجّي ، مكتبة الفلاح ، الكويت ١٩٨٣ م .
- السلوك لمعرفة دول الملوك ، المقرئزي ج ١ - ج ٣ ، تحقيق محمد مصطفى زيسادة ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ م .
- السماح في أخبار الرماح ، السيوطي ، تحقيق د. أنور أبوسويلم و د. مساجد الجعافرة ، منشورات مجمع اللغة العربية (المجلة ع ٣٧ ١٩٨٩ م) .
- ابن مناء الملك ومشكلة العقم والابتكار ، د. عبدالعزيز الالهواني ، مكتبة الانجلومصرية ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- سنن ابن ماجه ، ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، المكتبة العلمية ، بيروت (بت) .
- سنن النعماني بشرح السيوطي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (بت) .

- شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٥١م .
- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، دار الثقافة ، بيروت (بث) .
- صبح الاعشى في صناعة الإنشا ، القلقشندي ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧م .
- الصبغ البديعي في اللغة العربية ، أحمد موسى ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٩م .
- صحيح البخاري بشرح الكرمانلي ، البخاري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٨١م .
- صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٢٩م .
- صدى الغزو المليبي في شعر ابن القيمراني ، د. محمود إبراهيم ، مكتبة الأقصى، عمان ١٩٧١م .
- (كتاب) الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٢م .
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د. جابر عصفور ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٣م .
- الصورة الفنية في الكتابة الشعرية ، د. صبحي البستاني ، دار الفكر اللبناني، بيروت ١٩٨٦م .
- الضوء اللمع لأهل القرن التاسع ، السخاوي ، مكتبة حسام الدين القدسي ، القاهرة ١٣٥٣ هـ .
- الطالع السعيد بجامع أسماء نجباء السعيد ، الألفوي ، تحقيق د. سعد محمد حسن ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦م .
- طبقات الشافعية ، الأسنوي ، تحقيق د. عبد الله الجبوري ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٩٧٠م .
- العسكرية الإسلامية وقادتها العظام ، بهاء الدين محمد أسعد ، مكتبة المنار ، عمان ١٩٨١م .

- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، محمود رزق سليم ، مكتبة
الاداب ، القاهرة ج ٥ : ١٩٥٦ ، ج ٦ ١٩٦٢ .
- العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت (بـت) .
- العمدة في محاسن الشعر ونقده ، ابن رشق القيرواني ، تحقيق محمد محيي الدين
عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٥ م .
- عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوي ، تحقيق د. طه الحاجري و د. محمد زغلول
سلام ، القاهرة ١٩٥٦ م .
- غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات ، ابن ظاهر الأزدي ، تحقيق د. محمد
زغلول سلام ، و د. مصطفى الجاويني ، دار المعارف بمصر ١٩٧١ م .
- فتاوى ابن تيمية ، ابن تيمية ، مطبعة كردستان العلمية ، القاهرة ١٣٢٩ هـ .
- الفروسية ، ابن قيم الجوزية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٧ م .
- الفن ومذاهبه في النثر العربي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر
١٩٨٠ م .
- فوات الوفيات ، ابن شاعر الكتبي ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ،
بيروت (بـت) .
- قانون ديوان الرسائل ، ابن الميرفي ، مطبعة الواعظ بمصر ١٩٠٥ م .
- قطوف الاغانى ، تحقيق كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت (بـت) .
- قوانين الدواوين ، الاسعد بن مماتي ، تحقيق عزيز سوريال ، مطبعة مصر ،
القاهرة ١٩٤٣ م .
- كنز الدرر وجامع الغرر ، ابن أبيك الدواداري ، تحقيق هانس روبرت رويمر ،
مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- لسان العرب ، ابن منظور ، طبعة دار صادر ، بيروت (بـت) .
- لوعة الشاكي ودمعة الباكي ، ابن أبيك الصفدي ، مطبعة الجوائب بالاستانة
١٢٩٢ هـ .
- مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، القلقشندي ، تحقيق عبدالمستار فراج ، وزارة
الإرشاد والإنباء ، الكويت ١٩٦٤ م .

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأشير ، تحقيق د. أحمد الحوفي و د. بدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٩ م .
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، د. سعيد عاشور ، دار النهضة ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- مجمع الأمثال ، الميداني ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار القلم ، بيروت (بت) .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، علي بن أبي بكر الهيثمي ، مكتبة حسام الدين القدسي ، القاهرة ١٣٥٣ هـ .
- المختصر في أخبار البشر ، أبو الفداء ، دار المعرفة ، بيروت (بت) .
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ابن فضل الله العمري ، تحقيق دوروتيا كرافولسكي ، المركز الإسلامي للبحوث ، بيروت ، ١٩٨٦ م .
- المستقصى في أمثال العرب ، الزمخشري ، دار الكتب العلمية ، بيروت (بت) .
- مؤسند الاجناد في آلات الجهاد ومختصر في فضل الجهاد ، بدر الدين ابن جماعة ، تحقيق أسامة النقشبندي ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد ١٩٨٣ م .
- مؤسند الإمام أحمد بن حنبل ، دار صادر ، بيروت (١٩) .
- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، د. سعيد عاشور ، دار النهضة العربية ، بيروت (بت) .
- مطالع البدور في منازل المرور ، علاء الدين الغزولي ، مطبعة الإدارة الوطنية ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .
- مطلع الفوائد ومجمع الفرائد ، ابن نباتة المصري ، تحقيق د. عمر موسى باشا ، منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٢ م .
- المعالم الأثرية في البلاد العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الشركة المصرية للطباعة ، القاهرة ١٩٧٢ م .
- معالم الكتابة ومفانم الإصابة ، ابن شيك القرشي ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، بيروت ١٩٨٨ م .

- معاناة ومعايير من جمال في طائفة من القصائد الجاهلية والمخضمة ، د. هاشم بياضي ، الفجر للطباعة والنشر . ١٩٩٠م .
- معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، طبعة دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٨٤م .
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. أحمد مطلوب ، منشورات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٨٦م .
- معيد النعم ومبيد النقم ، تاج الدين السبكي ، تحقيق محمد علي النجار وآخرين ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٤٨م .
- مفتاح العلوم ، السكاكي ، ضبط وشرح نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣م .
- مقدمة ابن خلدون ، ابن خلدون ، تحقيق د. علي عبدالواحد واهي ، القاهرة ١٩٦٠م (٤ج) .
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، تحقيق د. محمد الحبيب بن الخوجة ، تونس ١٩٦٦م .
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، ابن تغري بردي ، تحقيق د. محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٤م .
- المهلهل بن ربيعة : حياته وشعره ، نافع بن منجل بن شاهين الراجحي ، رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة الجامعة الاردنية ، أعدت بكلية الآداب في الجامعة المستنصرية ١٩٨٦م .
- الموازنة بين الطائيين ، الامدي ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر (بت) .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (خطط المقرئزي) ، المقرئزي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة (بت) . (ج ١ ، ج ٢) .
- الموطأ ، مالك بن أنس ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٨٥م .
- النشر العربي في القرن الرابع الهجري ، د. زكي مبارك ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٤م .

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ابن تغري بردي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩م .
- نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ، موسى بن محمد اليوسفي ، تحقيق أحمد حطيط ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٦م .
- نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ، علي بن داود ، تحقيق د. حسن حبشي ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٠م .
- نسيم الصبا ، ابن حبيب الطيبي ، تصحيح محمود العلاف ١٢٨٩ هـ .
- نغمرة الخائر على المثل السائر ، ابن أبيك الصفي ، تحقيق محمد علي سلطاني ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧١م .
- النقد الادبي في العصر المملوكي ، د. عبده عبدالعزيز قلقيله ، مكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ١٩٧٢م .
- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ١٩٧٨م .
- نكت الهميان في نكت العميان ، ابن أبيك الصفي ، وقف على طبعه الاستاذ أحمد زكي ، المطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٩ هـ .
- نهاية الارب في فنون الادب ، النويري ، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية (بنت) .
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، فخرالدين الرازي ، القاهرة ١٣١٧ هـ .
- نهج البلاغة ، الإمام علي بن أبي طالب ، بشرح محمد عبده ، دار الاندلس ، بيروت ١٩٨٣م .
- النهج السديد والدرر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، ابن أبي الفاضل ، طبعة باريس ١٩٣٢م .
- النيل في الادب المصري ، د. نعمات أحمد فؤاد ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢م .
- الوافي بالوفيات ، ابن أبيك الصفي :

ج١ تحقيق هلموت ريتز ، فيسبادن ١٩٦٢م .

ج٢ تحقيق س. ديدرinx ، فيسبادن ١٩٧٤م .

ج٣ تحقيق س. ديدرinx ، دمشق ١٩٥٣م .

ج٧ تحقيق د. إحصان عباس ، فيسبادن ١٩٦٩م .

ج٩ تحقيق فان إس ، فيسبادن ١٩٧٤م .

- وثائق الحروب الملبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ، د. محمد حمادة ،

مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٩م .

- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، القاضي الجرجاني ، تحقيق محمد أبو الفضل

إبراهيم ، وعلي البجاوي ، القاهرة ط ٣ .

- الوشي المرقوم في حل المنظوم ، ضياء الدين بن الاثير ، تحقيق د. جميل سعيد ،

مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٨٩م .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
- مقدمة	ج
- التمهيد - ديوان الإنشاء	١
- شقافة الكاتب	٦
- الفصل الاول - الرسالة الفنية : دراسة موضوعية.....	١٣ - ٩٧
- مفهوم الرسالة الفنية	١٢
- الرسالة الديوانية	١٦ - ٥٢
* الرسالة الديوانية والحياة السياسية	١٦
* الرسالة الديوانية والحياة الدينية	٢٨
* الرسالة الديوانية والحياة الاجتماعية	٣٨
- الرسالة الإخوانية	٥٣ - ٦٩
* التهاني	٥٤
* التعازي	٥٦
* الشكر	٥٨
* التشوق والاستدعاء	٦١
* الشكوى والعتاب	٦٣
* الاعتذار	٦٦
* الهدايا	٦٧
* الشفاعات	٦٨
- الرسالة الادبية	٧٠ - ٩٧
* الطرديات	٧٠
* الشتويات	٧٤
* وصف النكبات	٧٨
* المجونيات	٨٣
* المفخرات والمناظرات	٨٩

الموضوع	الصفحة
* النقد والتهكم	٩٤
- الفصل الثاني - أثر الغزوين الصليبي والمغولي في	
الرسالة الفنية	٩٨-١٥٨
- الرسائل الجهادية	٩٩-١٢٤
* الحث على الجهاد	٩٩
* البشارات بالنصر	١٠٥
* التهديد	١١٠
* السخرية من العدو	١٢٠
- صورة النصر	١٢٥
- صورة الهزيمة	١٣٠
- صورة المجاهدين	١٣٢
- صورة العدو	١٣٨
- وصف الحصون	١٥١
- وصف الأسلحة وأساليب القتال	١٥٣
- الفصل الثالث - الرسالة الفنية : دراسة فنية ١٥٩-٢٤١	
- بناء الرسالة	١٥٩
- الأسلوب	١٦٦
* الصنعة الفنية	١٧٠-١٨٩
- السجع	١٧٥
- الجناس	١٧٩
- الطباق والمقابلة	١٨٣
- التورية	١٨٦
* ظواهر لغوية (التوليد اللفظي، الحذف ، الالفاظ	
الكتابية ، توجيه الاصطلاحات والاسماء ، الفاظ	
من غير العربية ، الرسالة والعامية)	١٨٩

١٩٧	 * أشر القرآن الكريم
٢٠٢	 * أشر الحديث الشريف
٢٠٥	 * أشر الشعر
٢١٥	 * أشر الامثال
٢١٨	 * أشر الرسائل والخطب والماثورات
٢٢٣	 - الصورة الفنية في الرسالة
٢٤٣-٢٤٢	 الخاتمة
٢٥٥-٢٤٤	 المصادر والمراجع

Faculty of Higher Studies

Department of Arabic

University of Jordan

Epistles in
The First Memlukid Era in
Egypt and Syria

A Master's Thesis Presented by :

Khalid Abd ul-Rauf Jabr

Supervised by :

Prof. Abdul Jalil Abdul Muhdi

This thesis was submitted in partial fulfillment of the requirements for the master degree of arts in Arabic at the Faculty of Graduate Studies in the University of Jordan .

1992

Abstract

This study attempts to show a clear picture of the language of epistles during the Memlukid rule of Egypt and Syria . It therefore concentrated on the style of epistles which usually began with a preface followed by the text of the epistle and ended by a conclusion .

The study comprised a preface , an introduction , three chapters and a conclusion . In the introduction , the present writer wrote about "Diwan al-Inshā'" - the Government Secretariat - and the education of the top secretary .

In the first chapter the epistles were classified into three categories : the official , the friendly and the purely-literary .

The writer then studied the themes of the official epistles , and attempted to scrutinize them in relation to the political , religious and social aspects of the Memlukid society . The epistles showed that their writers expressed the views of the Memlukid rulers in the different issues , as well as their attitudes towards certain sects such as the Shiis and the Sufis .

٤٠٧٨٥٥

As for the letters of friendship , the writer found out that their themes were related to congratulations , condolences , gratifications , apologies and gentle censures . Such themes usually are linked with the relationships of friends , and they are characterized by sentimental expressions .

As for the literary epistles , they vary in their topics and are usually different from the aforementioned themes . The topics might relate to hunting , entertainment , or the depiction of nature . Some topics take the form of debates between two different objects , such as the "Pen" and the "Sword" . Certain epistles of this kind talk about mishaps and disasters such as epidemics and earthquakes .

In the second chapter , the writer discussed the impact of the Crusading and the Mongol invasions on the material of the epistles . Their writers wrote about Jihad - the Holy War , the happy news of victory, and defeat , the glorious picture of Moslem fighters , the image of adversaries , the description of weapons and the methods of fighting .

The third chapter was assigned for the artistic and stylistic features of the epistles : their structure , openings , texts and conclusions . The writer exposed in this study specific kinds of rhetoric which were prevalent and appreciated in that age . He also tried to trace the origins of the images used in these epistles and discussed the dynamic trait of their texts .

In the conclusion , the writer showed that the literature of that age represented an artistic taste of the society . Therefore it should not be judged according to our taste and norms .